

فؤاد حمزة

في بلاد عسير



الطبعة الثانية ١٣٨٨ - ١٩٦٨

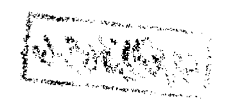
الناشر
مكتبة النصر الحديثة
لصاحبيها
عبد الله ومحمد الصالح الراشد
الرياض



فؤاد حمزة

في بلاد عسير

الناشر
مكتبة النصر الحديثة
لصاحبيها
عبد الله ومحمد الصالح الرشيد
الرياض



الطبعة الاولى ١٣٧٠ - ١٩٥١

الطبعة الثانية ١٣٨٨ — ١٩٦٨

تصدير

مما لا شك فيه أن سعادة فؤاد بك حمزة رجل من أكرم رجالات المملكة العربية السعودية ، وأشدهم غيرة على قوميته ، وأبرزهم همة ومروءة وشهامة .

ولقد خدم سعادته جلالة الملك المعظم عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود مدة نحو ربع قرن ، فكان ، ولا يزال ، الرجل المخلص فى جميع المناصب التى تقلدها فى جميع أدوار حياته ، والأمين الوفى لجلالته ، والحارس على شتى الشؤون الخارجية للمملكة . وتولى مفاوضات عدة ، وصاغ اتفاقات جمة ، واضطلع بأعباء ومهمات خاصة . فكسب فى جميع ما تولاه ثقة جلالة الملك المعظم وتقديره السامى .

عرفته من نحو ثلاثة وعشرين عاماً فى مواقف شتى وحوادث متعددة ، فكان فيها كلها بلا استثناء يهدف إلى الصالح العام ، ويرجو الخير لأهله ووطنه (وقليل هم الذين يحبون الخير للجميع) .

وتولى سعادته شؤون الخارجية ، إدارة ووزارة ، ومثل جلالة الملك المعظم لدى الجمهوريتين التركية والفرنسية ، وكذلك أوفدته الحكومة السعودية إلى البلاد المجاورة فى بعض شؤونها ، فكان السفير المخلص ، والممثل الأمين ، والسياسى اللبق الحكيم .

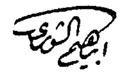
واختاره جلالة الملك عبد العزيز — حفظه الله — ليكون إلى جواره مستشاراً خاصاً ، وعاملاً كبيراً لتصريف شؤون مملكته الواسعة . وها هو ذا سعادته يضطلع الآن بأعباء هذا المنصب الخطير ، فيبذل ما وسعه البذل والهمة والجهد ، رغبة منه

فى تنفيذ توجيهات مليك البلاد المعظم من جهة ، وتحقيق أمانى الشعب من جهة أخرى ، برغم ما يعتور صحته من إعياء وضعف .

وهو مع شدته فى الحق ، وصلابته فيما يراه صواباً ، طيب القلب ، لين العريكة ، كريم السجايا ، رضى النفس ، أنموذجاً للخلق العظيم ، ومثلاً حسناً للشباب والرجولة الحقة .

ومما اشتهر به الحركة والدأب على العمل ، يحب العلم ، ويميل إلى الدرس . وله بحوث قيمة فى تاريخ الجزيرة العربية ، يدل عليها كتابه النفيس : « قلب الجزيرة العربية » .

وفى مجلس خاص حدثنا سعادته عن كتابه هـذا الذى نقدمه اليوم للمكتبة العربية ، فإذا هو سفر خالد ، وبحث مستفيض ، وتحقيق قيم دقيق ، لم يسبقه إليه أحد . فأشرنا عليه بأن يكشف عنه ، لينتفع به الكتاب والمؤرخون ، وأن يقدمه إلى عارفى فضله وصفوة محبيه . فأجاب بعد إحجام ، واستمع لهذه الرغبة المخلصة ، ودفع إلينا بهذا الكنز الثمين ، وهذه الجوهرة النفيسة . وذلك السفر الضخم الذى نقدمه ، تحفة نادرة إلى كل مخلص أكيد ، يحب العرب وبلاد العرب ، ويقدر لسعادة المؤلف الفاضل — كما قدرنا من قبل — بلوغه الشأو ، ووصوله إلى الغاية ، فى كل ما يقدم من بحث وتفكير .



مقدمة الناشر

عزيزي القارىء

سبق لدارنا ان قدمت لك من قبل الطبعة الثانية لكتاب « قلب جزيرة العرب » وكذلك الطبعة الثانية لكتـــاب « البلاد العربية السعودية » ، للأديب الراحل فؤاد حمزة . وها نحن اليوم نقدم لك « في بلاد عسير » واننا سنقدم لك عما قريب سائر كتب المؤلف لأنها سلسلة متكاملة لا بد لمن اطلع على احدها ان تتوق نفسه للاطلاع على الكتب الاخرى .

هذا ، وقد تخيرنا نشر هذه السلسلة لما لها من اهمية فائقة ، فهي كتب جامعة ، وهي مرجع ثبت لا بد ان يعود اليها كل من اراد الاطلاع على كيفية نشوء وتأسيس وتطور المملكة العربية السعودية ، وذلك لأن مؤلفها لم يكن نكرة في عالم السياسة بل كان دعامة من دعائم وزارة الخارجية السعودية وعلماً من اعلامها الكبار ، عرف اسرار الدولة وشارك في كثير من احداثها وساهم في كثير من الحادثات والمفاوضات والمعاهدات ، وكان جيد الصلة بالملك الكبير عبد العزيز آل سعود طيب الله ثراه لانه كان من رجال حاشيته المقربين كما انه كان ذا صلة وثيقة بسائر امراء البيت المالك وحكام المناطق والاعيان .

ولهذا كله فان كتب فؤاد حمزة تعتبر بحق ادق المراجع التي تتحدث عن الجزيرة العربية في النصف الأول من القرن العشرين .

وهذه الدار التي اعتادت ان تقدم للقارىء اجود الكتب وأنفسها لتفخر اليوم بما تقدم راجية ان تكون قد حظيت برضاك وتابعت رسالتها التي التزمت بها وهي تخير الأفضل .

وبالمناسبة لا يسع مكتبة النصر الحديثة في الرياض الا تقديم جزيل شكرها الى السادة سامر وعمر الجمال المرحوم فؤاد حمزة مؤلف هذا الكتاب للروح الكريمة التي ابدوها حين طلبنا منهم اعادة طبع هذا الكتاب القيّم ، فهم لم يكتفوا بالقبول بل تفضلوا فوق ذلك بالتبرع بايرادهم من هذا الكتاب لضحايا العدوان الصهيوني الغادر على الاردن الشقيق ، وهذا ليس بمستغرب على ابناء الرجل الكبير الذي نذر حياته لخدمة القضية العربية في مختلف المجالات السياسية والادبية والعلمية وكانت له ايادٍ بيضاء لا تزال تُذكر فتُشكر .

ادامهم الله ذخراً للعلم والمعرفة والعمل .

وفقنا الله لما فيه الخير والسداد .

الناشر

تمهيد

لهذا الكتاب قصة بدأت منذ بضع عشرة سنة ، فقد كتبته فى أعقاب رحلة قمت بها فى بلاد عسير كنت أسجّل مشاهداتى خلالها فى مذكرات يومية ، ثم أضفت إليها المعلومات التفصيلية التى كنت أستقيها من مصادرها . وكنت أرجو أن تتاح لى الفرصة لنشرها فى وقت لم أكن أتوقّع أن تطول به الشقّة ، ولكن الأحداث التى توالت منذ فرغت من وضع الكتاب وكثرة الأسفار وتوالى عدم الاستقرار حال دون تحقيق مبتغاى .

وقد ظلّت مسوّدات الكتاب رهينة محبسها ، حتّى تراءى لى مؤخراً أنّ فى نشرها فائدة للذين يهمّهم أمر الاطلاع على شئون منطقة هامة من مناطق المملكة العربية السعودية ، وعلى أحوال بلاد ما زالت بكراً لم تكتسحها مؤثرات الحضارة الحديثة . والآن أتقدّم بها إلى القرّاء على الحال التى كتبت بها دون أى تغيير أو تعديل ، على الحال التى دوّنتها بها ، حتى تجىء صورة طبق الأصل لما انطبع فى الخاطر فى تجوالاتى إبّان تلك الرحلة ، وعذرى فى ذلك أنّ محاولة تحويرها أو تبديلها — برغم مايمكن أن يكون له من الفوائد — يمسّ طرافة الكتاب ويؤثر فى الصورة الأصلية التى أردت إخراجه عليها .

وإنى لأرجو أن يتلقى حضرات القراء كتابى هذا بما هو أهله ، وبالله العون ومنه التوفيق .

فؤاد حمزة

الرياض فى { غرة رجب ١٣٧٠
إبريـــل ١٩٥١

القِسم الأوّل

أهل الوديان

الفصل الأول

مقـــدمات الرحلة

الأزمة مع اليمن — معدات السفر — خطة العمل — رفاق السفر — عود على بدء

١ — الأزمة مع اليمن

ليس كتابى هذا كتاباً يبحث فى السياسة أو يشرح أسباب النزاع بين الملك ابن سعود والإمام يحيى والحرب والمفاوضات والصلح وما جرى خلال ذلك من أحداث جسام بين الحجاز واليمن ، وإنما هو كتاب رحلة وجغرافيا وتاريخ واجتماع . وقد كان السبب فى كتابته الأزمة اليمانية — السعودية التى اشتد أوارها عام ١٣٥٢ وقدح زنادها عام ١٣٥٣ . هذه هى العلاقة بين هذا الكتاب وبين الأزمة اليمانية أحببت أن أوضحها بجلاء فى مستهل الكلام .

الملك عبد العزيز والإمام يحيى ، حاكمان عربيان مسلمان ، كلاهما جاهد جهاد الأبطال فى سبيل دينه وعروبته ووطنه ، وكلاهما خاض المعارك وناجز القروم والأبطال ، فاستتب له فى النهاية ملك طويل عريض ، والعاقبة للمتقين .

اتصل ملك الملكين العربيين مباشرة واختلطت مصالحهما على حدود واحدة باستيلاء الملك ابن سعود على عسير السراة وامتداد حمايته على عسير تهامة واتصاله بأهل نجران من أيام ، وذلك بعد زوال السيطرة العثمانيـة عن بلاد العرب عام ١٩١٨ ميلادية .

تطورت علاقات الملكين خلال عشر سنوات انقضت على اتصال حدودهما مباشرة تطوراً كان يلحظ فى ثناياه وتضاعيفه عوامل خفية ، وأدرك كثيرون من العقلاء أنها ستؤدى حتما إلى اللجاج فى النزاع فى الحرب ، وقد تنبه كثيرون إلى نقاط

الضعف فى علاقات الملكين وحاولوا إطفاء الوميض الكامن فلم يوفقوا إلى اجتثاثه من أصوله .

كانت الشرارة الأولى عقب احتلال الملك ابن سعود للحجاز ، فقد تطرق الوهن والضعف إذ ذاك إلى الإمارة الإدريسية فى تهامة ، وتقلصت أطرافها باحتلال الجيوش المتوكلية لأكثرها وفى مقدمتها الحديدة واللحية فميدى وما صاقبها من جهة الجبال وكادت تصل إلى جيزان ، بل قد وصلت بالفعل إلى سامطة بقرب أبو عريش ، وإذا بالقنبلة السعودية المنذرة بالخطر والمحذرة لليمانيين من الاندفاع وراء أهوائهم تنقض انقضاض الصاعقة . وكانت القنبلة على شكل معاهدة الحماية السعودية على بلاد الأدارسة فى ربيع الأول عام ١٣٤٥ .

وكانت الشرارة الثانية فى شعبان عام ١٣٥٠ حينما تقدمت جيوش الإمام يحيى فاحتلت بلادا تابعة المقاطعة الإدريسية التى تعهد ابن سعود بحمايتها من كل خطر داخليا كان أم خارجيا . دارت المفاوضات بينما الاستعدادات الحربية من الجانبين جارية بكل همة ونشاط ، وتكللت المساعى السلمية ولله الحمد بالنجاح التام بفضل حكمة الملك ابن سعود ورغبته فى السلام والسكون . جاء حكم ابن سعود على نفسه فى قضية جبل العُرو مثلا من المثل العليا فى الشهامة العربية والحكمة والعبقرية ، فقضى على الفتنة ولكن دون اجتثاث جرثومتها .

وكانت مسألة نجران ثالثة الأثافى للموقد الذى تطايرت منه الشرارة الثالثة التى ألهبت الضرم وأجّجت النيران ، إذ كان كل من الفريقين يدعى بنجران دون أن يكون محتلا فعلا بقوى أحدهما . لقد أبرق الإمام يحيى للملك ابن سعود مستريبا من اتصال أهل نجران من اليامية بأمرائه فى عسير ، فأراد ابن سعود أن يبعد الريبة بشكل مقبول ، فأبرق إليه برقية تأولها الإمام يحيى لمصلحته ، وكأنه قرأ فيها تنصّل ابن سعود من نجران واليامية ، فأمر جنده بالتقدم لاحتلاله بينما كان وفد ابن سعود يدخل حدود اليمن من جهة تهامة للمفاوضة فى مشروع حلف عربى عظيم .

فشل الوفد فى مهمته ، وتمّ احتلال نجران ، فلجأ أهله إلى ابن سعود يطالبونه بحمايتهم وفاء بعهده الذى قطعه لهم منذ سنين ، ودارت المخابرة بين الملكين بالبرقيات ، وطال الأخذ والرد ، وحصل تحرش آخر آلم ابن سعود وأثار حفيظته ألا وهو احتلال قسم من جباله فى تهامة ، والقبض على رهائن من قبائله على الحدود ، فظهر أن الأمر أكبر من أن يحلّ بالمخابرات البرقية .

قرّر الملكان أن يعقد مؤتمر فى أبها للنظر فى حل الخلاف ، فانتدب الإمام يحيى ابن عمه السيد عبد الله بن أحمد الوزير — أحد كبار القوّاد والساسة فى اليمن — أمير الجيوش المتوكلية فى تهامة لرياسة وفده ، ونثر الملك عبد العزيز كنانته فعهد إلى مؤلف هذا الكتاب برياسة الوفد العربى السعودى .

وكان أن توجهت إلى أبها فى ١٤ شوال ١٣٥٢ (٣٠ يناير ١٩٣٤) ، وآليت على نفسى أن تكون رحلتى مزدوجة الفائدة من الناحيتين : السياسية بالعمل على إنجاح المؤتمر ، والأدبية بتدوين مشاهداتى الجغرافيــة وجمع المعلومات التــاريخية والاجتماعية عن أحوال ما أمرّ به من تلك البلاد البكر التى لم يكتب عنها إلاّ اليسير وإخراج ذلك للناس فى سفر . هذه هى قصة ميلاد كتابى ، وتلك هى العلاقة بينه وبين الأزمة اليمانية .

٢ — معدات السفر

يحتاج السفر فى بلاد العرب إلى ترتيبات خاصة هى من مقتضيات طبيعة البلاد ، وقد أفادتنى رحلاتى العديدة ما بين نجد والحجاز والأحساء فوائد لا أنكرها ، غير أنى كنت هذه المرّة قاصداً بلاداً غير مطروقة تكاد تكون معلوماتنا عنها كمعلومات صبيان المدارس ، فرأيت أن أستعد للمجهول أكثر من استعدادى المعتاد ، لاسيما لاعتزامى تدوين مشاهداتى للأماكن والمسافات والأبعاد والآبار والموارد والقبائل والقرى والأودية ، واستقصاء ما هو مجهول عنها ، ووضع خريطة للطريق يصح أن يرجع إليها .

أمّا من الوجهة العلمية فقد أحضرت ما أمكننى تداركه من الآلات البسيطة التى يستعين بها الرّواد فى رحلاتهم ، وأعددت كشوفاً وأوراقا خاصة لتسجيل الأبعاد والانحرافات المغناطيسية ودرجة الحرارة والبارومتر ، كما أعددت مكتبة صغيرة مما طبع من كتب الأقدمين عن بلاد العرب وعددا من الخرائط الأفرنجية ، وكانت نيتى التوغل فى نجران وهو القسم المجهول حتى الآن فى الجزيرة ، وجعل عودتى إلى مكة المكرمة عن طريق كتف السراة مستعينا بالإبل والخيل على اجتيازها إلى الطائف مارّا ببلاد بنى شهر وغامد وزهران ، فأكون قد جست خلال الديار التى نجهلها فى الجزيرة وحققت مواضع مشهورة كالخلصة فى بلاد دوس وتبالة وجرش وسواها ولكنى حرمت — مع الأسف — من العودة بالطريق التى كنت أقصد ، فاكتفيت بالمعلومات عن البلاد التى زرتها .

أمّا أدواتى العلمية فقد كانت مؤلفة من :

(١) بوصلة مضبوطة (٢) بارومـــتر
(٣) ميزان حرارة (٤) شريط مساحة
(٥) جداول وكشوف جغرافية وفنية (٦) آلات تصوير من قياسين

وكان عداد السيارة يقوم بمهمة تسجيل المسافات .

٣ — خطة العمل

كنت أرى أنه مما يمس العزّة القومية فى الصميم ألا نقوم — ونحن أبناء البلاد وأهلها — بدرس أحوالها وكتابة جغرافيتها وتاريخها كما يفعل الأفرنج ممن تتاح لهم زيارتها فترة قصيرة فيملئون الدنيا كتابة وخطابة عن مشاهدات كثيرا ما تكون سطحية مدسوسة ، وكنت شديد الحرص على الاستفادة جهد الطاقة من كل أسفارى فأخدم بذلك العلم وأرفع عنّا سبّة يوجهها إلينا الأفرنج فى غير تورع ولا قصد ، فوطنت النفس فى رحلتى هذه على اهتبال الفرصة السانحة لى والخروج منها بنتائج علمية باهرة ، فاستشرت أحد أصدقائى من الأفرنج المقيمين فى هذه البلاد

ممن اعتاد القيام برحلات فى البادية ، ورجوته أن يسعفنى ببعض معلوماته ويعيرنى بعض أدواته ، ومع أنه كان لا يزال من أصدقائى فإنه كان شحيحاً بمعلوماته ضنيناً بأدواته ، ولحظت منه أنه غير آبه كثيراً للموضوع ، بل بالأحرى لم يكن على ثقة من أن وطنيا يستطيع أن يأتى بمثل ما يأتى به الأفرنج ، كأن العلم وقف عليهم .

كل هذه العوامل جعلتنى مرهف الأذنين حادّ العينين ، منقباً عن الكبيرة والصغيرة ، محققاً جزئيات الأمور ودقائقها ، سائلا متعلماً جامعاً للروايات والأخبار ، مهتما بكل ما تقع العين عليه أو تسمع الأذن به أو تمسّه اليد .

واصطحبت صديقاً من المهندسين لكى يفيدنى فى أخذ قياسات الانحراف المغناطيسى ورسم خريطة الطريق ، كما اصطحبت من كل منطقة يمّمتها دليلا خبيرا بها .

كنت أجمع أسماء الأماكن والمواقع والآبار والأشجار والأخبار من الأدلاء والخبراء المرافقين أو المصادفين فى الطريق ، وكانت ظروفى مواتية للبحث بدقة ، إذ كان علىّ أن أبحث مع وفد اليمن فى مقاطعات الحدود ، وهذا لا يمكن إلا بجمع المعلومات الصحيحة المفصّلة الدقيقة عنها وعن سكانها وما فيها ، الأمر الذى أفادنى فائدة كبرى ما كانت تتسنى لغيرى فى ظروف غير ظروفى . وبالفعل لم يمسك عنى أحد معلوماته ، ولم يدخر وسعا فى سبيل إطلاعى على كل ما أريد من أهل الخبرة والدربة ومن رجال الحكومة وأمراء القبائل والموظفين وغيرهم ، وكنت أعارض المعلومات بعضها ببعض فيظهر لى صريحها من هجينها وغثّها من سمينها ، ولذلك فأنى واثق من أن ما أعرضه فى هذا الكتاب من المعلومات هو أدق وأصح ما يمكن الحصول عليه .

أما الأرصاد العلمية فإننا كنا نتخذ عداد السيارة أساساً لقياس المسافات ، وكنا نعارض عدادى السيارتين ليتبين لنا الفرق بينهما ، وحينما ظهر لنا أن الفرق بين العدادين جزئى جداً قررنا الاعتماد على أحدهما ، وبناء على ذلك فقد وجهنا اهتمامنا

إلى تسجيل قراءات الانحراف المغناطيسي في البوصلة في مسافات معينة ، وكانت القراءات في الأماكن الفسيحة السهلة أقل منها في الأماكن المنعرجة أو الكثيرة المنحنيات . لقد أخذنا مثلا ٤٩ رصداً من بئر القرشـية في أطراف ركبة إلى جهة الطائف إلى آبار بريم في طرف حَضَن الشمالي ، والمسافة بين الموضعين ٩١ كيلومتراً ، وأخذنا ٤٨ رصداً للانحراف من بريم إلى الخرمة في مسافة تبلغ ٦١ كيلومتراً .

وأما الاتجاهات التي كنا نرصدها فقد كانت دائمـاً اتجاهات طريقنا ، وكنا نعتمد على مشاهدة شجرة أو قلعة لنسجل الرصـد عليها ، غير أننا وجدنا أن عملنا يكون أضبط وأدق لو تقدمتنا السيارة الكبيرة لنتخذها هدفاً للرصد .

وكانت الأرصاد في بعض الأحيان كثيرة عند المنحنيات ، كما كنا نأخذ أرصاداً متعددة من نقطة واحدة إلى اتجاهات مختلفة عن اتجاه طريقنا . ففي نقطة واحدة في القرشـية أخذنا خمسة أرصاد في اتجاهات مختلفة ، وفي مواضع أخرى كانت الأرصاد تبلغ ثلاثة أو أربعة أو خمسة حسب الظروف ، وجل قصدنا من هذا الدقة في تسجيل الصفات البارزة على الطريق وأطرافه ؛ علّنا نتمكن من رسم خريطة مضبوطة يصح الاعتماد عليها ، وكنا نسجل إلى جانب دفتر الأرصاد شروحاً عن ظاهرات الأرض وطبقتها والشجر والمياه والأودية والقرى ، وعلى الإجمـال كل التفاصيل التي يجب الوقوف عليها .

وكنا نسجل درجة الحرارة ثلاث مرات في اليوم ، صباحاً وظهيرة ومساء .

وأما (البارومتر) فكنا نسجله كلما تراءى لنا أننا في صعود وارتفاع ، وكنا نسجل القراءات بالإنش وأقسامه وبالقدم أيضا ، لأننا نعلم أن استحصال الارتفاع بتعديل قراءات (البارومتر) على درجة الحرارة أدق من قراءة الارتفاع بالأقدام .

٤ — رفاق السفر (١)

أكثر ماينطبق المثل القائل « الرفيق قبل الطريق » على السائح في بلاد العرب ،

(١) من المعلوم أن رفاق السفر غـير رفاق المؤتمر . اشترك معي في المؤتمر الشيخ عبـد الله ابن زاحم قاضي معسكر الأمير سعود ، والشيخ عبد الوهاب أبو ملحة مدير مالية عسير والشيخ دليم ابن محمد أبو لعثة أمير قحطان عسير ، والشيخ تركي بن ماضي أمير غامد وزهران .

فى البادية ، فى المجاهل والمفاوز ، وقد كنت كذلك ، ولو كنت سائحا فى غير الجزيرة لما اهتممت بالبحث عن الرفيق قبل الطريق .

كنا نجهل ما تأتينا به الأقدار بعد وصولنا إلى (أبها) واقترابنا من منطقة الخطر ، ولذلك اخترت رفاقى ممن يعتمد عليهم وقت الشدة ، فكان فى مقدمتهم المهندس محمد كنعان خريج الجامعة التركية فى إستانبول ، وهو من شباب العرب الذين اشتركوا فى أكثر الحركات العربية ، وقد كان وجوده معنا مساعدا على أخذ القياسات وتسجيل الأرصاد ودراسة حال الطريق ، فضلا عن أنه كان مصدر أنس وتباسط بسبب بعض الصفات البوهيمية فيه . أذكر ويذكر رفاقى بكل اغتباط وقائع مسلية كان بطلها وفارسها كنعان . لقد افتتح الرحلة بنكتة ظلت وقتاً طويلا باعثاً على الضحك والانبساط . حين ركوبنا من مكة المكرمة كان نصيب كنعان فى سيارتى الخاصة ، فوجد فيها بنادقنا ومسدساتنا و بندقية الصيد وقراطيس الخرطوش ، فانتقد وجودها فيها ، واقترح نقلها إلى مكان متسع فى السيارة التى تتبعنا ، مع كوننا مسافرين إلى ساحة الحرب وقد نضطر إلى الاشتراك فى المعارك . ولا نسل أيها القارئ العزيز عن ابتهاجنا بهذا الاقتراح ولمزنا لكنعان بسببه . وكان أن وصلنا إلى مكان بقرب السيل الصغير على طريق الطائف ، فنفد بنزين سيارتنا ، ومكثنا ساعتين فى انتظار السيارة الكبيرة لنملأ خزان سيارتنا مما تحمله من وقود ، وهنالك قلنا لكنعان : وما رأيك لو كنا فى البر وصادفنا صيداً ، أو وحشاً كاسراً ، أو عدوا ، ألا يحسن بنا أن نرجوه الصبر والتأنى حتى نأخذ سلاحنا من السيارة الكبيرة ونستعد لمقاومته حسب اقتراحك ؟ ! . هذه النكتة وكثير غيرها يدل على روح كنعان الخفيفة وطبيعته الساذجة البريئة .

والشخصية الثانية فى الرفاق بعد كنعان : سكرتيرى الخاص محمد شيخو ، وهو أليف الأسفار ورفيق المسافر ، صحبنى فى كل أسفارى فى البدو والحضر ، وأصبحت له ملكة فى إعداد معدات السفر و إدارة الرفاق .

وهنالك تابعان خصوصيان لخدمتي الشخصية ، وهما مكلفان بكل ما يتعلق بشخصي فقط .

وهنالك « القهوجى » ، وهو زميل الرفاق وسميرهم ، تجمعهم أكوابه وأباريقه ، وعنده الحلقة الكبرى ساعات الحل وأوقات الاستقرار .

وهنالك أيضا شخصية عقيد الحملة الذى هو بمثابة رئيس للأتباع ، ووظيفته الإشراف على الخيام والمياه والحطب ، و إصدار التعليمات إلى رفاقه بالاستعداد للسفر ، أو بالتوقف عنه ، أو بنصب الخيام ، وهو همزة الوصل بين السيارة الصغرى و بين ما يتبعها من سيارات الرفاق .

أما الطاهى ومعاونه وأدواته فإنه لا يقرن « بالقهوجى » إلا إذا صفّقت المعد من الجوع وألّحت فى طلب الطعام ، عندئذ يهرع الكل إلى قِدره ، هذا ينفخ فى النار وذاك يوقد الحطب ، وغيره يذبح الذبيحة و يسلخها ، وآخر يجلب الماء ، والكل فى تلك الساعة أتباع للطاهى . أما إذا امتلأت البطون وعافت الأنفس الطعام ، ترفّع الرفاق عن الطاهى ، وعاد هو إلى وحدته لايؤنسه فيها إلا معاونه .

أما السائقون ومعاونوهم فإنهم يتعبون فى السفر ليستريحوا وقت الإقامة ، إذ ما يكاد يصل السائق بسيارته إلى المقيل أو المعشّى أو المضحّى ، وما يكاد يترك عجلة القيادة حتى ينبطح على الأرض فى ظل سيارته أو فى ظل شجرة .

والشخصية الفذة فى السفر هى شخصية الدليل أو الخبير ، وهو فى الغالب بدوىّ من أهل الديار التى نجتازها ، ويختار عادة من البادية ، لأنه أوسع خطى ، وأبعد مدى ، وأعلى كعباً من الحضرىّ الذى تنحصر معلوماته فى الحواضر وما جاورها . وقد استخدمنا أدِلّاء كثيرين ، فكان فيهم الخفيف الروح والثقيل الظل والماهر ببيع معلوماته والمبالغ فى الوصف والمقل المقتّر .

٥ — عود على بدء

لم تتح لى الظروف الفرصة التى أردت ، فقد اصطدمت مفاوضاتنا بعقبة كؤود لم يمكن تذليلها ، وانقطعت المفاوضات بين الوفدين فى (أبها) ، فانتقلت إلى يد الملكين من جديد ، ومكثنا فى (أبها) مدة لم نضعها عبثاً ، فقد جُسْنا خلال بلاد عسير وما جاورها من بلاد شهران ؛ وتفقدنا العقبات الثلاث المشهورة ، وأرسلنا المهندس للكشف عن أسهلها وأقربها تناولاً ، لشق طريق منها إلى تهامة لعبور السيارات ، واجتمعنا بأعيان البلاد — وقد جمعتهم دعوة الحرب — فى مخيم سمو الأمير سعود ولىّ العهد فى بلاد شهران ، واتصلنا بأشخاص ما كان الزمن ليسمح بالوصول إليهم ، فضلا عن الاتصال بهم ، لولا حالة الحرب وضرورتها ووجوب الوقوف على كل شاردة وواردة مما يتعلق ببلادهم ، فجمعنا معلوماتنا ورتبناها و بَوَّبْنَاها على قدر الإمكان ، وعارضنا الأقوال والروايات ، إلى أن قنعت بأنى لم أترك أمراً هاماً ما قيدته ، ولا خبراً من أخبار القوم ما دونته ، فإن كنت فشلت فى إكمال رحلتى على النحو الذى رسمته لها ، فقد وفّقت فى جعل القسم الذى قمت به من الرحلة ناجحاً موفقاً .

الفصل الثانى

ركبـــة

السمر فى القمر — عكاظ — آبار القرشية — سهل ركبة

١ — السمر فى القمر

غادرنا الطائف عصر يوم الثلاثاء الواقع فى ١٥ شوال سـنة ١٣٥٢ (٣١ يناير سنة ١٩٣٤) وكُنَّا فى ركب سمو الأمير فيصل ، فأرادنا على أن نسمر فى أحد الأودية فى أرض الجُدَيْرة ، على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً من الطائف ، وناهيك بالسمر فى الخلاء تحت أديم السماء الصافية الزاهية ، والقمر بدر ينير الأرجاء ، فتنعكس أحسن صور الليل المقمر ، وترتسم أجمل المناظر فى الصحراء المرتفعة . ومجلس الأمير فيصل جزل بالنكتة عامر بالمحاورات الأدبية النـثرية والشعرية العامية ، ويتخلَّلهُ نوع من إنشاد الأشعار يسمى بالردح ، وطريقـة الردح أن ينقسم المجتمعون والشعراء فريقين فيلقى أحدهم موضوعا للإنشاد فيه ، وعلى شعراء كل فريق أن يردوا ببيت شعرى ، ولا يجوز التكرار لا فى المعنى ولا فى القافية . وكل يحاول بث روح الحماس فى شعرائه ، فترى هؤلاء يتسابقون إلى إلقاء البيت المنشد على البديهة ، ويظل رفاق الشاعر يرددون البيت حتى يفتح الله على شاعر فى الفريق الآخر للرد عليه ، وهكذا دواليك .

عاشرت الأمير فيصل فى بلاد التقاليد والتمدن ، وفى الحفلات والولائم الأوربية ، وعاشرته فى الحجاز وفى نجد ، كما عاشرته فى بعض نزهاته الخلوية ، وإذا به أمير المجالس أينما كان ، متمدن فى بلاد التمدن ، بدوى بين البداة ، فارس مغوار بين الفرسان متى أطلقت للخيل أعنتها . ففى هذه الليلة أرسل الأمير نفسه على سجيَّتها محاكيًا بذلك البداوة الساذجة فتمثَّل أميراً أعرابياً ؛ يشارك قومه ما هم فيه ،

فيشترك معهم فى إيقاد النار وشواء لحم الضأن على طريقة البدو ، ويأكل الشواء الناضج على الرماد الحار أو المطبوخ فى جلد مدفون بالرماد .

من أراد نشاط البرّ، وطلاوة العيش الحرّ فى الخلاء والقفر ، فعليه بمجلس الأمير فيصل ، ففيه الغذاءان العقلى والجسمانى ، ولكن أين نحن الآن مما نحن مقبلون عليه ؟ ودّعنا الأمير فى آخر السهرة ، وسرت بنا سياراتنا تنساب فى ضوء القمر . وكانت الليلة عامرة ، وكان الهواء عليلا ، وكل ما فى الليل من رفق وهدوء وعذوبة يبعث على الاغتباط ، فوصلنا حوالى منتصف الليل إلى آبار القرشية فى طرف ركبة من جهة الطائف ، حيث اعتزمنا تمضية مابقى من الليل ، لكى نتمكن من القيام بواجبنا العلمى الذى أخذناه على عاتقنا فى وضح النهار

٢ — عكاظ

قد يخال القارئ أنى أقصد تسمية مجلس الأمير فيصل عكاظاً ، والواقع أنى أقصد عكاظاً آخر ، أقصد عكاظاً الصحيح الذى لا يوجد من يعرف العربية دون أن يكون قد سمع بعكاظ وسوقه .

وليس هذا الكتاب موضوع بحث عن عكاظ ، فلذلك مقام آخر[1] ، غير أنى — فى مطلع رحلتى — عرفت عنه أمراً مضى علىّ وقت غير قصير لم أوفّق إليه . كنت أبحث عن عكاظ وموقعه ، وأجمع المعلومات وأتفقّد المواقع التى ورد ذكرها فى أخباره ، وكنت أعلم أن موقع السوق مختلف فيه ، وأنه بجوار « نخلة » بينها و بين الطائف ، أو عند ذات عِرق بينها و بين قرن المنازل ، وأنه جرت بقربه حرب الفجار أيام الحريرة والأُتَيْداء وشِرب ، وأن فى أطرافه العُبَيْلاء والفَتْق وغيرها من المواضع ، و برغم كل محاولاتى لم أستطع تعيين أكثر هذه الأماكن على وجه التحقيق ، ولكنى اكتشفت خبر شِرب ليلة سمرى فى مجلس الأمير فيصل ، و إليك البيان :

(١) وضع المؤلف رسالة عن « عكاظ » وتحقيق موضعه لم تطبع للآن .

بين الطائف وذات عِرق جبال وهضاب وسهوب تقسم المياه إلى خطّين مائلين ، فالخط المائل الغربى تجتمع مياهه فى أودية السيل الصغير ووادى المِحرم (قرن المنازل) والكفو والسيل الكبير ، وأما الخط المائل الشرقى فإنه يصفّى مياه السفوح والهضاب الشرقية .

تعرف الأرض المستوية الممتدة من جوار بلدة أم الحمض إلى الرّبوة بأرض الُجدَيرة ، وتجتمع المشارب ومجارى السيول فى الُجدَيرة فى واد كبير هو وادى شِرب الوارد ذكره فى قصّة الفجار وعكاظ . ويمتدّ وادى شِرب من الربوة إلى قرب الأُخَيْضِر ماراً بالضلع الصالح والعقرب والمبعوث ومجتازاً ضِلع الخاص وضلع الكُلَيّة إلى القُرَشِيّة ، ثم تغور مياهه فى سهل ركبة فى مكان اسمه الخاش .

وركبة تبتلع كثيراً من مياه الأودية القادمة من جهة الطائف ، فهنالك غير وادى شِرب الذى يعدّ من أعظم أودية هذه الجهة والذى تصب فيه المياه المتجمعة فى سبيل القَيْم وأم الحمض والربوة والُجدَيْرة ، هنالك وادى العَرْج ووادى لِيّة وغيرها .

أفادنى هذا الاكتشاف فائدة عظمى فى إقناعى بمكان عكاظ الصحيح ، وكنت من قبل قد لمست أطراف الحقيقة فى أبحاثى وتحرّياتى عن موقعه ، وشرعت فى تكوين فكرة سليمة له ، فجاء خبر شِرب قاطعاً جازماً بصحة الفكرة وقاضياً على كل شك فيها .

كنت أذهب قبل اكتشافى الحالى إلى أن السَّهْبَ الواقع بقرب جبل القانِس بين السيل وذات عِرق هو المكان الذى يحتمل انطباقه على عكاظ أكثر من غيره .

وكانت الروايات مترادفة بأن مكان عكاظ هو المحل المعروف باسم القهاوى عند أعالى مجرى السيل الصغير على بعد ٣٥ كيلو متراً من الطائف .

وكنت أقرأ فى كتب الأدب والجغرافيا عن تعريفات عكاظ المختلفة ، ما يفيد أنه سوق بصحراء عندها صخرات ملساء وبجوارها العَتْق وهو لبنى نصر والعُبَيْلاء ،

والآن تعرف باسم العبيلاء ، وكل هذه الأوصاف تنساق بكل صراحة للدلالة على المكان الواقع فى طرف ركبة الجنوبى — الشرقى بين أودية شِرب والأُخَيْضِر والعَرْج وبين جبل المبعوث والخلص ، ليس ببعيد عن بلدة الاخَيْضِر ، فجاء اكتشافى الحديث مؤيداً لصحة ما ذهبت إليه . وإنى لأرجو أن تتيح لى الظروف فرصة لإخراج رسالتى عن عكاظ علّها تكون اساسا محدّداً لموقع سرقه يبنى عليه فى المستقبل .

٣ — فى آبار القرشية

تبعد القرشية عن الطائف ٥٥ كيلو متراً . وهى آبار فى مجرى شَعِيب شِرب قبل أن يغيب فى ركبة عند الخاش ، تقع إلى الجنوب الغربى من ركبة ، وتقع عُشَيْرة إلى شمالها ، والمسافة بينهما قصيرة ، والمتّجه من مكة المكرمة إلى الخرمة لا يطأ آبار القُرَشِيَّة بل يمرّ على عُشَيْرة ومنها إلى رُكْبة فبريم رأساً ، وأما المسافر من الطائف إلى الخرمة فلا بد له — قبل الدخول فى رُكْبة — من التزوّد بالماء من القرشية ، إذ لا يصادف بئراً أخرى قبل بُرَيْم على بعد ٩١ كيلو متراً منها .

كانت درجة الحرارة حينما وصلنا القرشية ليلا ٢٠ عشرين ، فلما أفقنا عند الفجر هبطت إلى عشر .

مشينا من القرشية حوالى الساعة الثامنة صباحاً ، وأركبنا معنا الدليل الشيبانى ليدلى إلينا بمعلوماته عن ركبة ، وهى ديرة لعتيبة كما هو معلوم ، وقسنا الاتجاهات المختلفة من القرشية لتعيين موقعها بالدقة فإذا هى واقعة فى مكان مشرف على عدة جبال بارزة فى أطراف ركبة هى :

١ — وَقِير . ٢ — الوَقِيرات . ٣ — الخلص . ٤ — الكَلَيَّة ، ثم أمامنا سهل ركبة المنبسط .

كان الشيبانى خفيف الروح دقيق الملاحظة ، رفع عقيرته — عقب تحرك السيارة — منشداً أغنية بدوّية فى مدح السيارة ومقارنتها بالذلول والفرق بين سرعة الاثنتين :

ركبت فى موتر[١] يوضى[٢] بلماعه　　يعوضنى عن النضى[٣] سلسات الاقران
مشاة عيس النضى يومين له ساعة　　وإذا برا كبه يخبّر بالعربيان
راكبه اللى[٤] مايفديه[٥] الدليـله　　غير من رأس العمود القضبّان[٦]

البدوى كالبعير قد يكون أليفاً وقد يكون شروداً ، وقد يكون ظريفاً حاضر البديهة خفيف الظل أو يكون كسائر البدو جفاة عراة حفاة . ويشـترك البدو فى غريزة الخوف من القوى والحذر من المجهول ، والطمع الشديد ، وكثرة السؤال والاستيضاح دون أن يمكن البدوى مخاطبه من أخذ أخباره وكشف أسراره ، وقد اجتمعت فى صاحبنا أوصاف البدو العامة ، ولـكنه كان من القسم المقبول المستساغ .

أما من حيث المعلومات عن أحوال ديرته فكان سيبويه عصره ، وأصمعى مصره ، عرف بقاع الأرض رقعة رقعة ، وخبرها من طفولته شبراً شبراً ، وجاس مفاوزها ، وسبر غورها ومجاهلها ، ورأى ليلها ونهارها ، وجرّب صيفها وشتاءها ، وعرف الشجر والعشب والنبات ، وعرف على الإجمال كل ماله اتصال بحياته اليومية منها

سألته عن أمر ما استطعت حلّه منذ سنوات ، فحلّ لى الإشكال بكلمتين ، وكشف المغطّى بدون أقل عناء . كنت أخلط بين شجر السَّلَم والسَّمُر والطَّلْح ، وكلّها من فصيلة « الأكاسيا » البرّية ، وتتشابه جذوعها وسوقها وأغصانها وأوراقها وأزهارها تشابهاً عجيباً ، فلما سألته عن الفوارق بينها أجاب على البديهة : « تفرّق بشوكها ، فشوك السَّلَم دقيق وشوك السَّمر أكبر قليلا وشوك الطَّلْح أكبرها » . بوركت أيها الشيبانى ، وزادك الله علماً يا راعى الجبلة ، لقد حللت لى معضلة عالجتها كثيراً وفشلت فى معرفة كنهها ، فكنت فى نظرى سيد العارفين وإمام النباتيين .

٤ — سهل رُكْبة

رُكْبة ، اسم يطلق على سهل فسيح من الأرض المنبسطة يبلغ طوله زهاء مائة

---

(١) سيارة　(٢) يضىء　(٣) الذلول : السهلة القيادة　(٤) الذى　(٥) يكفيه
(٦) عمود القيادة فى السيارة .

كيلومتر وعرضه أقل من ذلك بقليل ، وهى محصورة بين هضاب ومرتفعات جبال الحجاز عند المبعوث والوَقِيرات من الجنوب ، وحَضَن وما اتصل به من الجبال المتجهة من الجنوب إلى الشمال من جهة المشرق ، والحرّة المسماة بحرّة البس من جهة الغرب ، وأما من جهة الشمال فإنها تنتهى عند الهضاب الواقعة بين بُرَيْم والِحْلَمَة والمُوَيْه ودحروج وسَيْسَد والأَشْفيَان وجبال المويه .

وركبة من أهم المراعى لقبيلة عتيبة ، ويكثر فيها العشب والشجر ، وأهم شجرها السَّمرة وفيها أيضاً الطّلح والوَهْط والسَّرْح ، غير أن الأول أعمها وأكثرها . وأما أعشابها فالعراد والخصاب والعِجْلة والنَّصِى والثُّمام والهِلْتَة والقَطْف . وشاهدنا قليلا من نبات الحنظل والسنا والعشرق .

ويكثر الظبي الأشهب فى ركبة ، ولكنه شرع فى هجرها منذ إدخال طريقة صيده بالسيارات . وقد كان من قبل يفر من الجبال إلى السهل ، فانعكست الآية الآن وأصبح فراره من السهل إلى الجبل حذراً من السيارات . ومع أن ما صيد منه خلال السنوات الأخيرة يبلغ الآلاف فما زالت قطعانه كثيرة جداً .

ومياه ركبة قليلة ، وليس فيها بئر واحدة برغم خصب أرضها وإحاطة الجبال المرتفعة بمنطقتها ، والآبار توجد فى أطرافها من سائر الجهات ، وأهم هذه الآبار :

١ — عشيرة ، ٢ — القرشية ، ٣ — سامودة ، ٤ — بريم ، ٥ — صِلَّبَة ، ٦ — حراضة ، ٧ — البُديّعة .

ومع أن الجبال محيطة بركبة من سائر جنباتها كما مر بك ، فإن من توسطها لا يشاهد إلا أفقاً مترامياً لا يعلوه أثر مرتفع كالسائر فى اليم لا يرى إلا السماء والماء ، ولذلك فإنها مخيفة ويخشى من التيه فيها ما لم يكن الإنسان عارفاً بمداخلها ومخارجها .

ذكرنا أن جبل حَضَن[1] يقع إلى الشرق من ركبة ويحدها من الفيافى الشرقية الواقعة إلى جهات عرق سبيع ووادى الدواسر ، ولكن هناك سلسلة من الهضاب

---

(١) يروى فى الحديث : (من رأى حضناً فقد أنجد) .

القليلة الارتفاع تقع بين ركبة وحضن ، وتعرف باسم البرقان نظراً لبياضها واختلاف لونها عن لون حضن الأسود .

وقد سمى لنا الدليل عدداً غير قليل من الأبارق والجبال ذوات الأشكال العجيبة المخروطية أو الهرمية أو المسنمة . وتنتهى ركبة من جهة الشمال على طريق الذاهب إلى بريم عند أبرق النوار على بعد ٦٢ كيلومتراً من القرشية . وأما الجبال التى يمر بها المسافر بعد أبرق النوار فهى دحروج الأيمن ثم النميلاء ثم دحروج الأيسر لوقوعه عن يسار الطريق ثم عدامان وعدامة ثم سيسد ويدخل بعد ذلك فى منطقة حضن وما جاورها ، وهو ما سنصفه فى موضع آخر .

حينما مشينا من القرشية كانت الأرض أرض العراد والسمر ، وبعد مسير ٣٦ كيلومتراً قل العراد والسمر وكثر الحطاب والعجلة ، وبعد خمسة كيلومترات أخرى عاد السمر والعراد يخالطه شجر الوهط ، وكلما توجهنا شمالا بشرق ظهرت لنا قمم جبل حضن السوداء مستعرضاً من الجنوب إلى الشمال ، وبينها وبين ركبة البرقان .

فإذا سارت السيارة ستة كيلومترات بعد أبرق النوار أى ٦٨ كيلومتراً من القرشية بدأت أرض كأنها حبال من الحصباء السوداء بينها خبب ، ويكون هنا بدء الانحدار قليلا ، ثم نصادف صخوراً ابتدائية تشبه الصخور الرسوبية ، ثم حصباء مرة أخرى لمسافة بضعة كيلومترات حتى ندخل بين الجبال حيث يكون دحروج الأيسر على بعد حوالى ٣٠٠ متر عن الطريق . وتمر الطريق فى نقطة بين جبل البرما الذى هو منتهى جبل حضن من الشمال وبين جبل البتيلة . وبعد مسيرة خمسة كيلومترات تصبح الطريق محصورة بين الجبال التى ذكرناها من قبل وهى النميلاء على اليمين وعدامة على اليسار وسيسد إلى الوراء ؛ وبعد مسيرة بضعة كيلومترات أخرى فى أرض متحولة من رخوة إلى حصباء إلى حرة إلى رملية ، تتغير استقامة الطريق من الاتجاه الشمالى الشرقى إلى الشرق تماماً ، ثم تميل إلى الجنوب الشرقى بعد أن تدور حول خشم جبل البرما فتصل إلى آبار بريم الثلاث .

الفصل الثالث

ديار البقوم وسبيع

الطريق إلى الخرما — البقوم — وادى تربة ووادى سبيع — قبيلة سبيع

١ — الطريق إلى الخُرما

تبعد الخرما عن آبار بريم ٦٦ كيلومتراً ، وتسير الطريق فى استقامة شمالية حتى تصل حرة الرحيان بعد كيلومترين تقريباً ، و ليست هى من الحرار العظيمة ، بل هى عبارة عن جبلين من الحجارة السوداء بينهما خُبة ، و يبلغ طول الطريق وسط الحرة حوالى الخمسة كيلومترات .

ثم تعتدل الطريق بعد الحرة وتسير فى أرض سهلة متماوجة ذات قاع صلب الظاهر رخو الباطن مسافة ١٦ كيلومتراً ، ثم يعترضها واد مشهور يسمى « وادى القطان » ، وهو الحد الفاصل بين ديرة البقوم أى حضن وتوابعه و بين ديرة سبيع ، و يبعد عن البريم ٢٣ كيلومتراً ؛ والوادى المذكور مجتمع المياه المنحدرة من حضن الشمالى ، وتصب فيه شِعبان كثيرة ، ثم يمتد مسافات بعيدة إلى أن يغور بقرب جبل الأشفيان . وعلى بعد ٣٠ كيلومتر من وادى قطان تصل الطريق إلى سبخة جفجف ، وحينما يكون المسافر فى منتصفها يشاهد إلى اليَمين حرة الكلبة وهى قسم من البقوم .

بعد أن قطعنا بريم ، أصبحت خبرة دليلنا محدودة ، فهو برقاوى عتيبى ، والأرض من البريم إلى الخرما ملك للبقوم وسبيع ، وهم أعداء عتيبة وكانوا معهم قوماً [1] . ولم يكن يتسنى لهذا الدليل قبل حكم ابن سعود أن يظعن بمواشيه إلى هذه الديرة ، ولذلك بدلناه بغيره فى الخرما .

---

(١) قوم : أعداء

٢ — البقوم

ينتسب البقوم إلى الأَزْد ، وهم — بادية وحاضرة — أهل قوة وبأس . جبلهم المنيع حضن ، ومركزهم بلدة « تربة » والقرى التابعة لهـا . ومُحَارِبتهُم يبلغون الألف أو يزيدون ، غير أنهم صمدوا لجيرانهم من عتيبة وسبيع وقحطان وثبتوا على حربهم ، وهم إلى عتيبة أميل وأقرب ، وتنقسم القبيلة إلى خمس بدائد : ١ — المرازيق ، ٢ — المورِكة ، ٣ — الـكُلَبَة ، ٤ — الرواجح ، ٥ — الفواصل .

ومن البقوم حاضرة استقروا فى بعض بلدان نجد مثل قرية القصب التى يسكنها آل زاحم ؛ ومثل عائلات آل سُوَيْد وآل غدير وآل فائز وآل عوجان .

قلنا إن البقوم كانوا أعداء سبيع وكانوا يتنازعون على المراعى والموارد ، ولـكن ابن سعود ألف بين قلوبهم ووحد كلمتهم . فلمـا تنازع أهل الخرما من سبيع مع أشراف مكة المـكرمة وقف البقوم أهل تربة إلى جانبهم وحاربوا معهم جنباً إلى جنب . والمعركة الشهيرة بين الإخوان وقوات الأشراف إنمـا وقعت فى تربة التى هى مركز البقوم . وليست للبقوم إمارة قائمة بذاتها مثل سبيع ، بل إن أميرهم يعينه ابن سعود من رجاله ، وسنأتى على طرف من أخبارهم فى موضع قريب .

٣ — وادى تربة

وادى تربة أو وادى سبيع هو أحد الأودية الرئيسية الستة التى تتجمع فيها مياه الشعبان والسيول المتـكونة من الأمطار التى تهطل على السفوح الشرقية لسلسلة جبال السراة ضمن حدود المملـكة العربية السعودية وأقربها إلى الشمال [1] .

وينشأ هذا الوادى من أطراف جبل حضن الجنوبية وما جاوره من السلاسل والهضاب ، ويسير فى ديرة البقوم مسافة طويلة حيث تقوم على جانبيه بلدان البقوم

---

(١) الأودية الستة اعتبارا من الشمال إلى الجنوب هى : ١ — وادى تربة ، ٢ — وادى رنية ، ٣ — وادى بيشة ، ٤ — وادى تثليث ، ٥ — وادى حبونة ، ٦ — وادى نجران . وسيرد ذكر هذه الأودية مفصلا فى مختلف أقسام الـكتاب .

التى أهمها تربة المشهورة بواقعتها الحربية عام ١٩١٩ بين الإخوان والأشراف مما سنذكره فى موضعه القريب . وحينما يصل الوادى إلى المكان المسمى « الغريض » على بعد ٦ ساعات للمطية من الخرما ، تكون حدود البقوم من جهة الجنوب الغربى قد انتهت ، وتبدأ حينئذ حدود سبيع عند المروة المجاورة للغريض ، كما تبدأ هذه الحدود من الناحية الأخرى عند وادى قطان المار ذكره . وهذه أسماء القرى الهامة والموارد الشهيرة الواقعة على أطراف الوادى اعتباراً من دخوله ديرة سبيع :

١ — الغريض .

٢ — القرين : وهى عين ماء وقعت بجوارها معركة حامية بين الإخوان والشريف شاكر .

٣ — حوقان : وهو مجمع مياه ونخيل وقصور .

٤ — الخرما : وهى أكبر بلدان سبيع على الوادى ، وتقع على ضفته الغربية ، وتتألف البلدة من قسمين : أولها الخرما القديمة أو القصر العتيق ، وثانيهما هجرة خالد بن لؤى التى أنشأها فى الحرب العامة .

٥ — الدُّبَيْلة : ماء ونخيل .

٦ — الدُّغَيْمة : على ضفة الوادى اليمنى .

٧ — السَّلَمِيَّة : على الضفة اليسرى .

٨ — الوطَاة .

٩ — أبو جُمَيْدة .

١٠ — الحِنُو ، وهو ماء لا نخيل فيه ، وقعت فيه معركة عظيمة بين الإخوان والشريف شاكر .

١١ — الشَّف ، والخنفا ، والقنصلية ، وكلها مياه على الوادى ولا نخيل فيها .

وينتهى الوادى فى عرق سبيع ويغور فى رماله ، ويمكن اجتياز المسافة من الغريض فى أعلى حدود سبيع على الوادى إلى العرق فى أربعة أيام على المطية .

ويمكن تخمين طول الوادى من علوّه إلى مصبّه بمسافة مائة وعشرين كيلومتراً .

٤ — قبيلة سبيع

تقيم قبيلة سبيع فى الوادى المعروف باسمها (وادى تربة) . وفى وادى رنية ، وفى أطراف حرّة سبيع وعرق سبيع ، وهى من أهمّ القبائل فى هذه الجهة ، ولها قسم آخر يقيم فى العارض المحسوب بادية لنجـد ، كما أن كثيرين من سبيع قد تحضّروا وسكنوا قرى نجد .

ويحيط بقبيلة سبيع فى ديرتها : قبيلة عتيبة من الشمال والشمال الغربى ، والبقوم من الغرب والجنوب الغربى ، وقبائل الحجاز و بيشة وغامد وزهران وأكلَب من الجنوب ، والدواسر وقحطان من الشرق .

ويحدّهم عن ديرة عتيبة مفيض وادى قطان عند الخَنْفَرِيَّة وخشوم الرَّحَى وشَعِيب خَنْشَل من جهة الشمال ، وماء الأَيْسَرِى الواقع بقرب خشم عرق سبيع من الشرق. ويحدّهم عن ديرة قبائل بيشة أرض الذّهاب التى تبعد عن رَنْية مسافة ٦٥ كيلو متراً إلى الجنوب .

ومركز سبيع بلدتان هامتان : الُخرما فى الشمال ، ورَنْية فى الجنوب . وللقبيلة فروع وأقسام متعددة نذكرها فيما يلى :

أولاً — الذين فى الُخرما من سبيع :

القَمْلة ، فى السَّلمِيَّة

العَجْرِيَّة ، فى الخرما

بنو كور ، فى الُخرما

القريشات ، فى الخرما

ثانياً — الذين فى رنية من سبيع[(١)]

---

(١) أما الذين فى نجد من سبيع فهم :
أولا — بنو عمرو ومنهم (١) الحضران وأقسامهم العملة والجبور والنبطة والعرينات .
(٢) الصعبة وأقسامهم الجمالين وآل على وآل عزة .
ثانياً — بنوعاص ومنهم الفدقة والعيادين والصيافة والقدعة وبنوحمد .

المكاحلة	آل محمد
الصّنادلة	الرّوبة
المشاعبة	السودة
المفالحة	الفراعنة
الجهوم	الشُّمَيْسَات
الملوح	المَرَاغين
المجامعة	الوِزْرَان

ولكل فريق من هؤلاء كبير ، غير أن الذين فى الخرما يتبعون أميراً من الأشراف العبادل هو ابن لؤى ، والذين فى رنية يتبعون شريفاً آخر من العبادل أيضاً هو ابن صامل .

وقد كان السبعان — قبل حكم ابن سعود وامتداد حركة الإخوان إليهم — معادين لجميع جيرانهم من الرُّوقة وبَرْقة من عتيبة والدواسر وقحطان وأكْلَب والبقُوم ، ولكن حركة التدين شملتهم قبل غيرهم ، فتآخوا مع البقوم ، وقاوموا عتيبة التى كان أكثرها مواليًا للأشراف فى مكة المكرمة ، ووقعت بينهم وقائع عظيمة سنذكرها فى موضعها إن شاء الله .

الفصل الرابع

تربة والخرما

الأشراف والإخوان — مقدمات تربة — الوقائع قبل تربة — معركة تربة — وقائع ووقائع

١ — الأشراف والإخوان

يطلق على النزاع الذى قام فى أعقاب الحرب العامة بين البقوم وسبيع وأحلافهم من أهل نجد و بين حكومة الأشراف فى الحجاز اسم «النزاع بين الأشراف والإخوان» بالرغم من أن رؤساء الاختلاف فى الجانبين كانوا من الأشراف العبادل : الملك حسين وحكومته من ناحية الحجاز ، والشريف خالد بن لؤى وأتباعه من سبيع والبقوم من ناحية نجد . وقد تطوّر هذا النزاع من نزاع محلّى بسيط إلى خلاف شديد بين الإخوان والأشراف ، ثمّ إلى حرب شعواء بين نجد والحجاز كان من نتيجتها إقصاء العائلة الهاشمية عن حكم الحجاز وانضمام الحجاز إلى المملكة العربية السعودية .

نشأ النزاع عن محاولة الشريف حسين بن على أمير مكة المكرمة أن يبسط سلطته ونفوذه على بلاد عتيبة وحرب عام ١٩١٠ على أثر تولّيه شرافة مكة ، وعن اصطدامه بالحيوية الجديدة التى بعثها ابن سعود فى عقائد أهل نجد وفى معايشهم بنشره تعاليم الإسلام الصحيح ، وقضائه على الخرافات والأوهام المسيطرة على أفهام الناس وحلومهم منذ أجيال . ويمكن إرجاع أسباب النزاع الحقيقية إلى عاملين جوهريين : الأول دينى ، والآخر سياسى .

أما العامل الدينى فهو أن السبعان والبقوم كانوا قد أطاعوا داعى التوحيد أيام آل سعود الأولين ، ونشأت بينهم و بين أهل نجد صلات ودّ لم تُذهبها الأيام بعد أن عصفت الأرزاء بحكومة آل سعود الأولى ، فما قام عبد العزيز بن سعود بدعوته السلفية قبل الحرب العامة ببضع سنوات حتى أجابها عدد غير قليل من هاتين

القبيلتين ، وكان من نتيجة ذلك تولّد أسباب الاحتكاك مع جيرانهم المحافظين على جاهليتهم ، ونشوء حزازات ومطامع أدت إلى اكتساب الأمر شكلا سياسياً خطيراً بين مكة والرياض كما هو معلوم . والحقيقة أنه يصعب تعيين مدى تأثير كل من العاملين أو تعيين المتقدّم منهما . فمحاولة الأشراف توسيع حدودهم من الحجاز إلى قلب نجد عام ١٩١٠ كان العامل السياسى الأول والأخير فيما وقع ، ثمّ إن نهوض ابن سعود بأمر الدعوة الدينية الخالصة فى نجد و إقبال البادية على اعتناق هذه الدعوة وامتداد نفوذها إلى قبائل الحجاز كان العامل الدينى السياسى الذى خشى الأشراف شرّه وحاولوا صدّه ووقفه .

أسرف الأقدمون فى التساهل فى تحديد الحجاز ونجد ، وأين مبتدأ كل منهما وأين منتهاه ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح فى إمكان أى حاكم قوىّ أن يدّعى تبعيّة هذا القسم أو ذاك من البلاد للحجاز أو لنجد . ويروى فى الحديث الشريف أن حدود الحجاز تنتهى حينما يشاهد جبل حَضَن ، وعلى هذا التقدير يمكن اعتبار عُشَيْرة وأطرافها حداً طبيعياً فاصلا للحجاز عن نجد ، غير أنّ الشريف حسين لم يقنع بذلك ، فادّعى تبعية عُتَيْبة وحَرْب للحجاز على أمل الوصول من وراء ذلك إلى توسيع دائرة نفوذه وسلطانه على القصيم ونجد ، ووضعته محاولته هذه فى موقف التحدى لنجد ولأميرها على السواء ، وقد تفاءل الشريف حسين بما أصابه من نجاح أوصله فى هجومه على نجد عام ١٩١٠ حتى القاعِيَّة وخُفّ عند نفُود السرّ ، فشرع يعدّ عدّته لبسط نفوذه الكامل الشامل . وديار البقوم وسبيع واقعة بين نجد والحجاز ، فأذن ليبدأن بها ولتكوننّ مفتاح النصر والظفر .

رجع الشريف حسين إلى التاريخ فوجد فى بعض مادته ما حمله على الاعتقاد بأن فى استطاعته الاستيلاء على بلاد البقوم وسبيع ، دون أن يحسب للعوامل الأخرى حسابها ، فاصطدم بإرادة الأهالى أنفسهم و بمصالح جوهرية للقائمين بأمرهم ، فثار العجاج واشتد اللجاج ، ولم تغنه قرابته من أمير الخرما ولا علاقة مكة التاريخية بالأشراف المبادل فتيلا .

٢ — مقدمات تربة

اطلعت على رسالة بالإنجليزية وضعها المكتب العربى بالقاهرة عام ١٩١٩ لإطلاع الحكومة البريطانية على مقدّمات تربة وتفاصيل حوادثها وقت اشتداد الأزمة ، فرأيت أن أسرد خلاصتها فيما يلى :

١ — فى ٢٤ أكتوبر ١٩١٨ ذكر الملك حسين للكولونيل ولسن المعتمد البريطانى بجدة أنّ أمراء الخرما من الأشراف كانوا تابعين لمكة وكانوا يعينون من قبل الشريف ، وأنه (أى الحسين) عزل أربعة أو خمسة منهم ، وأنه بعد وفاة منصور بن لؤى والد خالد عيّن أخاه عوضاً عنه ، ولكنه بعد سنتين أصيب بمرض عضال قضى عليه ، فعيّن خالد بن منصور بن لؤى وكيلا للأمير .

٢ — فى ديسمبر ١٩١٧ ذكر الأمير عبد الله للكولونيل كورنواليس أنه — فى الحقيقة — لم يحاول أحد من أشراف مكة بعد الشريف عبد الله بن محمد بن عون (المتوفى ١٨٧٧) أن يسيطر على بلاد عتيبة إلى أن تولّى والده الحسين شرافة مكة . وذكر أيضاً أن مجازفة والده كانت سبباً فى استياء ابن سعود وتحرشاته . وقد كتب الحسين لابن سعود بأن عتيبة وحرباً تابعون للحجاز ، فلم يوافق ابن سعود على ذلك ، غير أنه وافق على ذلك وعلى دفع ضريبة معيّنة للحجاز أيضاً بموجب معاهدة ١٩١٠ حين غزا الحسين نجدا .

٣ — وفى يناير ١٩١٨ جرى حديث بين الكومندر هوغارث والملك حسين بجدة ، كان رأى الملك حسين فيه خلاف رأى ابنه الأمير عبد الله ، فذكر أن معاهدة ١٩١٠ أصبحت ساقطة لا قيمة لها . وزاد على ذلك أن حقيقة الواقع هى كون الأمير سعد بن عبدالرحمن تعهد بأن تعفى حرب وعتيبة وسبيع ومطير من دفع الزكاة لابن سعود أو لابن رشيد ، وبأن تطلق الحرية لمدن القصيم لاختيار أمرائها وأن يدفع للحجاز مبلغ ٣٠٠٠ ريال فى السنة ، وأنه برغم هذا الشرط فإن المبلغ لم يدفع قطعياً ، وذكر الملك أنه اعترف لابن سعود بحقه على عتيبة حينما يكونون فى بلاده .

٤ — وفى فبراير سنة ١٩١٧ ذكر الأمير فيصل (الملك فيصل) للكولونيل لورنس أنه منذ نحو خمس سنوات شرع ابن سعود فى خطته المدائية تجاه مكة ، فاستمال إلى جانبه بعض البقوم وسبيع وهدّد الطائف ، فاضطر الشريف إلى اتخاذ تدابير زجرية ، فأرسل ابن سعود أخاه سعداً ليتلافى المسائل ، فتمّ الاتفاق على أن يكون وادى الدواسر إلى النقطة التى يصبح اسمه فيها وادى رنية تابعاً لابن سعود ، وأن تكون أودية الخرما و بيشة ورنية للشريف ، واعترف الشريف بإمارة ابن سعود على قحطان ، كما اعترف ابن سعود بإمارة الشريف على عتيبة [١] . وفى عام ١٩١٢ عاد النشاط لابن سعود فاضطر الشريف إلى إرسال ولده عبد الله إلى ديار عتيبة فبلغ حداً لم يبلغه الأشراف من قبل من جهة الشرق .

٥ — وفى ٢٩ مارس ١٩١٩ كتب الشريف حسين إلى المعتمد البريطانى بجدة كتاباً برقم ١١٠٧ قال فيه : « نحب أن نوضح لكم أننا بذكرنا الرّوقة فقط فى الخريطة التى وضعتها لولسن باشا لأجل إراءته قسما من المملكة العربية الهاشمية ، لم نكن نقصد مطلقا أن الخرما وتربة ورنية و بيشة والدواسر غير تابعة للعاصمة (يعنى مكة) لأنه حتى هذه الساعة نحن الذين نعين أمراءها ونجبى زكاتهم وجهادهم يرسل إلينا ، وأنا الذى عينت خالدا أميراً على الخرما وعزلت الشريف محمد بن سلطان من بيشة ، وضممتها إلى خالد [٢] .

٦ — أما رأى ابن سعود الذى أدلى به للشريف حسين وللحكومة البريطانية فهو أنه لايوجد أساس لمدعيات الشريف حسين بشأن تربة والخرما ؛ فضلا عن المدعيات بشأن ديار عتيبة فى نجد ، وأن حدود الحجاز من جهة الشرق تنتهى بقرب وادى العقيق (عُشَيْرَة) عملا بالحديث الشريف و بالتعامل الجارى بين العرب ، وأنه لم يسلم قط بأن للشريف أى حق على نجد أو قبائلها ، وأنه لا يوجد ما يبرّر سياسته

---

(١) لاشك فى أن الذى نقل الكلام عن لسان الملك فيصل كان يجهل أوضاع الأودية المذكورة فجاء الكلام غير مستقيم كما يرى .

(٢) فى هذا الكتاب مطلب صعب جداً بشأن وادى الدواسر لايسلم به أهل نجد .

القهرية ضد أهل الخرما وأهل الوديان على الإجمال لاعرفا ولا تاريخا ، ولا من حيث الدين ، وأن أهل الوديان يحسبون من أهل نجد ، وأن إرادتهم وميلهم هما الأساس فى حل الخلاف ، ولا يوجد بينهم من يريد الشريف أو حكومته .

وقد عجزت أساليب السياسة والتحكيم عن حل الإشكال ، فأهل الخرما وأتباعهم لم يقبلوا الشريف ولا حكومته وطلبوا الإمداد والنجدة من الإمام ابن سعود فى الرياض ومن كافة الإخوان فى نجد ، وحكومة مكة أصرت على خلع « خالد » وضم بلاده للحجاز فلم يكن بدّ — والحالة هذه — من نشوب القتال واستعار لهيبه بين الفريقين .

٣ — الوقائع قبل تربة

لم يعلن أهل (الخرما) خلع نير حكم الشريف فى مكة إلا عقب إعلان الحرب العالمية وقيام الشريف حسين بالنهضة العربية . وقد اشترك الشريف خالد بن لؤى أمير الخرما فى حركات الحرب الأولى حول المدينة ، ولكنه كان يرى نفسه مضطراً إلى مجاراة أهل ديرته فيما هم عليه من اتباع أهل نجد والسير على خطتهم ، وكان يرى رأيا مخالفاً لرأى الأشراف فيما يتعلق ببعض المسائل الاجتهادية . وقد ذُكر لى فى الخرما أنه لم يكن موافقا على قصر الصلاة بدعوى إعلان الجهاد وغير ذلك من التسهيلات .

عاد «خالد» من عند الأشراف فى الحجاز إلى ديرته ، فوجد الخلاف على أشده ، بين أنصار الفئتين من جماعته ، غير أنه رأى الكفة راجحة بجانب أهل نجد ، فترأس الحركة الجديدة وانضم إليها وجاهر بها ، ثم سافر إلى الرياض وأعلن خضوعه وولاءه ، وطلب « مطوّعا » ليكون مرشداً لأهل الخرما فى شئونهم الدينية ، وقاضياً يفصل فى منازعاتهم ، فأجيب إلى طلبه ، وسلم إليه لواء من ألوية الجهاد . و بعد عودته إلى الخرما أنشأ هجرته التى ذكرناها فيما تقدم من البحث ، وأصبح منذ ذلك الحين عاصيا لحكومة مكة ثائراً عليها ، ووجب على الحكومة أن تؤدبه . غير أن الشريف حسين لم يحاول ذلك فى مطلع الأمر ، ولم يرسل عُمّاله لجمع الزكاة كالمعتاد .

وفى أوائل عام ١٩١٨ أرسل الشريف حسين عماله لجباية الزكاة من سبيع ، فما كان من خالد بن لؤى إلا أن اعتقلهم ومنعهم من القيام بمهمتهم ، ثم جمع قوة من الإخوان طهّر بها العناصر المعادية له من أهل الخرما ، وبذلك بدأ النزاع بينه وبين مكة .

وفى شهر مايو من ذلك العام كتب الملك حسين إلى الحكومة البريطانية ملفتاً نظرها إلى أعمال ابن سعود ومداخلاته مع القبائل التى كانت تخضع للحجاز من قديم الزمان ، ومعلناً لها اعتزامه إنفاذ قوة تأديبية إلى الخرما ، وقد أنفذ بالفعل قوة مؤلفة من ١٠٠٠ مقاتل بقيادة الشريف حمود بن زيد ، فالتقى بها الإخوان فى ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٦ هـ (مايو ١٩١٨) فى حَوْقان ، وهزموها وشتتوا شملها .

أعلن الملك حسين فى جريدة (القبلة) أن القوة بلغت هدفها الذى رسمه لها ، ولكنه بالرغم من ذلك أمدها فى شهر يونية بنجدة عسكرية فنية معها عدد من المدافع والرشاشات ، ولا يعلم فى الخارج شىء عما جرى للقوة الأولى ولا للنجدة . والحقيقة أن النجدة وقعت فى كمين نصبه لها الإخوان فى جِبَار فى ١٧ رمضان سنة ١٣٣٦ هـ فقضى على أكثرها .

وقد بلغت الوقائع قبل معركة تربة حوالى عشر كان الفوز فيها دائماً حليف الإخوان . أنشدنى بعض أهل الْخُرما شعرا طويلا جديراً بتسميته (ملحمة) للوقائع وتفاصيلها جاء فيه :

قُرَيْن [(١)] وَحَوْقان [(٢)] وَحِنْو [(٣)] مَصَارِعٌ   وَجِبَــار ليس بجابر للكافرينا

وهذا بيان الوقائع حسبما أملاه علىّ أهل الخرما :

أولاً : وقعة حَوْقان السالفة الذكر فى ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٦ (مايو ١٩١٨) قائد الإخوان فيها خالد بن لؤى ، وقائد جند الشريف حمود بن زيد .

ثانياً : وقعــة جِبار فى ١٧ رمضان سنة ١٣٣٦ (يونيو ١٩١٨) القائدان كما

---

(١) و (٢) و (٣) أسماء أماكن

فى الموقعة الأولى ، ولكن جند الشريف يمتازون بسلاح المدافع والرشاشات .

ثالثاً : وقعة الِحنُو ، فى ٩ ذى الحجة سنة ١٣٣٦ هـ (أغسطس ١٩١٨) ، وذلك أنه على أثر انكسار قوات الشريف حمود مرتين كما تقدم ، صدر الأمر للشريف شاكر بن زيد أخيه بأن يتقدم لاحتلال الخرما وديرة عتيبة بصفته أميراً على كافة عتيبة ، فجاء الشريف شاكر وعسكر فى مَرّان إلى الشمال الغربى من الخُرما ، وشرع فى إثارة خواطر عتيبة على سبيع وأهل الخرما . ووفق إلى تأليف غَزْو من المُقَطَة برياسة شُلَيويح ، ولكنه مُنِىَ بما منى به الغزوان السابقان . ولم يجد الأمير شاكر بُدًّا من الهجوم بنفسه ، فجمع ما لديه من قوات بدوية وحضرية ، وجهز مدفعيته ورشاشته ، ووصل آبار الِحنو على بعد ٢٥ كيلومتراً إلى الشمال الشرقى من الخُرما ، وكانت قوة الإخوان مؤلفة من ١٥٠٠ رجل من مقاتلة أهل الخرما ووادى سبيع و ٥٠٠ مقاتل من أهل الغَطْغَط و ٢٥٠ من أهل الرَّيْن . وأما قوات الشريف شاكر فإنها كانت مؤلفة من ألف جندى نظامى و ٤ مدافع و ٦ رشاشات ، ومن غزو العتبان الموالين للأشراف وغزو أهل الطائف من قبائل بنى سعد وهذيل وسفيان وغيرهم ؛ بحيث أن أهل الخُرما كانوا يقدرون مجموع قوات الشريف شاكر بستة آلاف مقاتل .

بدأ الإخوان المعركة بهجومهم الليلى المعلوم ، وصبّحوا القوم « هَجَاداً » من الفجر المبكر ، واشتبكوا معهم فى معركة حامية الوطيس دارت الدائرة فيها على جند الشريف شاكر ، ففرّ ببقية جنده قافلا إلى مرّان على عجل . وكانت حجة الأمير شاكر فى انكساره أن كثيرا من الرُّوَقَة وَبَرْقة انحاز إلى جانب الإخوان قبل أن تدور المعركة وتركوه مع القوة النظامية وغزو ثَقِيف وسعد وهُذَيْل من أهل الطائف ، ولم يكن له قِبَل بمقاومة هجوم الإخوان العنيف .

وهجعت الحوادث بعد الِحنُو بضعة أشهر تخللتها هجمات من سرايا الإخوان على القوافل التى كانت تنقل الأرزاق والذخيرة إلى معسكر الأمير شاكر . وكان الأمير عبد الله بن الحسين محاصراً المدينة ، فأراد القدوم بنفسه إلى (الخُرما) غير أن ضرورات الحرب ألجأته إلى التريث خوفا من رد الفعل والانتكاس .

٤ — تربة

(تَرَبَة) بلدة البُقوم كما ذكرنا ، وهى واقعة على الوادى المعروف باسمها الذى يصبح اسمه — بعد وصوله إلى الغريض — وادى سبيع ، وهى أصغر من الخُرما ، وأقل سكاناً وأهمية ، إذ كان مركز الثقل السياسى فى النزاع بين الإخوان والأشراف مستقرا فى الخرما ، غير أن شهرة تربة بعد الموقعة الشهيرة التى دارت رحاها فيها فى شعبان سنة ١٣٣٧ (١٩١٩) قد طغت على الخرما وكسفتها .

دارت الوقائع التى سردناها فى النبذة السابقة خلال الحرب العامة ، حين كانت القوات العربية الحجازية محاصرة للأتراك فى المدينة المنورة ، وكان القائم بأمر الحصار حضرة صاحب السمو الأمير عبد الله بن الحسين (ملك شرق الأردن حالا) ، فأراد أن يزحف بقواته على (الخرما) وينهى أمرها عقب واقعة الحِنو التى دارت فيها الدائرة على جند الأمير شاكر . غير أن الخوف من أن ينتهز فخرى باشا فرصة غيابه ونقص القوات المحاصرة للمدينة فيقوم بحركة خروج قد تمتد إلى أطراف مكة اضطره إلى التريث على مضض .

استعاد الأمير عبد الله حريته فى العمل ضد أهل (الخرما) بعد استلام فخرى باشا فى المدينة فى يناير سنة ١٩١٩ ، وخطا الخطوة الأولى بمغادرته المدينة ، ترافقه القوة الحضرية من جُند الحجاز بمدافعها ورشاشاتها ، تظاهرها القوات البدوية ، وسار من المدينة على الطريق الشرقى ، وعسكر فى أوائل إبريل فى عُشَيْرَة . وقد اختلف الرواة فى عدد القوات الحضرية التى كانت تحت قيادته ، فبعضهم يبالغ فيها ويجعلها آلافا ، وبعضهم على الضد من ذلك يزعم أن عددها لا يتجاوز المئات . أما ضباط الاستخبارات الإنجليزية حينئذ فيقدرون القوة الحضرية بما لا يزيد عن ٦٠ ضابطا و ٧٧٠ صف ضابط وجندى و ١٠ مدافع و ٢٠ رشاشة . والواقع أنهم يفوقون هذا العدد .

وما إن بلغ خبر حركة الأمير عبد الله من المدينة مسامع ابن سعود حتى احتج على ذلك وأنذر خصومه بما يجرّه عمل الأمير من النتائج الخطيرة ، وأنه مضطر لمقابلة حركة الملك حسين والأمير عبد الله بمثلها .

بدأ الأمير أعماله العسكرية بإنفاذ السرايا لتأديب القبائل العاصية ، فقابل الإخوان أعماله بمثلها وشرعوا فى شن الغارة على القبائل الموالية له . وكانت الحادثة الأولى فى الدُّغَيْبَجة فى أوائل مايو ١٩١٩ ، إذ هجم الإخوان على بعض العتبان ونهبوهم ، فأنفذ الأمير سريّة تقتفى أثرهم فلم تظفر بهم بل ظفرت بغزو آخر من الإخوان كان قاصداً الهجوم على مخفر شريفىّ يدعى مُدَرْبَج . وفى تلك الأثناء أيضاً هجمت سرية من سرايا الأمير على فريق من الإخوان فى الرُّخَيْم وقضت عليه .

ظعن الأمير بقوّاته من معسكره وخيّم فى البديّع فى سفح حَضَن ، وتوجّه منها إلى تربة . وفى ٢١ مايو ١٩١٩ أعلن احتلاله لتربة بعد معركة دامت ساعتين ونصف ساعة ، وأنه — بعد أن جمع قواته — شرع فى الاستعداد للتقدم على الخرما ، ثم خاطب رؤساء قبائل سبيع والبقوم وأمرهم بتقديم الطاعة والخضوع وهددهم فى حالة عدم الطاعة بسوء المنقلب . غير أن الأمر لم يدم طويلا ، إذ كان الإخوان يعدون معداتهم لمفاجأة معسكر الأمير فى ذلك اليوم نفسه .

وكان ابن سعود على علم بتدابير حكومة مكة ، وكان — بواسطة جواسيسه — على اتصال وثيق بما يجرى فى مخيم الأمير عبد الله فى عُشَيرة ، ولذلك فإنه لم يؤخذ على غرة حينما سمع بحركة جيوش الأمير من عشيرة فى طريقها إلى وادى سبيع بعد اجتماع الأمير بوالده الحسين والتشاور معه فى الخطة ، بل شرع فى الاستعداد للحرب بأن أنفذ بعض قوات الإخوان من هجرة الغطغط وسواها من هجر عتيبة لتكون إلى جانب أهل الخرما ، كما جهز قوات أهل العارض تحت إمرته وسار بها غرباً وعسكر فى السَّاخَة شمال شرقى الخرما على بعد أكثر من مائة كيلو متر عنها . وأصدر أمره إلى الإخوان بأن لا يكونوا بادئين فى القتال ولا مهاجمين بل يظلوا صادّين مدافعين .

ولم تكن تربة هدف الأمير الأساسى بل كان يستعد لضرب الإخوان فى الخرما ، ولهذا فإنه ما كاد ينتهى من مسألة تربة حتى شرع فى الاستعداد للتقدم إلى الخرما ، ولـكن الإخوان كانوا أسبق إلى لقائه فلم يتركوا له مجالا للوصول إليهم ، إذ لما بلغتهم أنباء هجومه على تربة كانوا فى موقع اسمه القُرَيْن ، وهو ماء على وادى تربة بينها و بين الخرما ، فلم يلبثوا إلا ساعتهم ثم شرعوا فى المسير بعد غروب شمس يوم ٢٥ مايو ١٩١٩ (٢٥ شعبان ١٣٣٧) فوصلوا تربة بعد بضع ساعات دون عناء.

الديرة ديرة الإخوان ، فهم يخبرونها شبراً شبرا ويعرفون سهلها وجبلها وحزمها وشعيبها ونخيلها ومزارعها و بيوتها وقصورها ، فلم يحتاجوا إلى كبير عناء لمعرفة ما يجب عليهم عمله حين مباغتة جند الأمير بهجوم مفاجىء .

رتب الإخوان أنفسهم رتباً وفرقا ، وتولى كل فريق أمر فريق معين من جند الأمير النظامى والبدوى ، وكانت جواسيس الإخوان وعيونهم قد عرفت مواقع الجند ومنازلهم وعدد من فيها بالتقريب ، واستعانوا بالرحمن فى هجومهم الليلى الذى اشتهروا به والذى يلقى الرعب فى قلوب خصومهم ، وحملوا حملة صـــــادقة مكبرين مهللين .

ولم يكن الأمير متوقعاً هجوماً سريعاً كهذا ، وظن أن احتلاله لتربة قد ألقى الرعب فى قلوب الإخوان وأحلافهم ، بل ظن أنهم لا يجرءون على الوقوف فى وجهه فضلا عن الهجوم عليه . ولذلك نام ونام جنده ، وهو خالى الذهن مطمئن البال .

وأفاق الجند كما أفاق الأمير على أصوات الإخوان مهللين مكبرين ، وقد عقد الذعر سرادقه فوقهم ، فعجزوا عن استجماع قوتهم للمقاومة ، وفر كثيرون تاركين أسلحتهم و بنادقهم دون أن يلووا على شىء ، وتمكن الأمير من امتطاء فرس له قريبة منه ، وعاد أدراجه من الطريق التى جاء منها منذ أيام ، ولم يقف إلا عند الأُخَيْضِر .

تحسب معركة تربة من أشد المعارك الحربية الفاصـلة فى تاريخ جزيرة العرب الحديث . وستظل ذكراها عالقة بالأذهان كلما ذكر اسم تربة والإخوان ، إذ قد

تمزقت فيها قوة الأشراف شر ممزق ، وقتل كثيرون من أفراد الجند النظامى كما قتل كثيرون من زهرة الضباط الذين اشتركوا فى الثورة العربية وفى حصار فخرى باشا بالمدينة المنورة . وما زالت آثار مخيم الأمير بادية للآن يراها من يزور تربة . وهنالك من أهل تربة من يأخذ المتفرج إلى تلك الساحة فى بطن الوادى وأطرافه ، فيدله على موضع خيمة الأمير الخاصة وموضع سرادقه الكبير وخيام أركان حربه ومدافعه . وقد يشاهد المرء فى الميدان بقايا تلك المعركة من جماجم وأشلاء ، فلا يسعه إلا إظهار الأسف على ما كان والترحم على من قضى .

وطارد الإخوان فلول الجيش الهاشمى ولكنهم لم يتعقبوه طويلا ، وإنما هاجم فريق منهم فى فجر ٢٦ مايو مخفر كُلَاخ الذى كان الشريف شرف بن راجح قائده . ومع أن الإخوان لم يتمكنوا منه ، فإن الشريف انسحب إلى الأُخَيْضِر لكى يكون بجانب الأمير عبد الله الذى بذل همته لجمع فلول جيشه لصد عادية الإخوان لو فكروا فى مهاجمة معسكره فى عشيرة أو بالتقدم إلى الطائف .

خاف الملك حسين كما خاف الإنجليز من تقدم الإخوان إلى الطائف الذى لم يكن لدى الأشراف فيه ما يكفى لصد عاديتهم عنه بعد تحطيمهم لقوات الأشراف فى تربة . والواقع أنه لم يكن فى استطاعة الحكومة الهاشمية الدفاع عن عاصمتها مكة ، فتوسل الإنجليز بكافة الوسائل السلمية لحمل ابن سعود على التوقف ، فوافق كارهاً .

أراد الملك حسين والأمير عبد الله أن يجعلا من تربة والخرما مقدمة للاستيلاء على بلاد سبيع كلها وعلى بلاد عتيبة وربما على نجد بأسره ، ولكن إرادة الله شاءت أن تكونا مقدمة لثل عرش الهاشميين فى الحجاز وضمه إلى ملك ابن سعود كما هو معلوم .

ليس فى تربة والخرما ورنية من الخيرات ما يمكن أن يطمع فيه ، وليس من بأس فى نظر العروبة أن تكون تابعة لأمير هاشمى أو لأمير نجدى ، ولكنها هى حكمة الله شاءت أن يكون منها سبب لتوحيد أقطار عديدة من الأقطار العربية تحت ظل

ملك واحد ، فتحيا حياة واحدة ، ويكون من اتحادها عزّ وعظمة ، ومبدأ وحدة عامة شاملة بإذن الله .

٥ — وقائع ووقائع

بعد معركة تربة ، اشتدت العداوة بين الإخوان والقبائل الموالية للأشراف فى الحجاز من حَضَن إلى قرب عُشَيْرة والطائف ، وكان القسط الأكبر من عبء الهجوم والدفاع واقعاً على عاتق أهل تربة والخرما من سبيع والبقوم نظراً لقرب ديارهم وكونهم أول من قام بالدعوة فى غرب نجد ، فكثرت الوقائع وتعددت السرايا من الجانبين على غير جدوى . وكان للأشراف مخفران فى كُلَاخ والأُخَيْضر ، ولكن الإخوان كانوا يتعدونهما إلى جوار الطائف فيصولون ويجولون ، وينهبون ويقتلون ، ويد حكومة الشريف قاصرة عنهم .

فمن الوقائع الهامة وقعة قريش على الأخيضر فى أواخر عام ١٣٣٧ (١٩١٩) ، فقد أغار الإخوان على قبيلة قريش وأحلافها ، واستاقوا كثيراً من الحلال والمال ، وعادوا إلى ديارهم سالمين .

وفى عام ١٣٤٠ وقعت وقعة الخرانق ، وفيها قتل عبد المحسن بن خالد ابن لؤى .

وأهم الوقائع على الإطلاق هى التى وقعت فى مطلع صفر ١٣٤٣ (١٩٢٤) حينما زحف الإخوان تحت إمرة خالد بن لؤى على رأس جماعته أهل تربة والخرما من سبيع والبقوم ، وأحلافهم من عتيبة (برقة والروقة) بقيادة سلطان بن بجاد كبير هجرة الغَطْغَط ، وتقدموا من الخرما إلى كلاخ ثم الأخيضر ، حيث جرت موقعة كبيرة لم تحل دون إحداقهم بالطائف وحصاره ، ثم الاستيلاء عليه وضمه إلى أملاك ابن سعود .

سار الفاتحون من أهل الوديان بعد الطائف إلى الهدى ، وتقدموا إلى الزيمة فمكة المكرمة ، ودخلوها محرمين ملبين . فأصبح الثائر العاصى فاتحاً ظافرا ، والشريد الطريد أصبح أميراً حاكما . وهذا من عبر الزمان وتقلباته .

لو علم الشريف حسين أن ابن عمه خالد بن لؤى سيكون سبباً لثل عرشه لما عينه أميراً على الخرما ، ولو اطلع على لوح القدر لما أقدم على ما أقدم عليه من مناوأة أهل الخرما ومحاولة الاستيلاء عليهم بالقوة .

ولكن (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء) .

الفصل الخامس

وادي رنيـــة

المسير من الحرما — صفة الطريق — رنية — الوادى من علوه إلى مصبه

١ — المسير من الخرما

كان مسيرنا فى أوقات قلقة غير عادية ، إذ كنا نشاهد فى طريقنا كتائب المجاهدين سائرة الهوينى ، فنسألها حين نمر بها عن أخبارها . أما فى الخرما فقد قابلنا غزو الرُّوقة من عتيبة بقيادة الأمير عمر بن ربيعان . كان سير الغزاة بطيئاً بسبب إبلهم وخيلهم ، أما الإبل فكانت تقضى ضعف الوقت اللازم لاجتياز المسافات بسبب ضعفها وندرة الكلأ على جانبى الطريق ، وأما الخيل المُجَنَّبة فكانت على وشك الوضع ، فلم يكن بد من السير على مهل .

تقابلنا مع الأمير عمر وأبناء عمه ، وتباحثنا فى الموقف مع اليمن ، وكانت ذهنية المحاربين غريبة فى بابها ، وهى تدل على شىء كنا جميعاً نلمسه فى علاقاتنا مع جارتنا الشقيقة حكومة اليمن ، ذلك الشىء هو السياسة المقنعة غير الواضحة وسياسة المطل من جانب اليمن ، وقد قاسى الإخوان بسبب ذلك مشقات كثيرة . فإنهم سيقوا إلى الحدود عدة مرات ، ولكنهم كانوا يرجعون فى كل مرة بدون قتال ، وما يكادون يصلون إلى أوطانهم حتى يناديهم منادى الغزو وداعى الحرب أن عودوا إلى الحدود اليمانية . فسئموا هذه الحال ، ورأوا أن لا بد من حل المشكلة حلا نهائياً ، إما بالصلح الشريف المرضى وإما بالحرب ، وليس ذلك عن رغبة فى الحرب من حيث هى ، بل عن نفرة من ترك الأمور على غواربها ، فتضطر الحكومتان فى كل وقت وحين إلى إنفاذ السرايا والبعوث . ومن أجل ذلك قال لى ابن ربيعان : « إن لم يكن الصلح الذى تعقدونه صلحاً أساسياً دائماً فإننى أدعو لكم بالفشل فى مهمتكم » .

تركنا ابن ربيعان وجماعته ، ومشينا من الجانب الغربي للوادي على أمل اجتيازه إلى الجانب الشرقي ، فغرزت سيارة الانتقال في رماله ، ولم يتمكن الرفاق بمعونة أهل القرية من إخراجها إلا بعد جهد دام ست ساعات تقريباً . أما أنا فقد اغتنمت هذه الفرصة لأدوّن معلوماتي عن الخرما ووادي سبيع ، ولأستمع إلى بعض شيوخ الخرما وهو يروي لي وقائع الإخوان والأشراف مما ذكرته في الفصل السابق .

كان البرد عند الصباح شديداً جداً ، فقد سجل مقياس الحرارة ٤٦ درجة فهرنهيت ، وكانت قراءة البارومتر ما يقرب من ٣٥٠٠ قدم ، والريح كانت تعصف بشدة وتلفح الوجوه بصقيعها ، فوجد الرفاق في إخراج السيارة الغارقة في الرمل سبيلا للدفء والنشاط ، غير أن حماسهم لرفيقهم الجديد « الدليل » كان ضعيفاً . والحق يقال إنه كان خبيراً بديرته كل الخبرة ، ولكن حينما اجتزناها إلى حدود رَنْية ظهرت عليه علائم العِيّ والرغبة في إعطاء المعلومات صحيحة كانت أم خاطئة ، ولم تكن له خفة دليل اليوم السابق ولا ذلاقته .

كانت خطتي عدم السير ليلا إلا مضطراً ، كي أتمكن من مشاهدة معالم الطريق في ضوء النهار . ولذلك فإن تأخرنا في المسير من الخرما حتى الظهر حتم علينا المبيت قبل أن نبلغ رنية ، مع أن المسافة بينهما لا تزيد على ١٤٠ كيلومتراً ، وسأصف فيما يلي طريقنا التي سلكناها وما على أطرافها من المعالم البارزة .

٢ – صفة الطريق

المسافر من الخرما إلى رنية لا يطأ أرض حرة سبيع المشهورة ، ولا يطأ عرق سبيع الرملي وهو مشهور أيضاً . أما طريق القوافل والمشاة فإنها تخترق الحرة من جنوبها إلى شمالها .

كانت استقامة سيرنا من الخرما إلى رنية استقامة الجنوب مع ميل خفيف بادئ الأمر إلى ناحية الشرق ، وحينما يفارق المسافر نخيل الخرما يباري سلسلة من الهضاب القليلة الارتفاع والممتدة على ضفة الوادي الشرقية برهة غير قصيرة إلى

أن يصل مقطع شعيب « أم ران » وهو من الشعبان الصغيرة التى تفيض فى وادى سبيع . وتتغير طبيعة الأرض من سهلة ناعمة إلى سهلة حصباء إلى رملية إلى قاع رخو قد نثرت عليها حجارة من بقايا الحرة السوداء النخرة ، فجعلتها شبيهة بأرض الحرة إلا أنها ليست منها . وتقع حرة سبيع على يمين المسافر من الخرما إلى رنية .

و بعد نحو عشرة كيلومترات تبدأ أرض تسمى « الشقيق » إلى مسافة خمسة كيلومترات ، ثم تأتى أرض تختلف عنها اسمها أرض « القشاشة » ، وتختلف عن سابقتها بأنها رخوة ناعمة قد كسى سطحها بالبطحاء والحصباء . ثم تأتى أرض « الجعدة » وطولها تسعة كيلومترات ، تشبه الحرة فى شكلها وحجارتها وسواد لونها .

وتأتى بعد ذلك أرض « أم الملح » ومنها يشاهد إلى جهة الغرب بقرب الأفق ضلعان هما : « الأَسَيَّان » ثم تتتابع الأراضى بأسمائها المختلفة على الوجه الآتى :

كيلومتر	اسم الأرض
٣	دحلة المصاعبة
٥	أرض شعيب البَذْرِى ، و بقربها ضلعا العسكر
٧٫٥	وإلى الشرق ضلع عنيزة ، ثم جبل « تين »
٨	أرض المعاشير ، و بقربها ضلع الجيمة إلى الشرق
١٧	أرض « شعيب الناصفة » و بقر به ضلعان أبو السنون وضبع واليعايم
١٫٥	أرض الشجرة
٥	أرض سَرْجُوج ، ويشاهد منها إلى الجنوب الشرقى من ضلع ضبع جبل مرتفع كالسنان اسمه غرمول
٥	أرض « ذليقان » ، وتقع جبال اليعايم إلى شرقيها
٧	أرض شعيب « مراخة » ، ومنها يشاهد « كراع حنجرات » إلى الغرب

ومما يجب الالتفات إليه أن الأرض فى هذه الجهات تسمى بأسماء الضلعان والهضاب التى تجاورها . فلكل جبل أو هضبة اسم معلوم ، وشعيب يصفى مياه الأمطار المتساقطة ، وأرض محاذية تمتد بقدر امتداد الهضبة أو الجبل أو سلسلة الجبال .

بعد أرض « المراخة » تبدأ أرض تعرف بأرض « شعيب الجزعة » بقرب رجمة من الصخور قائمة وسط السهل ، وهذه الأرض تشبه الحرة فى تكوينها . ثم تأتى إلى أرض « الأغر » ، وبعد مسير ١٥ كيلومتراً فيها تدخل الطريق بين منطقة جبلية وتصبح الهضاب على الجانبين ، ولكن الفرجة تستمر فى التناقص إلى أن تصبح صغيرة جداً حينما تصاقب الطريق جبل بَضِيع . ومتى وصل المسافر بضيعاً علم أنه أصبح بقرب رنية . ومن هنا تشاهد جبال مختلفة تعرف باسم « الرُّزَيْزَاء والَخرَاشِف والتَّنْدُوَة وورِكْ منيرة » .

٣ — رَنْيَة

لكل قرية أو بلاد علامة تدل على الاقتراب منها . فالمسافر من مكة إلى الرياض يعلم أنه قد اقترب من المويه حينما يصل الحلمة ، ومن الدفينة حينما يشاهد النهود ، ومن القاعيَّة إذا شاهد ذريّع وهكذا . وأما القادم إلى رنية فإنه يرى أمامه من بعيد منظراً عجيباً جداً هو أقرب ما يكون إلى منظر بلدة عظيمة ذات قلاع وأبراج ومآذن ومساجد ، ولكنها فى الواقع مناظر الجبال والتلال التى تظهر فى الأفق بأشكال بهيجة تنعكس عليها أشعة الشمس فتكسبها منظراً خلاباً يأخذ بمجامع القلوب ، وقد يكون للسراب وخداع البصر دخل عظيم فى روعة المنظر وإكسابه ذلك الشكل المغرى الخلاب .

ويطلق أهل هذه البلاد على أماكن فيها أسماء غريبة مستهجنة يخجل الكاتب من تسميتها بالصراحة التى يستعملها أهلها . ويكثر فى هذه الجهات استعمال جملة (طيب الاسم) ، يكنون بها عضو التأنيث . وهنالك قرية فى وادى شهران بجوار سوق خميس مشيط اسمها (طيب الاسم) ويسميها أهلها (كسيسان) . أما فى رنية

فهنالك كما ذكرنا (غرمول) ، وهنالك (ذكر الخثعمى) و (ورك منيرة) ، وهنالك (الرزيزاء) و (طيب الاسم) . يذكرون الأسماء بالألفاظ المستهجنة ذكوراً وإناثاً بدون أى تـكلف أو خجل .

لتسمية « . . . الخثعمى وورك منيرة » قصة يتناقلونها فى رنية بدون استحياء : كانت امرأة من رنية ترعى غنمها بقرب الجبل الواقع إلى جنوبى الديرة ، وكانت هزيلة قليلة الشحم واللحم ، فتمنت على الله أن يمنحها الصحة والعافية بحيث يصبح كفلها كالجبل القريب منها ، فأطلق على الجبل اسم « ورك منيرة » صاحبة القصة . وكان بقربها رجل من خثعم تمنى لو منح ذكراً كالجبل المستقيم كالسنان ، والواقع بقرب الورك ، فأطلق على هذا الجبل المحدد الشامخ اسم « . . . الخثعمى » دون حياء .

تقع رنية أو بالأحرى البلدة الـكبيرة فى رنية على أطراف الوادى المعروف باسمها والذى ينحدر من جهة الغرب والجنوب متجهاً إلى الشمال الشرقى . وتحيط الجبال بالبلدة — من بعيد — من جميع جهاتها ، حتى إن القادم من الشمال يضطر إلى ولوج فجوات عديدة بين الجبال إلى أن يصل الديرة .

والجالس أمام قصر الأمير ابن صامل — شريف من العبادل — يرى جبل « التَّغْذُوَة » أمامه من جهة الشمال ، وجبلى الورك والخثعمى من الجنوب والجنوب الشرقى ، وسلسلة المسلوخ إلى الشمال الغربى ، والمَرَاشِف والسَّوَادة والفهدان من الغرب .

وقصر ابن صامل بنى على ربوة مشرفة على الوادى والسهل المحيط به فى منطقة متوسطة بين أسفل الوادى وعلوه . وتسمى البلدة التى فيها القصر (الحَزْم) وبقربها بلدة (الرُّوقة) التى هى السوق .

بتنا ليلتنا عند جبل الرّزيزاء ، وكانت الليلة باردة ، فلجأ الرفاق إلى كهف طبيعى نصبوا الخيام عند مدخله .

٤ — وادى رَنْيَـة

كان يجب أن يطلق اسم (وادى سبيع) على (وادى رنية) لأنه ملك لسبيع من منبعه فى بلاد غامد إلى مصبه فى رِغْوة ، على حين أن الوادى المعروف باسم وادى سبيع هو القسم الأخير من امتداد وادى تربة بعد دخوله فى حدود بلاد سبيع كما مر فى فصل سابق .

يتألف وادى رنية من مجموعة من الشعبان تنشأ فى بلاد غامد فى السراة الحجازية وهو أحد الأودية الستة التى ذكرناها فى الفصل الأول . ويتجه من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، وكان يظن أنه ينتهى فى وادى الدواسر ، والواقع أنه ينتهى فى عرق الدواسر ولا يتصل بالوادى نفسه .

وتقوم على أطراف الوادى المزارع وحدائق النخيل والقصور والقرى إلى مسافات بعيـدة ، ولـكن أكثر العمران فيه يبدأ من حين دخوله فى بلاد سبيع ، والقرى الواقعة على الوادى متقاربة متصـلة ، يرى الإنسان إحداها من الأخرى ، إلا أن أعظمها وأهمها ما كان واقعا عنـد منتصفه حيث يأخذ الشعيب أقصى اتساعه وحيث تكون الأراضى الواقعة على أطرافه أخصب وأصلح للزراعة والفلاحة .

علوّ الوادى عنـد ماء (ثَرَاد) فى ديرة غامد . ومن منبعه إلى حين دخوله فى أراضى سبيع هو خال من القرى ، ولـكنه لايخلو من مياه أهمها (ثراد) ثم (العقيق) وهو ماء ونخيل لغامد ثم المشْوَرَة ، وهو ماء لغامد تجاوره مزارع ، وهذه هى أسماء المياه والقرى الواقعة على الوادى بعد دخوله فى أرض قبيلة سبيع :

الصغيرية ، المَصْيَدة ، عين أبى مليح ، الملاح . كلها مياه لسبيع ، وقد يكون بقربها مزارع وعَثَارى .

الخيفيشة : ماء ، وبقربه نخيل ينزله الشواوى من شمران وسبيع .

المِغْـرَاة : ماء ، وفيه نخيل وقصور .

الفَجَانة : مزارع ومياه ، ولا نخيل فيها .

الأملح : وهو أول العمران فى وادى رنية من جهة الجنوب الغربى ، وهو ملتقى
طرق القوافل بين الخرما ورنية و بيشة .

الحَجَف : قرية ونخيل .

الْجُزْئمِيّة : » »

الضرْم : تتألف من خمس قرى متلاصقة ومزارع شتوية هى : اللِّوَى ، قَرَة ، الظهيرة ، حُوَيّد ، مقابل .

كويكد : قرية ونخيل .

ملهى : » »

الحزم : وهى بلدة الحكم ، وفيها قصر ابن صامل

الروضة : وهى السوق الأسبوعية .

الدعيكة : قرية ونخيل .

المساورة

العطف

المدهال

العماير : وهى قرية ونخيل للشميسات من سبيع ، وهى آخر العمران من جهة الشمال الشرقى .

و بعد هذه القرى توجد مياه يردها الرعاة وهى : الرّجع ، المنعشة ، رِغْوة ، جرَيِّد فى بلاد الدواسر ، وماء الوغدية وظاعن حيث يختفى فى عرق وادى الدواسر عند هجلة المختمية .

و يفيض فى وادى رنية من اليمين شعيب البَحْرة ، ومن الجهة اليسرى شعيب غَثْران عند الأملح وشعيب قرة عند بلاد الضُّرْم .

معيشة أهل رنية بسيطة هادئة . هم زراع بالطبع ، وأهم زراعتهم النخيل والحبوب ، وهم بعدُ أهل ماشية وجِمال ، وعندهم ذوق فى صناعة النسيج الصوفى الخاص بالأخرجة والهميانات . وهم وأبناء عمومتهم فى الخرما متفقون ضد أعدائهم الكثيرين فى كل

أطرافهم ، ولكنهم فى رنية أبعد من غيرهم عن الفتن والحروب . وقد رأينا فى المنازعات التى قامت بين الأشراف والإخوان أن سبيع من أهل الخرما وجيرانهم من البُقوم قد حملوا القسط الأكبر منها ، أما أهل رنية فكانوا يفزعون وقت الحاجة فقط .

ويقع معظم العمران على الجانب الشمالى الغربى للوادى ، والاجتياز من جانب إلى آخر يستلزم قطع المفازة الرملية فى بطن الوادى أو بالقرب منه ، وكثيراً ما تغرز السيارات — وبالأخص الثقيلة منها — فى رماله ولا يمكن إخراجها إلّا بعد عناء شديد ، وهذا هو السبب فى أن أكثر السيارات تفضل السير مع الضفّة الشمالية الغربية إلى مسافة بضعة كيلومترات غربا حتى تدور من جوار قرى الضُّرْم الأربع فى علوّ الوادى ، ومع ذلك لا تسلم من التغريز .

حينما رجعنا من أبها ، كانت الأمطار عامّة والرمال متماسكة ، فسلكنا بطن الشعيب أمام قرية الحزم ، واخترقنا المسافة اختصاراً ، فوجدنا الفرق بين الطريقين عظيما يتجاوز بضعة عشر كيلومتراً .

مما يؤسف له أن حالة هذه البلاد الاجتماعية كحالة سائر البلدان المنعزلة عن العمران ، لا تفكر فى غير معيشتها المادية اليومية ، وليست لها آمال أو أمانى بعيدة . يستغلون الأرض بعد حرثها ، ويزرعون النخيل ، وينتظرون لقاء الله فى الآخرة . ومن هنا نشأ عدم اهتمامهم بالتغيير والتجديد .

ونساء هذه البلاد فى معايشهن مثل نساء بلاد الطائف ، وإن كنّ إلى البداوة أقرب ، ويشعر المسافر بالفرق بين أحوال النساء فى هذه الجهة وبينها فى عسير بمجرد وصوله إلى بلاد « خيبر » فى منتصف بلاد شهران ، وسنصف النساء وأزياءهن فى موضعه إن شاء الله .

والمسافة من الخرما إلى قصر ابن صامل فى قرية الحزم ١٤٧ كيلومتراً ، وحينما بتنا فى الرّزيزاء كانت درجة الحرارة ٦٠ بمقياس فهرنهيت ، وهبطت فى الصباح المبكر إلى ٤٨ درجة .

الفصل السادس

وادى بيشة

على طريق بيشة — وادى بيشة وأقسامه — روافد بيشة — قبائل بيشة — فى بيشة

١ — على طريق بيشة

سرنا من رنية ضحى يوم الجمعة الواقع فى ١٧ شوال ١٣٥٢ (٢ فبراير سنة ١٩٣٤) بعد أن أخذنا كفاية سياراتنا من البنزين ، فى طريق طويلة إلى جهة مرتفع الوادى حتى وصلنا قرى الضُّرْم ، وهنا كان علينا اجتياز مجرى الشعيب الرملى ، وتخترق الطريق أعلى الضُّرم ثم تنساب جنوباً على محاذاة سلسلة من الجبال تمتد غرباً من الشمال إلى الجنوب ، وفيها قنن وهضاب مرتفعة تسمّى على الترتيب : صَوْلة — العُوَيْن — الحُرشَاء والحِصَان — والجَمَّاء . وإلى يسار المسافر سهل منبسط ممتد إلى جهة قرية الرُوقة وما وراءها من جبال المسلوخ . وهضبة الجمّاء تقع بين « ... الخثمى » وورك منيرة ، ويبعد الخثعمى عن الضُّرم مسافة ٣٠ كيلومتراً إلى الجنوب .

وللأرض التى تخترقها الطريق كما للتلال والهضاب أسماء لا أريد أن أتعب القارئ بذكرها ، بل أكتفى بذكر المهم البارز منها أو ما كانت له صفة خاصة كجبل (طيب الاسم) الذى يتألف من هضبتين تسمى إحداهما « حفير » والأخرى « شفير » . وبعد اجتياز هـذا الجبل بمسافة بضعة كيلومترات يشاهد المرء أمامه وعلى يساره (شرقه) عرقا من الرمال البيضاء هو عرق (حنجران) الذى يبدأ فى مكان اسمه « الحفرة » وهو ملتقى العرق الرملى والضلع الأسود .

ويرافق العرق الطريق مسافة أربعة كيلومترات ، ثم ينقطع بقرب « الحيمة » وهو هضبة سوداء تفصل الرمل عن السهل وتمنعه من الطغيان على الطريق ، وهذه الهضبة فريدة فى سوادها الفاحم الذى لا يشبهها فيه شيء مما يجاورها .

وحينما يصل المسافر إلى بئر الجاهلية يكون قد قطع من رنية مسافة ٥٦ كيلو متراً .

كان رفيقنا هذا اليوم رجلا من أهل الضُّرم خبيراً بالأرض عارفاً بأسماء الجبال والأودية ، فلم يترك شاردة ولا واردة . وقد ذكر لنا طرفاً من قصص أهل هذه البلاد منها ما هو من قصص الزير وأبى زيد الهلالى والسلطان حسن ، ومنها ما هو مقتبس ومنسوب إلى رجال معاصرين .

وحينما سرنا من بئر الجاهلية اجتزنا بضعة كيلو مترات من الأرض السهلة المحاطة بالجبال من بعيد ، وهى أرض يكثر فيها الظبى ، فصادفنا ثلاثة طاردناها برهة حتى اصطدنا أحدها . وقص علينا دليلنا طريقة صيد البدو للظباء قال : « إن البدوى الماهر يأتى الظبى من الجهة المضادة لمهب الريح حتى لايشعر الحيوان بريحه فيستنكرها ويفرّ منه ، فإذا تلفّت الظبى إلى ورائه ليشاهد هل هناك من يطارده وقف البدوى فى مكانه كأنه جماد مستقر ، فيطمئن الظبى ويشرع فى الرعى ، فيتقدّم الصياد البدوى إذ ذاك مسافة أخرى ، فإن انتبه له الظبى توقف كأنه جماد لا يتحرك ،وهكذا دواليك حتى يصبح على مسافة رمية منه فيرميه ببندقيته » . والبدوى مقتصد محتاط لا يسرف فى إطلاق الرصاص على طريدته .

مشينا من أرض السليل إلى أرض العريض وطولها سبعة كيلو مترات ، ثم دخلنا أرض « حيم » وطولها كيلو متران ، ثم أرض الشميط ، ثم أرض الحاوى حيث ضلع « منيظير » الذى قيّلنا بجواره للغداء .

سرنا بعد الغداء كيلو مترات قليلة فوصلنا أرض « دحلة المعاز » ، ويقع إلى يمينها ضلع صغير وإلى يسارها خشوم بنى رِنْفَان ، والمسافة بين الضلعان اليمنى واليسرى حوالى كيلو متر ونصف .

تدخل الطريق بعد ذلك فى أرض النعام ثم أرض الحبل ، وهنا تضيق الفرجة بين الجبال ، فتصبح الطريق هى مسيل الوادى المسمى بالسوادة إلى مسافة سبعة كيلومترات ، ثم تصل إلى هضاب بنى رنفان ، وترى وراءها سلسلة جبال عظيمة

تسمى « الجفر » ، ثم تصل الطريق إلى أرض صعبة تشبه أرض الحرّة وتمتد مسافة ستة كيلومترات .

ذكرت أن دليلنا كان ظريفاً خبيراً ، فكنّا نلتقط منه أقوالا تدل على خفة الروح وتصوير الوقائع بالأمثال ، حينما اقتربنا من بيشة قال الدليل إنها بيشتان : بيشة القمح وهى علوّ الوادى فى بلاد قحطان وشهران ، وبيشة النخل المعروفة فى كتب العرب باسم بيشة عَبْطان . ويتمثّل البدو بغنى بيشة بقولهم : « لو أن مع بيشة بيشة لسابت العيشة » يقصدون بذلك كثرة خيرات وادى بيشة وخصبه وغناه .

وأخبرنا الدليل أن ديرة سبيع تنتهى عند ضلعان بنى رنفان فى أرض الذهاب ، وتبدأ من هنا ديرة أَكْلَب من قبائل بيشة .

تمرّ الطريق فى أراضى النَّفْخَة وبطن ذى خَشِى وأرض الشَّدِيدَة التى يشاهد منها جبل « جُمْمُور » وهو الدليل الذى يهتدى به فى الوصول إلى بيشة ، وجبل جمور هذا كثير الشبه بجبل النور فى أعلى مكة من حيث شكله وارتفاعه وبروزه عن الجبال المجاورة له .

وكلما قربنا من جمور تغيّرت طبيعة الأرض المسمّاة بأرض الحونة ، ثم يزيد هذا الاختلاف حين تنبسط أمامنا السهول المحتوية على شجر الحمض والغضى وشجر آخر أكبر من الغضى ما كنت شاهدته اسمه « تَنْضُب » . وهذه الأرض على كثرة شجرها وعرة كثيرة الحفر والأقواز الرملية والتماريج ، ومنها يشاهد النخيل فى وادى بيشة فى متسع رملىّ عظيم .

حينما يقترب المسافر من الوادى يكون قريباً من نخيل الجبرة فى أسفل وادى بيشة ، وتكون المسافة التى قطعها من رنية ١٦٨ كيلومتراً .

وبعد قرية الجبرة بمسافة نصف كيلومتر تقريباً تبدأ السيارة باجتياز الوادى الذى يبلغ عرضه فى هذا المكان أكثر من نصف كيلومتر ، ويمتد منتهى الرمل الواقع على ضفّتيه مسافة أخرى بحيث يمكن اعتبار مجرى الوادى قرابة كيلومترين ، إلا أن

هذا لا يغطّيه الماء إلا نادراً حينما يكون السيل عظيما جداً ، والغالب أن الوادى ينقسم هنا إلى مجريين شمالى وجنوبى . وهذا هو السبب فى كون المجرى عريضاً هذا العرض .

وصلنا قصر الحكومة فى قرية الروشن مركز بيشة بعد مسيرة ١٧٦ كيلومتراً من رنية .

٢ — وادى بيشة

ربما كان وادى بيشة أكبر الأودية الستة وأطولها ، فإنه ينبع من سفوح سراة عَبِيدة من قحطان إلى الشرق الجنوبى من جبال عسير ، وتجتمع فيه أكثر مياه جبال عسير وشهران وقحطان . قلنا أكثر لأن هنالك واديا آخر يصفى قسما من مياه تلك البلاد وهو وادى تثليث .

يبدأ وادى بيشة كما ذكرنا من سراة عَبِيدة ورُفَيْدَة ، وكانت تقوم عند مبدئه قرية عظيمة لم يبق منها إلاّ أطلال وخرائب ، هى بلدة جُرَش الوارد ذكرها فى كثير من كتب العرب ، ثمّ يقطع هذا الوادى حدود بلاد قحطان حيث يكون اسمه « بيشة ابن سالم » أحد زعماء قحطان ، ويدخل فى ديرة قبيلة شهران ، ويمرّ من مكان تقوم على أطرافه قرى شهران ومنها خميس مشيط ، و بعد أن يجتازها بقليل تصبّ فيه أودية فرعية غير أنّها غاية فى الكبر والأهمية ، منها وادى « تندْحة » ووادى « أبها » المسمى « خَبِيبِى » ، ويسمى عندئذ (أى بعد انصباب وادى أبها فيه) وادى « ابن هشبل » أو وادى « شهران » . أما بعد أن يجتاز وادى بيشة بلاد شهران التابعة لابن مشيط وشهران التابعة لابن هشبل عند المكان المسمى « واعر » والمعتبر فى الواقع أول وادى بيشة ، فيسمّى الوادى « بيشة النخل » أو « بيشة عَبطان » المعروفة فى كتب العرب[١] .

(١) ذكر الأمير سعيد بن مشيط أن وادى بيشة يقسم ثلاثة أقسام : بيشة ابن سالم ، وبيشة ابن مشيط ، وبيشة النخل .

فالقسم المرتفع من الوادى إلى جهة منبعه لايمكن زراعة النخيل فيه ، بل إن سكان تلك الأطراف يعتمدون فى حياتهم على زراعة الحبوب ، ولذلك سمى « بيشة القمح » كما أسلفنا . واعتباراً من واعر يكون الإقليم معتدلا وصالحاً لزراعة النخيل فيسمى الوادى عندئذ « بيشة النخل » . وسنذكر تفاصيل الأودية والشعبان التى تصب فى أعلى الوادى حين تفصيلنا لبلاد شهران و بلاد عسير وقحطان ، وسنكتفى هنا بذكر بيشة النخل .

تقوم على أطراف الوادى اعتباراً من واعر إحدى وعشرون قرية يتراوح عدد سكانها بين أربعين وخمسين ألف نسمة . وهذه أسماء القرى متبعين فى ذكرها مجرى الوادى من أعلاه إلى مصبه :

١ — واعر
٢ — الحَيْـفة
٣ — المَدْرة
٤ — الباقرة
٥ — نمران ، وهى محل سوق الخميس
٦ — الروشن ، وهى مركز الحكومة ومقر الأمير ومحل سوق الأربعاء
٧ — روشن المهدى
٨ — النفيضلة
٩ — أبا الشوك
١٠ — الصبيحى
١١ — الحمَّة
١٢ — الحريرة
١٣ — الدَّحو
١٤ — الدَّيلمى
١٥ — السَّقيفة
١٦ — الدَّوَّار
١٧ — الرقيطة
١٨ — النّقيع
١٩ — الخرسمة
٢٠ — الشقيقة
٢١ — الجنينة ، وهى منتهى العمران والنخيل .

ويمتد الوادى فى مسيره إلى أن يلتقى بوادى رنية فى « رِغْوة » ، ويغوران معاً فى « المَهْمَل » عند « ظَاعن » .

ويبلغ امتداد الوادى اعتباراً من « واعر » إلى « الجنينة » مسافة يومين ونصف على المطيّة أى مايزيد على مائة كيلومتر ، وتبلغ المسافة من قرية « الروشن » فى بيشة إلى « خميس مشيط » ٢٥٠ كيلومتراً ، ومن الخميس إلى بلاد ابن سالم فى علوّ الوادى حوالى خمسين كيلومتراً .أما المسافة من « الروشن » إلى « الجنينة » فإنها تزيد على الخمسين كيلومترا .

فيكون طول الوادى من منبعه إلى مصبه ٣٥٠ كيلومترا فى العمران ، وربما امتد أكثر من مائة كيلومترأخرى فى الرمال ، فيكون مجموع طوله فى هذه الحالة أكثر من ٤٥٠ كيلومترا ، وهو طول عظيم جداً كما يرى ، والبداة يقولون : إنه يمتد من الشعف إلى السعف[١] .

٣ — روافد بيشة

لن أذكر هنا من روافد بيشة إلّا ما كان مصبه بعد « واعر » . وهذه الأودية التى ترفد الوادى ذات أهمية غير قليلة ، ففيها قرى عامرة بالسكان ، وكانت لبعضها شهرة عظيمة فى التاريخ . ومع أنى كنت متلهفاً إلى زيارتها فإن الظروف لم تكن لتسمح بذلك مع الأسف .

أولا : وادى ترَج : ويصب فى بيشة عند نخيل الحِيفَة وفى الوادى نخيل ومزارع كثيرة ، وأهله شديدو البأس ، تمثّل بهم الشاعر ابن مقبل حينما قال[٢] :

جلوساً بها الشم العجاف كأنهم   أسود بترج أو أسود بِعتْودا

وقال الخزازة العامرى[٣] فى خصب ترج وغنى تربته :

وكأن النخيل من بطن ترج   وهى حوم حنـــادس ظلماء

وقال أحمد بن عيسى الرداعى فى أرجوزة الحج[٤] :

---

(١) الشعف أعالى الجبال ، والسعف يكنون به عن النخيل .
(٢) صفة جزيرة العرب للهمدانى ص ٥٤ .
(٣) « « « « ص ٢١٥ .
(٤) « « « « ص ٢٧٥ .

ما زال ذاك حالها وحالها تغشى ظلام الليـــل والأهوال
حتى أتت ترجا على أحمـــال وبيشـــة النخل بلا اغفـال

أمّا قرى وادي ترْج اعتباراً من منبعه في سراة الحجاز إلى مصبه في وادي بيشة عند نخيل الحيفة فهي : —

(١) القويسا (٢) جماح (٣) البهيم (٤) حوران (٥) النقرات (٦) العريجة (٧) الحازمي (٨) البدور . والأخيرتان قرب الحيفة .

ثانياً : وادي تَبالة : ويصب في وادي بيشة عند قرية الصبيحي التي ذكرناها بين قرى الوادي . والواقع أن الوادي المشار إليه يتغير اسمه قبل مصبه في وادي بيشة ، فهو وادي تبالة في أعلاه ووادي الثَّنِيَّة عند مصبّه .

ووادي تبالة هذا ملك لقبيلة الفَزَع من « خثعم » ويقال إنهم من « شمران» .

وقد ورد ذكر الوادي كثيراً في كتب العرب وأراجيزهم . وقد قال فيه طرفة[1] :

رأى منظراً منها بوادي تبالة فـكان عليه الزاد كالمقر أو أمر

وذكره عبد الله بن عبد الرحمن الأزدي في كلمته التي يذكر فيها افتراق الأزد[2] :

فكلـــكم خيـار النـاس قدما وأجلدهم رجالا بعـــد عاد
وأكثرهم شـــبابا في كهول كأســـد تبالة الشهب الوراد

وورد ذكر تبالة مع ترج وبيشة وهرجاب وقرى حوران وسواها في قصيدة الحزازة العامري ، كما وردت في أرجوزة الحج[3] لأحمد بن عيسى الرداعي .

ولاحظنا أن بعض الشعراء ذكر أسد ترج وأسد عِتْود وأسد تبالة . وقد يتبادر إلى الذهن أنه كانت هناك أسد فيما مضى من الأزمان ، والواقع أنه لا أسد فيها .

ذكر الهمداني[4] تحت عنوان : مواضع الأسد في هذه الجزيرة المضروب بها المثل ، قال :

---

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ١٧٣ .
(٢) » » » » ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .
(٣) » » » » ص ٢١٤ و ٢١٥ و ٢٥٨ .
(٤) » » » » ص ١٢٧ .

أسد تبالة وأسد تَرْج و بيشة وأسد عِتْود . فأما تبالة وترج و بيشة فهى من أعراض نجد ، ولا يكون بها أسد ولم يكن ، و إنما تريد العرب أسود بَيْش ويزيدون فيه الهاء[1] فيقولون بيشة بفتح الباء ، وهى مواضع الأسد « و بيشة بطَان » فهى بكسر الباء ، وقيل بل أرادوا بيشة نجد ، وأن رءوس هذه الأعراض من أعلى السراة منها ما ينحدر إلى نجد ومنها ما ينحدر إلى تهامة ، فما انحدر إلى تهامة فالأسد فيه ولهذا الجوار نسبوها إلى هذه الأعراض ، وربما قد طلع منها الواحد إلى أرض نجد قاطعاً من بلدة فعاث فيها ، فلعلّ أوّل من نسب الأسد إلى هذه المواضع عاين الواحد والزوج فى بعض هذه الأودية » .

و ينسب إلى تبالة بيت « ذو الخلصة » وهو من الأصنام التى كانت العرب تعظّمها فى جاهليّتها[2] .

وهى واقعة على طريق الحج من صنعاء إلى مكة ، وفيها آبار عذبة ذكرها شعراء العرب وكتّابهم ، ولكنّها فى زماننا الحاضر بلاد فقيرة ، وفيها من القرى ١١ قرية منها : أربع لفرقة المُصْعَبين من خثعم قبل أن يتغير اسم الوادى فيصبح « وادى الثّنية » وهى : (١) السّو (٢) الهضبة (٣) واسط (٤) القوز . وسبع فى وادى الثّنية وهى : (١) الجبارين (٢) الفِدَنة (٣) الخرب (٤) خريب السوق (٥) مِصر (٦) القوزية (٧) الشديق .

وأما سكان الوادى فهم كما ذكرنا من خثعم ، و يقسمون أربعة أقسام :

(١) المُصْعَبين	(٣) البَطْنَين
(٢) بنو خِناس	(٤) بنو واس

ثالثاً : وادى هِرجاب من الأودية العظيمة فى بلاد شهران ، و ينبع من أعالى السراة فيصفّى مياه الأمطار فى قسم كبير من بلاد شهران . و يقطعه طريق بيشة إلى

(١) وادى بيش فى تهامة عسير .

(٢) انظر بحث ذو الخلصة فى كتاب تاريخ مكة للأزرقى طبعة مكة بتعليق الأستاذ رشدى ملحس

خميس مشيط فى موضعين : الأول على بعد ٢٧ كيلومتراً من بيشة ، والثانى بعد ارتقاء الجبال قرب خيبر على بعد ١٣٣ كيلومتراً من بيشة . ويصب هرجاب فى وادى بيشة بقرب الحيفة ، وليس على أطراف هذا الوادى سوى قريتين فى السهل القريب من منبعه ، وهما قريتا الخضرا والعماير .

رابعاً : وادى بِطْنة . وهو يصب فى وادى بيشة فوق واعر بقليل ، ومنبعه من بلاد غامد .

٤ — قبائل بيشة

فى بيشة عدد من القبائل المتحالفة نذكرها فيما يلى :

أولا : قبيلة أَكْلَب . ويبلغ عدد محاربيها نحو ألف رجل وتقسم إلى بطنين :

الأول : عامر . وفيه من الأقسام خمسة : المزايدة ، الُجنَبة ، الُجبَرة ، آل منيع ، ابن عطبان .

والثانى: المخلَف . وفيه من الأقسام أربعة : بنو هزر ، آل سحرة ، بنو سعد ، الجياهين .

ثانيا : قبيلة شهران . هؤلاء هم قسم من شهران الذين تمتد بلادهم على أطراف وادى بيشة من منبعه إلى مصبّه ، وهم كثيرو العدد والعدة ، وأقسامهم ستة : بنو واهب ، بنو مُنَبِّه ، المحلف ، الرَّمثين ، الحنارشَة ، آل السَّنَد .

وبمناسبة ذكر شهران لا نرى بأساً من ذكر أقسامها الرئيسية التسعة التابعة لعسير (أى بلاد ابن هشبل وابن مشيط) وهى :

(١) آل رُشَيْد . وكبيراهم : ابن مشيط وأبو ملحة

(٢) آل عمر .

(٣) نَاهِس . وفيهم خمس بدائد : بنو على ، المزارقة ، بنو صفير ، آل الذئب ، حوز .

(٤) كَـوْد .

(٥) بنو بِجاد .

(٦) بنو واهب .

(٧) آل سرحان .

(٨) بنو رشحة .

(٩) آل ينفع .

ويتبع شهران فى الشعف : بنو مالك (أبنو مْلَيك) ، والقرعا ، وابن جابرة ، والمسفى . كما يتبعهم فى تهامة فرع الجهرة .

أمّا القرى التابعة لـكافّة شهران فسنذكرها فى موضع آخر .

ثالثاً : قبيلة بلحرث[1] قريبة من وادى تَرْج ، وتقسم قسمين :

الأوّل : الخشارمة ، ومنهم أربع بدائد : العُرَمة ، آل الصَّمَّة ، الشّحوف ، آل عيسى .

والثانى : آل خالد ، ومنهم سبع بدائد : الحُرَشة ، الُحرْمة ، القَمْلة ، البطلان ، آل الربيع ، الحراملة ، آل مرير .

رابعاً : قبيلة خثعم . هم أهل قرى ومزارع ، و يقسمون إلى فرق أهمّها : بنو ميمون ، ابن عيدان ، أهل دِمَة ، أهل باشوت ، آل مرّة ، السروان ، المزارقة ، السلمان .

ومن خثعم أقسام فى تهامة هى : المنتشر ، العوامر ، بنو سهم .

كنت دوّنت هذه المعلومات عن خثعم فى رحلتى إلى « أبها » ، وكانت هذه القبيلة تابعة آنئذ لإمارة بيشة ، ولـكنّها أتبعت منذ نحو سنتين إلى إمارة سراة الحجاز المسماة بغامد وزهران ، فـكتب أميرها تركى بن ماضى عن أقسامها مايأتى :

الحضر من «خثعم» هم :

---

(١) هم من الشلاوة . وتوجد قبيلة أخرى باسم بلحرث ذكرناها فى كتابنا « قلب جزيرة العرب » ص ٢٣٨ . وبعضهم يخلط بين القبيلتين .

(١) بنو ميمون
(٢) أهل الفوقة
(٣) أهل المطبة .

وأما البادية فهم :

(١) بنو داس
(٢) الفزع .

خامساً : قبيلة بالقرن . هم أهل قرى ما عدا الصهب من دحيم فإنهم على البداوة ، وأقسامها ستة : دحيم ، آل مشيب ، بنو رزق ، آل سليمان ، آل الحميد ، آل كثير .

سادساً : قبيلة شمران . منها فرق تقيم فى تهامة ، غير أن لها أقساما فى ديار بيشة هي : العبوس ، سحاب ، آل مبارك .

٥ — فى بيشة

أقمنا فى بيشة يوماً و بعض اليوم ، وتجولنا فى أطرافها ، وزرنا بعض أعيانها ، ودرسنا أحوالها ، وجمعنا ما يلزمنا من معلومات وأرصاد عنها . و بيشة — بموقعها الطبيعى وخصب تربتها وتنوع إقليمها وكونها متوسطة بين عسير والحجاز والدواسر ونجد — ذات أهمية من الناحيتين الاستراتيجية والمواصلات . وقد كانت دائما مركزاً هاماً للحشد العسكرى الذى يساق من نجد إلى جهات عسير واليمن . وقد لعبت دوراً عظيما فى بلاد شهران وعسير أوائل زحف حركة الإخوان من نجد . وكان الغزو الأول الذى توجه بقيادة الأمير « ابن مساعد » لفتح عسير مؤلفاً من أهل بيشة علاوة على أهل نجد .

و يبلغ سكان وادى بيشة نحو ستين ألفاً . والجهاد المفروض عليهم فى الدرجة الأولى يبلغ ١٥٠٠ مقاتل .

وأما درجة الحرارة يوم مرورنا منها فكانت ٧٤ درجة فهرنهيت عصرا و ٧٠

درجة فهرنهيت صباحاً ، وتشتد درجة الحرارة فى أيام الصيف اشتداداً عظيما ، ولولا ذلك لما كانت زراعة النخيل فيها موفقة ناجحة . وقد قلّت مياه الآبار بسبب عدم فيضان الوادى منذ سنوات . أما السنين التى تكثر فيها الأمطار ويجرى فيها الوادى تبعاً لذلك فإنها تكون سنين خير وبركة .

والصناعات فى بيشة بدائية ، وما هى إلا دبغ الجلود وصنع سرج الخيل والإبل ونسج النسيج الصوفى الجاف الخشن ، مما يستعمل فى صنع الأبسطة أو الأخرجة .

والبيوت فى بيشة تؤلف عادة من طبقتين ، وتحاط بأسوار فى منتصفها أبواب كبيرة تتسع لدخول الجمال بأحمالها . وقد شاهدنا بعض البيوت الكبيرة ذات الجدران المرتفعة تخترق سقوفها كوى لتصريف الدخان ، إذ أن النار توقد وسط البيوت للتدفئة وعمل القهوة والشاى .

أما طراز المعيشة فى بيشة فقد تحول تحولا محسوسا واختلف عما عهدناه فى الحجاز وفى بادية الطائف . ومع أن العادات قريبة من عادات أهل نجد غير أنها لا تتفق معها تماماً ، كما أنها لا تشبه عادات عسير وشهران التى سنوضحها فى الفصول الآتية .

شُرب الشاى والقهوة ثم تقديم المَجْمر يحترق فيه عود النّد أو خشبة الإذخر التى تكثر فى البرية قاعدة عامة شاملة ، ويزيد أهل بيشة على ذلك تقديم النواشف من التمر وغيره للضيوف الممتازين . وهذا التفرد فى العادات ناشئ على الأكثر من وقوع بيشة على طريق القوافل الرئيسية التاريخية فى جزيرة العرب ، فهى ملتقى هذه الطرق أو الحاج المتجهة من اليمن وحضرموت وعمان ووادى الدواسر وعسير والحجاز ونجد . وفى القديم عرفت بيشة بأنها المعبر الذى دخل منه الأحباش فى طريقهم إلى مكة عام الفيل . وتوجد بالقرب من بيشة كتابة باللغة الحميرية القديمة تشبه الكتابة المنقوشة على صخرة فى ربع الزلالة بقرب السيل بالحجاز بينها وبين السيل الصغير على طريق الطائف للجمال . وقد جرت العادة بتسمية درب الجيش الحبشى بدرب الفيل ، لأن الفيلة والجمال معاً تعجز عن سلوك طريق السراة فتتركها إلى الغرب وتسير فى الطريق الشرقى السهل الذى يمر من بيشة .

تزوّدنا من « بيشة » بالبنزين اللازم لسياراتنا ، وهى المحطة الأخيرة قبل خميس مشيط . وقدم لنا الأمير دليلاً من رجاله من شهران ، خبيراً بالطريق والأرض والجبال والقبائل ، لمرافقتنا إلى الخميس .

وقبل مسيرنا وقعت لرفيقنا المهندس « كنعان » قصة مسلية ، مازلنا نلمزه بها إلى يومنا هذا : اشتهى كنعان كلوة الذبيحة . وأهل بيشة لايبذلون كبير عناية فى طهو الخراف ، وكانت النتيجة أن تناول كنعان قطعة من الذبيحة لايجوز أكلها ظناً منه أنها الكلوة ، فكانت فرصة للرفاق يتسلون فيها بعشا كسة كنعان وتعييره .

الفصل السابع

بلاد شهران

فى طريق الخميس — بلاد خيبر — بين خيبر وتندحة — وادى تندحة — خميس مشيط
الأسواق الأسبوعية — قرى الوادى — السفور والزواج

١ — فى طريق خميس مشيط

غادرنا قصر الروشن ، دار الحكومة فى بيشة ، صباح يوم السبت الواقع فى ١٨ شوال ١٣٥٢ (٣ فبراير ١٩٣٤) ، وخلفنا سوق « نمران » عن يميننا ، واتجهنا نحو الجنوب تنهب بنا السيارات الأرض نهباً . وبعد مسيرة ثلاثة كيلومترات وصلنا إلى ضلع اسمه « قرن الحديد » سرنا معه كيلومترين آخرين ، وكنا نشاهد من ورائه جبال « الشهيلاء » . ثم دخلنا فى أرض اسمها « المتن » يطل عليها « أبرق المنقاد » وفى مؤخرته ضلع « العيرة البيضاء » فالحمراء . وأرض « المتن » هـذه سهلة رملية تجانبها الجبال من شرقها وغربها ، وعرضها حوالى ثلاثة كيلومترات ، وسرنا فيها من الشمال إلى الجنوب مسافة ١٤ كيلومتراً . وكنا كلما اتجهنا إلى الجنوب ضاقت بنا الفرجة بين الجبال وتشعّثت بما يكثر فيها من الشجر ، حتى نصل إلى ضليعات صغيرة تتسع بعدها الأرض مرة أخرى وتقوم إلى يمينها (غربها) سلسلة « لبت » ومن دونها « جرياش » ومن ورائها « غرابة » . ويكون إلى جهة المشرق فى الأفق « اللبّن » و « القراين » وهضاب « بنى منبّه » .

وبعد اجتيازنا لأرض المتن دخلنا أرض « الحَبُوب » ، نباتها السَّمر ، وطينتها رخوة رخصة ، تغرز فيها السيارات ، يخترقها وادى « هِرجاب » عند جبل « مِرْياش » الذى يقوم كالحارس الرقيب على الوادى العظيم .

وبعـد أرض الحَبُوب تأتى أرض « الحزّة » التى يرافقها « مِرْياش » من

غر بها برهة قصيرة ، ثم ينتهي « سرياش » قبل أن تبلغ شعيبا اسمه شعيب « رنوم » على بعد حوالى كيلومترين ونصف متر .

ويشاهد المسافر من وسط أرض الحزّة سلسلة من الجبال إلى جهة الغرب تعرف باسم « الشراة » ، وهى السلسلة الموازية لسراة الحجاز وعسير المرتفعة . والجبال فى هذه المنطقة كثيرة ، بذل دليلنا جهده لتسميتها لنا وتعريفنا بحدودها من مبتداها إلى منتهاها ، غير أنى لن أتعب القارئ بذكرها هنا .

وبعد مسيرة ثلاثة كيلومترات من رنوم تبدأ أرض جديدة ، سماها الدليل باسم « صهى » وهى مجرى واد محصور بين جبال الشراة من الغرب وضلعان وهضاب مختلفة من الشرق ، وبعد أن نسير فيها مسافة كيلومترين نصل إلى الشعيب المسمى باسمها وترافقه على ضفتيه مسافة غير قصيرة . وقد شبهت أرض صهى هذه بطريق مكة — الطائف من حيث وعورتها وكونها فى واد يرتفع كلما تقدمنا فيه ، إلى أن نصل بعد مسيرة خمسة كيلومترات إلى عقبة نرقاها ونتحول منها إلى أرض مستوية مسافة كيلومتر واحد ، ثم نعتلى عقبة أخرى . ويستغرق قطع أرض صهى من أولها إلى آخرها مسيرة عشرة كيلومترات ، حيث نفارق شعيب صهى ونسير فى واد آخر اسمه « وادى الميثاء » وهو ذو رمل أبيض خال من الحجارة والصخور . وتشبه الأرض هنا طبيعة الأرض الواقعة بين السيل والربع الكبير (ذات عرق) على طريق مكة — الطائف .

ندخل بعد ذلك أرض « جلالة » . وهى سهب مرتفع ، بقربه تلال وركام صخرية كالحرار ، وبعد أن نسير فيها خمسة كيلومترات نصل إلى مكان يسمى « هضبة البئر » التى يمر بقربها شعيب جلالة . وبعد مسيرة كيلومترين ونصف متر عن الشعيب المذكور نصل إلى بئر غزيرة المياه ، عمقها سبعة أمتار ، تجاورها صخور ملساء ، نقشت عليها نقوش كثيرة ، قد يخالها المرء كتابة هيروغليفية أو حميرية ، غير أنها فى الواقع أوسام الإبل وأوسام أخرى لامعنى لها ، وهذه البئر اسمها « بئر ابن سرّار »

وبعد كيلومترين من البئر نقطع شعيبا اسمه « تلاع » ، ثم ندخل فى أرض «الحدبة» التى تبدأ على بعد مسافة ستة كيلومترات من البئر، وهى أرض محاطة بهضاب حجرية ملساء اسمها «الصمع» وهى بطبيعتها مشابهة لأرض «الجثامية» و«الجُدَيْرَة» بين «الربع» و« أم الحمض » على طريق الطائف . وتشاهد من هذه الأرض هضاب متعددة مثل : نمرة ، وحقايلة ، وثعدة ، الواقعة بقرب قرية : العماير ، على وادى « هرجاب » . وترى أيضا أبارق العالة ، ورفضة ، والحصير ، وسيفان ، والصندب . ذوات اللون الأبيض الناصع الذى يميزها عما حولها من هضاب ومرتفعات ، وتمتد أرض الحدبة إلى مسافة ١٢ كيلومترا .

وتبدأ بعد ذلك أرض « السرين » ، السوداء اللون ، الممتدة إلى مسافة تسعة كيلومترات .

ثم تأتى بعد ذلك « كتنة » وهى أرض وواد مشهور فى كتب العرب ، تمشى السيارة فيه من أسفله إلى جهة منبعه عشرين كيلومتراً فى ملتويات ومنحنيات تحيط بها الجبال من كل جانب ، وتقوم على أطراف وادى كتنة جبال مشهورة مثل ضلع « قرن الوشيل » وضلع « ربة » و « ابن سرّار » . والسير فى الوادى يكون صعباً حتى نصل إلى ضور بنى منبّه ، لأن الطريق صعد . وضور بنى منبه ضلع صخرى أملس يقع على يمين الصاعد على الطريق ، ويمتد إلى مسافة كيلومترين . وحين مفارقة الضور نصل إلى عقبة صعبة المرتقى عسيرته ، ولكنا رقيناها بدون أى حادث ، وحوّلنا السير من جهتها الجنوبية الغربية إلى « وادى قرن الوشيل » ، فنضطر إلى ارتقاء عقبة ثانية ، ثم بعد كيلومتر آخر عقبة ثالثة غير أنها أقل انحداراً من الأولى .

دخلنا بعد ذلك أرض « الخلائل » التى بلغ ارتفاعها أعظم ما وصلنا إليه حتى الآن فى الرحلة ، إذ سجل البارومتر هنا علواً قدره ٧١٠٠ قدم . وأما أرض الخلائل فإنها سهلة كثيرة العشب والمرعى ، قد يتخذها بنو واهب من شهران حمى لمواشيهم ، وتقوم إلى شرقيها سلسلة « الحصاصة » . وقد شاهدنا فى هذه المنطقة رتلا من الظباء

طاردناها فلجأت إلى الجبال الصخرية فلم نتمكن منها . وأذكر أننا فى عودتنا شاهدنا فيها نوعاً من الحبارى النجدية صدنا بعضها . وتمتد أرض الخلائل مسافة ١٩ كيلومتراً ثم نبدأ بالتصعيد مسافة كيلومترين حيث نطل على مجرى وادى «هرجاب» الذى قطعنا قسمه الأسفل فى الصباح . وكانت الشمس قد قاربت المغيب ، والسيارات الصغيرة لم تكن قد لحقت بنا ، فقررنا المبيت فى هذا المكان .

حياة البرّية لذيذة مبهجة ، لاسيا متى كان المسافر مستعداً لها أو معتاداً إياها . وكانت معيشتنا فى سفرنا الحالى سائرة على وتيرة واحدة من الترتيب والنظام ، غير أننا — بسبب مبيتنا ثلاث ليال فى الخرما ورنية و بيشة — لم نتمكن من الاستمتاع بحياة البرّية الهادئة إلا ليلة مبيتنا فى «هرجاب» . نصب الرفاق الخيام ، وأرسلوا الدليل فى مشترى ذبيحة لعشائهم ، وانتشر أكثرهم يجمع الحطب استعداداً لهذه الليلة الباردة المقمرة ، وسمرنا إلى ساعة متأخرة من الليل مع ضيوف جمعتهم نار القِري ، فكنا نسمع أحاديث القحطانى والشهرانى والعسيرى والنجدى والحجازى ، وامتزجت النفوس وطاب السهر ، فهب الرفاق إلى جذوع أشجار ضخمة فاقتلعوها وجروها ، مقلدين بذلك فعلة الأمير فيصل ليلة الربوة فى أرض « الجديرة »

أفقنا فى الصباح نشطين أقوياء ، فرفعنا متاعنا ، وانسابت بنا سياراتنا تاركة وادى « هرجاب » إلى الشمال الغربى حتى دخلنا أرض « الحصاصة » التى تفصل بين مجرى « هرجاب» ومجرى وادى « أنْط » الذى يصب فى هرجاب أيضا .

و بعد مسيرة ١٥ كيلومترا من هرجاب نفارق وادى أنْط وندخل فى أرض النمر وهى سهلة فى مبتداها ، وتقع إلى الغرب منها ضلمان « الشـفا » . ومما يلاحظ أن شعيب « نمر » يصب فى وادى « المسيرق» الذى يصب بدوره فى وادى «تثليث» . ونسير فى أرض النمر مسافة طويلة ، نقطع تارة شعيب نمر نفسه ، أو الشعبان الصغيرة التى تصب فيـه ، ولا تكاد تنتهى من أرض النمر حتى تشاهد فى الأفق إلى جهة اليسار نخيل بلاد خيبر وقصورها .

٢ — بلاد خيبر

حينما سمعت بخيبر عجبت من التسمية ، لأنى كنت أجهل أن هنالك خيبراً غير خيبر المشهورة بوقعتها التاريخية فى صدر الإسلام والواقعة إلى الشمال الشرقى من المدينة المنورة ، ولكن خيبر شهران قد تكون أكبر من بلاد خيبر المدينة ، وأعدل هواء وأعذب ماء . وأرض خيبر هذه فيها رجوم وركام من الصخور السوداء ، وفيها شعبان وأودية كبيرة ، إلا أن أكبرها شعيب « السليل » ، وأعظم منه شعيب خيبر الذى يرفد شعيب المسيرق الآنف الذكر .

وتقوم بالقرب من خيبر عدة جبال أهمها جبل « شاع »[1] إلى الجنوب الشرقى منها . وتجتمع مياه الأمطار التى تهطل عليه وعلى جواره فى الوادى الذى يجتمع فى أول بيوت وادى خيبر مع وادى « الشيق » القادم من جهة الجنوب . و بعد أن يجتاز الواديان خيبر يتصل بهما المسيرق ، و يظل اسمه هكذا إلى أن يصب فى وادى « ثِفْن » بقرب الخَرَص . وثفن نفسه يصب فى وادى تثليث الذى سنصفه ونذكر روافده فى موضع آخر من هذا الكتاب .

أما بلاد خيبر فإن أهلها من شهران ، إما من كَوْد و إما من بنى واهب . وهى عدة قرى ممتدة على طرفى وادى خيبر والشيق والمسيرق . والبيوت هنا (وتسمى القصور) مبنية باللبن وهى كأحواش واسعة ، فى أحد أطرافها البيت الذى يشبه البرج ، و يتألف على الغالب من طبقين ، يستعمل الأدنى أيام الأمطار فى فصل الشتاء ويضم المواشى من بقر وماعز وغنم ، و يستعمل الأعلى فى فصل الصيف لخزن المؤن ، ولكن الغرض الرئيسى منه أن يستخدم للحرب ومراقبة العدو ومقاومته .

ومما يؤسف له أن انعدام الأمن فى هذه البلاد قبل ولاية الملك عبد العزيز آل سعود جعل السلامة الشغل الشاغل لأهل هذه البلاد وما جاورها ، ولذلك تراهم

---

(١) صفة جزيرة العرب للهمدانى .

قد جهزوا بيوتهم بوسائل الدفاع ، وكذلك فعلوا بمزارعهم التى يبنون فيها القصبات الشبيهة بالمنائر فيها مخاريق لرمى العدو وصده .

أما القرى فى وادى خيبر فهى :

(١) رِغْوة : فى أعالى الوادى ، أكثرها مزارع للحبوب ، وفيها قليل من النخيل . وأهلها من كَوْد من شهران .

(٢) البَرْدان : وتأتى بعد رِغْوَة . وأهلها من الصوح من شهران .

(٣) العَمَار : وهى للصوح أيضا .

(٤) خيبر : وهى لآل خُزام من بنى واهب ، وهى أحضر من العمار ، وفيها نحو عشرين قصراً .

(٥) واسط : وقصورها عشرة .

(٦) العمار : وهى غير الأولى واسمها الحقيقى عمار بن بجاد وفيها عشرون قصراً .

(٧) الحامض : وفيها نخيل ، وقصورها عشرة .

(٨) القفاض : بها عشرة قصور .

(٩) المباريش : أكبر من السابقة .

(١٠) الحنفة .

(١١) القوز : وهى بلاد لابن دليقم .

(١٢) البغث .

(١٣) الحرفين : وفيها عشرة قصور .

وأهم زراعاتهم البرّ والشعير والذرة والنخيل .

* * *

ومما يلاحظ أننى لم أشاهد نخلا بعد خيبر من جهة الخميس وعسير ، فكأنها الحدود التى ينتهى عندها زرع النخيل .

٣ — بين خيبر وتندحة

بعد مسير بضع مئات من الأمتار عن قصور خيبر، اجتزنا مجرى الوادى، وسرنا محاذين لجبل « شاع » الذى أصبح الآن عن يسارنا على بعد قليل منّا ، وكنا كلما تقدّمنا فى السير اقتربنا من الجبل حتى السير على سفحه ، وأصبح السهل ممتداً إلى جهة اليمين حتى مسافة ثلاثة كيلو مترات تقريباً ، وهناك تبدأ سلسلة من الجبال الحمراء تسمّى « سلسلة الشميط » .

أما أرض الوادى فإنها من التراب الأسود الناعم ، ويكثر فيها شجر العراد ، و بعد مسيرة عشرة كيلومترات تضيق أرض الوادى ، وتبدأ السلسلتان اليمنى واليسرى بالاقتراب حتى يبلغ البعد بينهما أقل من ٥٠٠ متر ، وعندئذ نصل إلى مجرى وادى السليل الذى يصب فى خيبر ، وفى هذا المكان ينقطع جبل « شاع » ويبدأ المسير على سفح سلسلة جبلية واقعة على يمين الطريق .

تضيق الجبال الخناق على الطريق وتنفرج عنه مرة أخرى ، وهى تنساب على جانبى وادى السليل أو على أحد جانبيه أو قاطعة له ، ولكنها تتمرج مصعدة مع علوّ الوادى إلى مسافة بضعة كيلومترات ، حتى تبلغ ارتفاعاً سجّله البارومتر بمقدار ٧٧٥٠ قدماً .

ننتهى من أرض جبلية إلى أرض رملية ، ولكنا نعود بعد كيلو مترين إلى المنطقة الجبلية حيث نرقى عقبة يكون الارتفاع عندها ٨٠٠٠ قدم ، وتسمى الأرض التى وصفناها بأرض السليل نظراً لأن السليل يصفى مياهها و ينساب فيها . ونسير بعد هذه العقبة قليلا فنقطع عقبة أخرى دونها فى الارتفاع ، ومنها تبدأ أرض اسمها « هضب الأشواط » و بقربها ضلع منفرد اسمه « قرن » . ومن هنا تتغير استقامة الطريق فتصبح مائلة إلى الجنوب الغربى تماماً ، ونترك « قرن » على يميننا بعد أن نكون سائرين فى استقامته، وتصبح استقامة الطريق جنوبية تماماً .

نجتاز بعد ذلك شعيباً على بعد نحو كيلومتر واحد من قرن اسمه «شعيب ثقيف» ثم نرقى عقبة يكون الارتفاع فيها ٨١٠٠ قدم . وحينما نجتاز كيلومترين آخرين نصل إلى أعالى الهضاب المقابلة لنا ويكون الارتفاع عندئذ قد بلغ ٨٤٠٠ قدم . ومما لاحظته أن هذه الهضاب هى الخط الفاصل لتقسيم المياه ، فإننا بعد أن بلغنا أعلاها شرعنا فى الانحدار إلى جهة الغرب حيث تتصفى المياه إلى جهة وادى تندحة . وبعد مسيرة نحو كيلومترين قطعنا شعيباً صغيراً ثم قطعناه مرة أخرى بعد نصف كيلومتر فى مكان تكثر فيه الحسيان وبعض شجيرات النخيل والدوم . ثم يتلوى الطريق بين رجوم وركام صخرية يعسر المرور من بينها وتسير السيارة كأنها محشورة بين قالبين من الصخر الأصم . وهذه القطعة من الطريق من أشق وأعسر ما رأينا ، وقد اجتزنا بين هذه الصخور والركام الصخرية مضيقاً يكاد عرضه لا يزيد عن عرض السيارة بكثير وطوله يزيد عن مائة متر ، ولكننا ما نكاد نفارق هذا المضيق العسير ونرقى أعلى العقبة من الجهة الجنوبية الغربية حتى نشاهد منظراً بديعاً فى الوادى المنبسط أمامنا ، هو منظر وادى تندحة وقراه الخضراء .

٤ — وادى تندحة

يحسب وادى تندحة من أهم روافد وادى بيشة حينما يكون اسمه وادى شهران أو بيشة ابن مشيط ، وهو يصفى السفوح الغربية للهضاب والآكام التى تفصل بين مجرى وادى بيشة ومجرى تثليث . وقد رأينا أن الشعبان التى اجتزناها فى طريقنا كانت متجهة إما إلى ناحية وادى بيشة (أنط وكتنة وهرجاب وتندحة) وإما إلى ناحية وادى تثليث (وادى السايل والمسيرق وخيبر) ، وعلى ذلك فإن وادى تندحة هو الوادى الثانى الذى يرفد وادى بيشة .

يمتد الوادى من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى فى منحنيات وتعاريج شديدة الميل إلى أن يصب فى وادى شهران فى مكان اسمه « الغريراء » بقرب بلاد

ابن هشبل ، و يبلغ طوله من منبعه إلى مصبه حوالى ٨٠ كيلومتراً ، ويكون مجراه ضيقاً شديد الانحدار فى بعض المواضع ، كما أنه ينفسح وينبسط فى مواضع أخرى ، ويشاهد على أطرافه أرض خضراء جميلة جداً .

وحينما قطعناه وجدنا فى مجراه الماء جارياً ، وقد أخبرونى بأن ماءه لا ينقطع إلا فى أشد السنوات قيظاً بخلاف سائر الأودية التى اجتزناها . نعم إن كثيراً من هذه الأودية توجد فيها « غيول » أى مواضع عميقة ينبع ماء الوادى منها ويؤلف بركة ماء واسعة ثم يغور مرة أخرى تحت الأرض فإن نبش عليه قليلا ظهر الماء وجرى . وأكثر مجارى أودية عسير وجبال تهامة عسير فيها من هذه الغيول ذات الماء الملوّث والهوام الكثيرة والجراثيم والآثار المرزغية .

وتقوم على أطراف الوادى قرى عامرة ترى إحداها من الأخرى رأى العين . وهى صفة لم أشاهدها إلا فى أودية عسير و بلاد شهران وقحطان . وقد ذكر لى بعض الذين سافروا بطريق السراة من الطائف إلى اليمن أن المسافر لا يفارق نظره القرى والقصور فى انتقاله من مكان إلى آخر .

أما قرى وادى تندحة اعتباراً من منبعه إلى مصبه فهى :

(١) أهل الذيب	(٨) أهل الدر
(٢) القُجير	(٩) آل ذَبابة
(٣) ابن سامة	(١٠) آل بُوذَبان
(٤) المزارقة	(١١) آل العطف
(٥) آل الحجاج	(١٢) آل عيّاش
(٦) آل مستنير	(١٣) آل الشُّعَيْثاء
(٧) أهل الزّلال	(١٤) آل سويد الحوطة .

ولأهل هذا الوادى سوق يومه يوم الأحد ، يجتمعون فيه مع كثير من أهل القرى المجاورة لواديهم ، ويتبادلون فيه بيع السلع والأمتعة . وهذه العادة أى عادة

الأسواق الدورية الأسبوعية فاشية فيما كان إلى جنوبى الحجاز من البلدان ، حتى إن القبيلة الواحدة قد يكون لها أسواق على عدد أيام الأسبوع يتنقلون فيها من سوق إلى آخر كما سنبينه فى موضع آخر .

ولم نمكث فى تندحة إلا ريثما جمعنا ما أردنا من معلومات وأرصاد ، وسرنا مسافة ستة كيلومترات ، فانفرج السهل أمامنا ، ووصلنا إلى شعيب الأرض المسماة بالشرف بعد سبعة كيلومترات تقريباً ، ثم مشينا قليلا فأشرفنا من أعالى الهضاب على مجرى وادى الخميس « خميس مشيط » .

٥ — خميس مشيط

كانت فى ذهنى صورة للخميس لم أجدها مطابقة للأصل حينما بلغتها سمعت بالخميس منذ سنوات ، وتصورتها مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء واسعة العمران معتدلة الإقليم ، لأنها كانت تتخذ مركزاً للمعسكرات كلما حصل النفير إلى جهة الحدود اليمانية أو إلى جهة تهامة ، فحينما وصلتها لم يحقق الخَبَرَ الخُبْرُ ، نعم وجدتها معتدلة الهواء قائمة فى سهل منبسط تبعد عنه الجبال مسافات كافيـة ، ولـكنى لم أجدها المدينة العظيمة ، المدينة التى رسمها الخيال فى ذاكرتى .

حينما أشرفنا على وادى الخميس من الهضاب الشرقية أصيل يوم الأحد الواقع فى ١٩ شوال ١٣٥٢ (٤ فبراير ١٩٣٤) كان أول ما لفت نظرى الخيام البيضاء المنتشرة فى أطراف الوادى وفى جنبات السهل المنبسط ، وحركة الجيش وتنقلات جند الإخوان ، وما يلازم المعسكرات من حركات عسكرية أو قوافل مؤن وذخائر أو سيارات غادية رائحة ، كما استرعى انتباهى شكل جـديد للبيوت لم أشاهده من قبل . وقد انساب الوادى فى السهل كالثعبان يتلوّى من حمارة القيظ ، وقد رُصّعت جنبات الوادى بالقرى المتصلة حتى كأنها تشبه قرية واحـدة ذات حلل منتشرة هنا وهنالك .

أما بلدة الخميس فقرية اسمها الحقيقي « الدّرب » ، وتسمى الخميس لأن السوق الأسبوعي ينعقد فيها يوم الخميس . ويضاف السوق إلى أمير شهران : ابن مشيط من آل رشيد ، فيقال للقرية « سوق خميس مشيط » ، ويضيع اسمها الأصلي « الدّرب » فلا يعلمه إلا أهلها .

بعد وصولي إلى الخميس فهمت السر في اختيارها مقراً للمعسكرات الحربية ، ذلك أن « أبها » وإن كانت أكبر منها وأقرب إلى الحدود اليمانية وتهامة فإنها محصورة بين الجبال ، ولا توجد فيها الفلاة لرعي الإبل ، وكذلك ليس فيها متسع لحركات جيش كبير . ووجدت أن ولي العهد قد اختار الإقامة في مخيم نصب على أطراف الوادي على سكنى بيوت القرية وقصورها .

بيوت القرية ، بل بيوت سائر القرى في بلاد شهران ، متشابهة . حينما أشرفت من أعالي « الخميس » على المعسكر والقرى المجاورة له ، رأيت من أمر البيوت عجباً ! البيوت في هـذه البلاد تسمى قصوراً أو حصوناً ، وهي في الواقع كذلك . جدار مرتفع يحيط بمساحة واسـعة من الأرض بحسب قدرة صاحب البيت وسعته . وقد قامت في طرف منه أو أكثر أبراج بعضها مفتول له مزارق ومرابيع للدفاع وقت الحصار . وقد قام في جانب آخر برج مربع هرميّ الشكل تقريباً ، قاعدته متسعة ، ثم تضيق كلما ارتفعت الطبقات إلى أن تنتهي بحرف علويّ مسنّن ؛ يجعل للقصر منظراً جميلا ، ويظهر القصر بجملته كبناء فرعوني على الطراز الحديث له نوافذ ضـيقة لاتتسع لمرور شخص متوسط الجسم . أما طبقات القصر فقد تكون اثنتين أو ثلاثاً أحياناً وتكون أربعاً في النادر . ومعدات البناء بأكملها وطنية محلية . اللبن النيء يصنع من تربة الوادي ، والسقوف وجميع الأقسام الخشبية في القصر تصنع من خشب الأثل المحلي الموجود بكثرة . وقد شاهدت عجباً في أدراج سلم القصر المنسجمة مع شكله الهرمي ، فإنها متسعة في أسـفل العمارة ثم تضيق كلما ضاقت مساحة البناء في الطبقات العليا حتى تصبح دون المتر عرضاً في الطبقة الأخيرة .

ويتجلى فى شكل العمارة هنا فرق آخر لمسنا طرفا خفيفاً منه فى بيشة ، وهو الاهتمام بزينة المنازل من داخلها ؛ فإن أكثر الجدران وأرضية الغرف وأدراج السلم تلون بالأصباغ النباتيــة المحلية غالباً ، ولـكن أجمل الأصباغ التى رأيتها هى اللون الأخضر الحشيشى الذى يؤخذ من عصارة البرسيم . شاهدت النساء يطلين بيوتهن من الداخل بهذه الأصباغ المبهجة ، ودققت فى طريقتين متبعتين فى هـذا الفن ، رأيت إمتاع قرائى بوصفهما .

تنقى كمية من التراب الرسوبى ، وتمزج بكمية قليلة من القش المسحوق (التبن أو ما يمـاثله) وترش بالمـاء إلى أن تتشرب تشرباً معتدلا ، ثم تدعك الـكتلة دعكا قويا ، وتفرش على الأماكن المقصود إصلاحها وتـسوّى بالأيدى (وألاحظ أنى لم أشاهد فى شهران،أو فى عسير ، أوحتى فى العارض من نجد آلات «المسطرين» لتسوية الطين ، بل إن العمال يستعيضون عن الآلات المعدنية أو الخشبية بأكفهم) ، ثم تبصص بملعقة معدنية إلى أن تجف فتظهر مصقولة براقة ، عندئذ تأتى النساء بالبرسيم يفركن به الأرض المطينة بقوة مواظبات على عملهن برهة غيرقصيرة ، ثم يجلبن الأصباغ الأخرى من أحمر قان ، أو أرجوانى ، أو عنابى ، أو أسود ، أو كحلى ، يخططن بها رسوماً هندســية ، على قدر اجتهادهن فى التنظيم ، وإذا بالمـكان يهيج بألوانه الزاهية ، جميل بأشكاله ورسومه ، ولـكنه غير لطيف الرائحة على من لم يتعوده ، لأن رائحة البرسيم المدهوس تملأ جو الغرفة وتضيق الخنق على ساكنها .

والعمارة بالطبع ليست قائمة على قاعدة هندسية منظمة ، فقد يكون طول الغرفة أكبر من عرضها ، وقد يكون السقف مرتفعاً فى جانب أكثرمنه فى الجانب الآخر ، وقد يكون الجدار مائلا أو بارزاً أكثر من ميل الجدار الآخر أو بروزه . والأبواب والنوافذ ليست متساوية . والمهم أن هنا بيتاً للسكنى يظلل المقيم فيه ويقيه البرد والحر وعواصف الطبيعة . وأما الهندسة وجمال الفن فإنهما للآن قائمـان على حسب مفهوم أهل هذه البلاد واستساغتهم لها . وحَسْب هذه البيوت أنها حرز لصاحبها تقيه عدوان أخيه الإنسان ، وتضمن له الدفاع عن نفسه وماله وعياله ، وهذا كل ما يلزم .

تسمى البيوت بالقصور أو الحصون ، وتسمى الحلة وطناً أو قرية ، وقد تسمى باسم معين لها ، ولكنها تعرف باسم ساكنيها ، فيقال قرية آل الحارث وقرية آل منصور وهكذا ، وليست البيوت على السواء من حيث الشكل والبناء ، فقليلها جامع للأوصاف السابقة ، وكثيرها يؤلف من بيوت واطئة متواضعة ضيقة . ولاحظت أنهم يسمون النافذة « كسترة » . والإقفال يسمونه : التقطيب ، فيقولون : « قطّب الكسترة » بمعنى أقفل النافذة . ويسمون الموقد : حللا . والمطبخ : ملهباً . وكثير مثل هذا من الاصطلاحات الخاصة .

يفضل كثيرون مناخ « الخميس » على مناخ « أبها » ، ولكن المزعج فى الخميس كثرة الرياح وشدتها ، فإنها تهدأ أطراف النهار ، وتهب هبوباً شديدا من الضحى إلى ما بعد العصر ، وأحياناً تدوم إلى الليل ، وربما كان مناخ الخميس أقرب إلى مناخ الطائف فى أواسط الصيف ، ولكن لياليه باردة جداً . وقد سجل مقياس الحرارة درجات مختلفة ، وأصغر درجة بلغها أيام إقامتنا فيها كانت يوم ٢٢ شوال سنة ١٣٥٢ (٧ فبراير ١٩٣٤) أربعين درجة فهرنهيت . أما ارتفاع « الخميس » عن سطح البحر فهو ٧٣٠٠ قدم .

٦ — الأسواق الأسبوعية

شهدت يوم السوق فى هذه القرية ، وهو كما ذكرت يوم الخميس : فوجدت أن أكثر القرى المجاورة يستعدون له أسبوعياً ، ويحضرون إليه ببضاعتهم من جميع الجهات ، من بلاد قحطان : ربيعة وَرُفَيْدة ، ومن بلاد عسير ، كما أن الشهارنة يحضرونه بانتظام . وينعقد السوق اعتباراً من ضحى يوم الخميس فى برحة متسعة واقعة بين القرية ومركز المخيم . وليس هنالك مخازن أو مبان لوضع البضائع وعرضها فيها ، بل إن الأمر لايتطلب أكثر من بضعة أعواد تغرز على أبعاد متناسبة وتغطى بقطعة من القلع أو الخيش فى خطوط متوازية أو متقابلة ، يجلس أصحابها فى ظلالها ، فيبسطون

بضائعهـم أمامهم و يعرضونها على المارّة . والذى لايتمكن من نصب خيمة كهذه يكتفى برقعة من الأرض فى العراء يبسط فيها سلعته . وهنالك موضعان داخلان فى السوق برغم بعدهما عنه : أحدهما لبيع الحطب والحشيش من برسـيم وقصب وخلافهما ، والآخر لبيع السائمة والماشية .

نعم إن فى الخميس بعض المخازن الدائمة للبيع والشراء اليومى ، إلا أن الأهمية العظمى للسوق الأسبوعى ، نظراً لـكثرة العارضـين والمشترين فيه . وقد تجولت فى السوق الأسبوعى ، كما تجولت فى السوق الدائمى وسط القرية ، فوجدت أن الأهمية للأول منهما . وقد شاهدت جميع السلع التى تلزم لأهل القرى والبادية من مأكل ، أو مشرب ، أو ملبس ، أو أدوات منزلية ، فلاحظت أن حاجات الطعام والملبس أكثر من غيرها .

* * *

ويوم السوق هو يوم العيـد الأسبوعى فى المنطقـة مثلما هو يوم البيع والشراء ، وهو فوق ذلك يوم المقاضاة والمحاكمة ، وإبلاغ إعلانات الحـكومة للناس ، ويوم تأديب المجرمين ، وغيرذلك من الأعمال التى تعرض للناس فى معايشهم ، وعلى الإجمال هو يوم جامع تقضى فيه الحوائج ، وتفض فيه المنازعات والمشاكل ، لذلك تجد القبائل كثيرة الاهتمام بأسواقها ، مدافعة عنها ، عاملة جهدها على إبعاد المشاغبات منها ، وإقصائها عن كل مايشين سمعة أهلها ، أو يضعف حركتها . وقد وضعت إحصاء لهذه الأسواق فى الجهات الواقعة بين الطائف[1] والحدود اليمانية فوجدتها تزيد عن مائة سوق . وهـذه أسماء بعض أسواق شهران وعسير وقحطان وما جاورها مع ذكر مواعيد انعقادها :

---

(١) الطائف نفسه يسميه أهل المنطقة من بادية ثقيف وسفيان وهذيل «السوق» ، وأما الطائف فى عرفهم فيطلق على المنطقة بكاملها .

اسم السوق	القبيلة	يوم انعقاد السوق
سوق الدرب لابن مشيط	شهران	الخميس
« ثلوث أبها[١]	عسير	الثلاثاء
« ابن حموض	شهران	الاثنين
« بنى رزام من بنى مالك	عسير	السبت
« ابن سالم	قحطان	الأحد
« عبيدة	»	الخميس
« رفيدة ابن عامر	»	»
« أم زهران من ربيعة ورفيدة	عسير	»
« الحرجة	قحطان	الاثنين
« ظهران	وادعة قحطان	الخميس
« صلب	رجال المع	السبت
« الغار بين	بالأحمر	الخميس
« آل خريم	بالأسمر	الاثنين
« ابن مطير	بالأحمر	الخميس
« الشعبين	رجال المع	الأحد
« كسان	» »	الخميس

(١) يسمى أهل المملكة العربية السعودية يوم الثلاثاء «الثلوث» ويوم الأربعاء «الربوع».

٧ — قرى الوادى

ذكرنا فيما تقدّم من الفصول أن هذا الوادى الذى أطلقنا عليه فى هذا القسم اسم « وادى خميس مشيط » أو « بيشة ابن مشيط » ينبع من ديرة « آل المسيرة » ، وهم قسم من « رفيدة قحطان » التى أميرها ابن هيف ، فى مكان يقرب جـداً من خرابات جرش الوارد ذكرها فى كتب العرب فى أعالى مرتفعات عسير التى يسميها أهلها « السقف » أى الجبال بالقرب من صحن « تمنية » الذى يحسب حداً فاصلا لتقسيم المياه الغربية والشرقية والجنوبية أيضاً .

أولا : تقوم على أطراف الوادى حينما يكون فى ديار قبيلة رفيدة[1] قحطان القرى الآتية :

(١) المصيق
(٢) القرحاء
(٣) عنقرة
(٤) آل الشيخ
(٥) الدّربين
(٦) عراب
(٧) آل زهير
(٨) ليوان
(٩) آل الداحى
(١٠) آل السواد
(١١) آل المظبا
(١٢) آل عمرة
(١٣) آل الرّميح
(١٤) الجوف
(١٥) آل شوية
(١٦) آل عرينة
(١٧) آل غر
(١٨) آل نادر .

ثانياً : وحينما يصل إلى بلاد ابن سالم من عبيدة قحطان تقوم على أطرافه القرى الآتية:

(١) الرّمبة
(٢) آل كنبة
(٣) آل جلدة
(٤) آل ألوف
(٥) آل جلدة من الحف
(٦) القضمان
(٧) آل ثابت
(٨) آل مهدى
(٩) آل هبيل
(١٠) آل جبرة
(١١) آل قريش
(١٢) آل عصبة
(١٣) آل قرعة
(١٤) آل بسّام
(١٥) آل سايمان

---

(١) إن قرى رفيدة وأقسام بدائدها أكثر بكثير ممـا هو هنا ، ولم أذكر فى هذا البحث إلا ما كان واقعا على الوادى من القرى وهى قرية « جارحة » و « خطاب » . أما قرى قبائل ألحف ووقشة وذبحى والجل وآل مستنير فقد تركتها إلى فرصة أخرى .

ثالثاً : أما فى بلاد شهران فعلى وادى بيشة ابن مشيط القرى الآتية :

(١) مسيحل	(١١) العرق
(٢) الرونة	(١٢) قنبر ، سكن عبدالوهاب أبو ملحة
(٣) نعمان	(١٣) الصمدة
(٤) الهرير	(١٤) آل هميلة
(٥) الوقبة	(١٥) الغرابة
(٦) ذهبان سكن الأمير ابن مشيط	(١٦) طيب الاسم (كسيسان)
(٧) الصفق	(١٧) معلوم
(٨) المثناة	(١٨) أبو سليك ، وهى منتهى الوادى
(٩) آل عزيز	(١٩) الجفور ، بينه و بين ابن هشبل .
(١٠) الدرب ، وفيه السوق الأسبوعى	

رابعاً : وحينما يصل الوادى إلى بلاد ابن هشبل من بنى بجاد من شهران تقوم عليه القرى الآتية :

(١) المعامل	(٤) الشهمة	(٧) الفريرة
(٢) الرشدة	(٥) آل بطاط	(٨) شفان
(٣) آل أبو ثور	(٦) الشقر	(٩) بطنة بنى ثعلبة

أما الزراعة الرئيسية فى هذه القرى فإنها الحبوب (البرّ والشعير والذرة بأنواعها والدخن) . أما الخضر والفاكهة فإن عناية أهل بلاد شهران بها قليلة جداً . والمعيشة من حيث هى بدائيــة بسيطة ، بحيث إن سكانها يعتمدون فى مأكلهم على محصولاتهم الوطنية .

٨ ـــ السفور والزواج

من الأمور الجديرة بإنعام النظر فى أهل هذه البلاد سفور نسائها واختلاطهن بالرجال ، ولا فرق بين أن يكون الرجال من الأقارب أبناء البلد أو الغرباء والأجانب ،

ويشترك النساء فى أحاديث الرجال فى مجالسهم ، مهما كان نوعها ، سواء أكنّ أبكاراً أم ثيّبات .

والاختلاط بين الجنسين قد تكون له مبرّرات بين الأقارب ، وأما بين الأجانب فقد كان من الدواعى التى أهابت بالأمير « سعود » إلى وضع حد له وتحريم اختلاط الجنسين فى المجالس أو فى السوق .

وأما المهور فإنها رخيصة جداً ، وليس أدل على ذلك من معرفة أن المهر بين أبناء العم لا يتجاوز الخمسة إلى العشرة ريالات ، وأما بين أبناء القبيلة الواحدة أو بينها وبين القبائل المتصلة بها بصلة النسب فقد يبلغ المهر من عشرين إلى ثلاثين ريالا . غير أن كثرة الزواج بالجنود أدّت إلى رفع المهور إلى مائة ومائتين وأحياناً إلى أربعمائة ريال .

ولا يهتم أهل هذه البلاد بالكفاءة فى النسب . . . حقًّا إن عائلات الأمراء والأعيان لا تزوّج بناتها لغير الكفء ، ولكننى شاهدت حوادث كثيرة قد أغفلت فيها شروط النسب والكفاءة ، وكان الاهتمام بالمهر الغالى والزوج الكريم .

ويكفى أن يقع نظر الرجل على ابنة حسناء فيأتى إليها فى السوق أو على البئر ويحدثها فى أمر الزواج . ويمكنه أن يقول لها : « أنا ميدك[1] » ، فإن كانت راضية عنه تجيبه بأنها « ميده » وتدلّه على والدها أو وليها الذى بيده أمرها ، ويتم الاتفاق سريعاً . وهنالك حوادث قد تجيب فيها المرأة طالبها بأنها « ليس ميد » أى لا رغبة لها فى الزواج .

والنساء يقمن بأعمال المنزل ، فضلا عن الاحتطاب وسقاية الماشية ونقل الماء إلى المنزل والبيع فى الأسواق . يبعن من حاصلات الحيوان أو الزرع ، باسطات سلعهن فى الأسواق الأسبوعية . غير أن الأمير « سعود » منعهن من ذلك درءاً للمفاسد بين أفراد الجند .

---

(١) « ميد » كلمة لم أعلم أساسها ، وقد تكون محرفة عن « ودى » ويعنى بها الرغبة فى الأمر وقصد إجرائه .

تضفر النساء شعورهن ، و يسرحن خصلة من الشعر فوق الجبين و يقصصنها ، فتبدو عليهن أشكال ذوات الأزياء الحديثة ، لا سيما عندما يلبسن الثوب الفضفاض الذى يشبه « موضة الكلوش » الطويل بين السيدات المتمدنات . ولسوء الحظ لم أسمع بإتقان النساء للخياطة ، فإن هذه الصناعة مثل كثير غيرها وقف على السادة الرجال . ولذلك فإن ثياب العروس تبتاع من المخازن التجارية مفصّلة جاهزة أو تعطَى الخيّاط فيفصّلها و يصلحها على هندام المرأة . و يتمنطق النساء بأحزمة من الجلد حول خصورهن ، فيتجلّين فى لبسهن أور بيات على الطراز الحديث !

وسأذكر فى الفصول المقبلة طرفاً من بعض العادات المتّبعة فى الأعراس والولائم وزيارة الأصحاب فى « عسير » ، فأقتصر هنا على هذا المقدار .

القسم الثاني

عسير السراة

الفصل الأول

بلاد عسير

مقدمة — حدودها — وعورة بلاد عسير — أودية عسير — الطريق من الخميس إلى أبها

١ — مقـــــدمة

« عسير » كاسم جغرافى ، اصطلاح حديث جداً ، يعود تاريخ استعماله إلى حوالى مائة وخمسين عاماً ، ولكنه كاسم قبيلة أو حلف من القبائل ، اصطلاح غاية فى القدم . والأصل فى الاصطلاح الجغرافى هو إطلاق اسم القبيلة على البلاد التى تسكنها ، فيقال بلاد عسير أو ديرة عسير ، ويقصدون بذلك أوطان القبيلة الشهيرة التى تسكن أعالى السروات ، وعلى الأخص سراة الأزد ، ثم أهملت النسبة واشتهرت البلاد باسم عسير وفى العهد العثمانى جعلت بلاد عسير « متصرّفية » باسم : « متصرفية عسير » .

أهمل قدماء مؤرخى العرب اسم « عسير » كبلاد ، ولم يرد ذكرها فى تقاسيم بلاد العرب المعلومة وهى : الحجاز واليمن وتهامة ونجد والعروض . وجعلوا حدود اليمن متصلة بالحجاز من ناحية السروات ومن ناحية تهامة . وقد أشار إلى ذلك ابن خرداذبة حيث قال : « وفيما بين سَرُوم راح والمهجرة طلحة الملك ، شجرة عظيمة تشبه الغَرب غير أنها أعظم منه ، وهى الحد ما بين عمل مكة وعمل اليمن » [١] . وقال «ياقوت» : «مهجرة» بلدة فى أول أعمال اليمن بينها و بين «صعدة» عشرون فرسخاً [٢] وكانوا يطلقون على هذه البقعة من بلاد العرب : « بلاد السراة » وينسبون كل سراة إلى القبائل الساكنة فيها مثل « سراة جبلان » و «ألْهان» و « المصانع» و «قدَم»

---

(١) المسالك والممالك ص ١٣٠ و ١٣٧

(٢) معجم البلدان م ٨ ص ٢٠٨

و « عَذْر » و « هَنُوم » و « سراة خولان » و « جَنْب » و « عَنْز » و « الأزْد » وغيرها[1] . وكانوا يسمونها كما قال « ياقوت »[2] : « طَوْداً » بفتح أوله وسكون ثانيه والدال : اسم عَلَم للجبـل المشرف على « عِزْنة » ، وينقاد إلى « صنعاء » ؛ ويقال له : « السراة » . وكذلك سماها « الهمدانى »[3] .

وقد توسعوا فى إطلاق لفظ «عسير» على بلاد ليس فيها عسيرى واحد كما سنوضحه فى محله من هذا الـكتاب ، ولـكن الذى يعنينا الآن هو أن هذه البقعة الجبلية كانت تقطنها بطون من القبائل اليمانية — وعلى رأى بعضهم : عمانية فتنزّرت — من أسلم الأزد ، أطلق عليها اسمها فعرفت بهم ودعيت : «بلاد عسير» . وكذلك تعرف قرى كثيرة بأسماء ساكنيها مثل « زور آل الحارث » و « حلّة آل همام » وغير ذلك مما هو مشهور فى بلاد عسير واليمن . ثم لما قويت شوكة القبيلة وامتدت سيطرتها إلى بلاد القبائل المجاورة لها غطى اسمها على اسم تلك القبائل وأصبحت تعرف باسمها . فلما جاءت الحـكومات المدنية وجدت قبيلة « عسير » أشد قبائل تلك المنطقة مراساً وأعظمها هيبة ونفوذاً وأكثرها عدداً وعُدّة ، فأطلقت عليها وعلى البلاد الموالية لها اسم « عسير » وجعلتها الحـكومة العثمانية متصرّفية كما مرّ[4] . وسنحاول أن نرسم فى النبذة التالية صورة صحيحة عن حدود البلاد التى تسكنها قبيلة « عسير » والبلاد التى تتبعها ، أو التى ضمت إليها .

٢ — حدود « عسير »

ذكرت فى فصل مضى من القسم الأول كيف حدّد لى الأعراب وادى « بيشة » بأنه يمتد من الشعف إلى السعف . والظاهر أن أهل هذه البلاد مولعون بالاصطلاحات المقتضبة التى تغنى عن التعريفات المفصلة ، لأنى حينما سألت بعض كبار «عسير» عن

---

(١) صفة جزيرة العرب للهمدانى ص ٦٨ — ٧١

(٢) صفة جزيرة العرب ص ٧١ و ١١٨ ومعجم البلدان م ٦ ص ٦٧

(٣) صفة جزيرة العرب ص ١١٨

(٤) قاموس الأعلام م ٥ ص ١٣٥٤

حدود بلادهم أفادنى بتعريف جامع مانع فى عرفهم كتعريف أهل « بيشة » لواديهم . قال :

« حدود عسير : من زهران إلى ظهران » . تعريف يعجز أكبر علماء الجغرافيا عن حل طلاسمه ورموزه ، علاوة على أنه تعريف مبالغ فيه يفيد فى الواقع مدى سُلطان قبيلة «عسير» فى وقت من الأوقات أكثر مما يفيد حدود بلاد القبيلة ، فزهران بلاد قبيلة عظيمة تقع بين بلاد الطائف و بلاد غامد ، وتبعد عن « أبها » مركز عسير ١٢ مرحلة للمشاة أو تزيد . و« ظهران» مركز « وادعة » من « هَمْدان بن زيد » إلى الجنوب من عسير وقحطان ، بين بلاد قحطان و بلاد « صعدة » فى اليمن . وتبعد بلدة ظهران عن أبها ٦ مراحل للماشى ، فتكون مسافة بلاد عسير بحسب تعريف أهلها وتحديدهم عبارة عن ١٨ مرحلة ممتدة من الشمال إلى الجنوب . وقد تكون ثلاث مراحل أو أربعاً عرضاً من الشرق إلى الغرب .

غير أن هذا التحديد مبالغ فيه جداً كما ذكرت ، لأنه يشمل بلاد قبائل كثيرة لا تجمعها بقبيلة عسير غير رابطة الجوار والخضوع فى بعض الحقب لسلطان أمير أو أمراء من « عسير » ، كما حدث ذلك فعلا أيام سيطرة «عائض بن مرعى» مؤسس إمارة آل عائض ، وكما وقع أيام ولده محمد بن عائض أكبر أمراء الأسرة العائضية على الإطلاق . والقبائل التى يشملها التحديد المذكور آنفا هى كما يأتى اعتباراً من الجنوب عند الحدود اليمانية — السعودية إلى الشمال .

(١) بلاد وادعة وسَنْحان	(٥) بلاد بالأحمر	(٨) بلاد بنى شهر
(٢) بلاد قحطان بأقسامها	(٦) بلاد بالأسمر	(٩) بلاد غامد
(٣) بلاد عسير	(٧) بلاد بنى عمرو	(١٠) بلاد زهران
(٤) بلاد شهران .		

وقد تكون بلاد «عسير» فى منتصف هذه البقعة الفسيحة من أرض السروات .

وذكر لى عسيرى آخر حدود قبيلة « عسير » بالنسبة إلى التحديد الصحيح الذى تشتمل عليه ديرة القبيلة الحقيقية فقال : « إن بلاد عسير من تَنْمِيَة إلى شعار » .

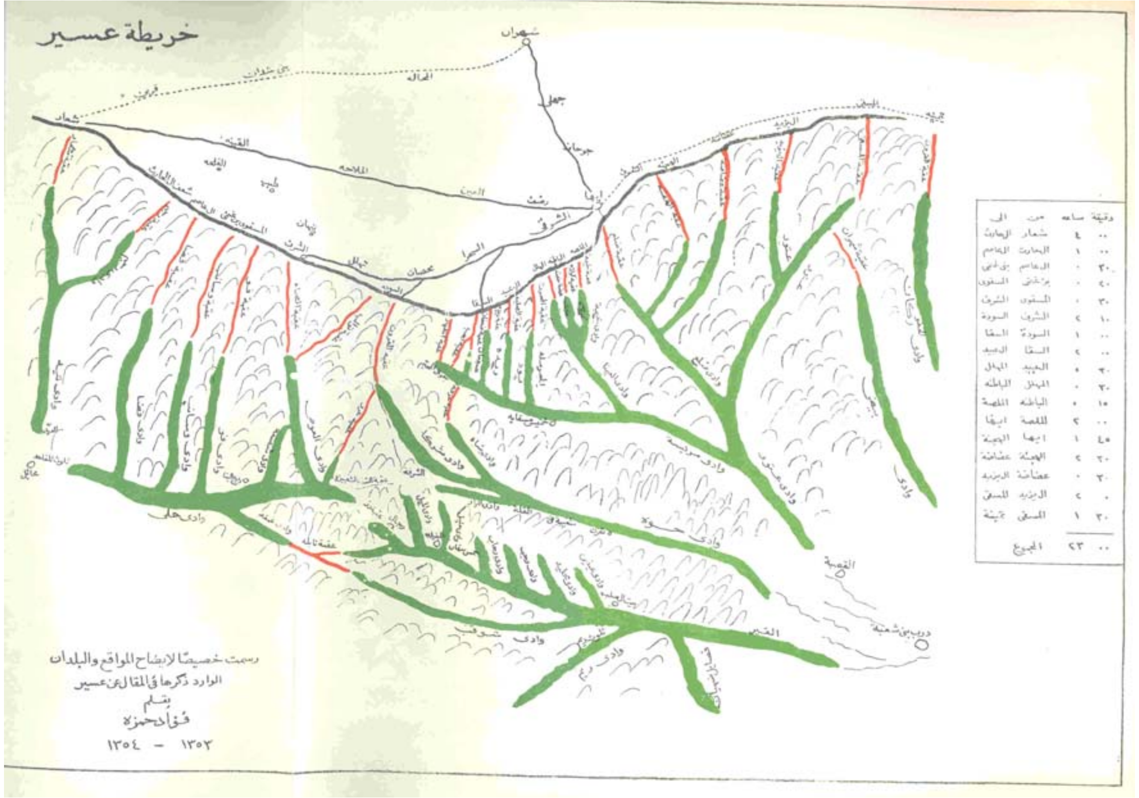
والأول جبل عظيم فى جنوبى بلاد «عسير» حيث تتألف الأودية الكثيرة مثل « بيشة » و « عِتْوِد » و « ضَلَع » ، والثانى اسم عقبة مشهورة تسمى « شعار » أو « تيَّـة » ، وهى واقعة فى منتهى حدود « عسير » الشمالية بينها وبين بلاد بالأحمر .

قال الهمدانى : « ثمّ يواطن حزيمة من شاميها عسير قبائل من عَنْز ، وعسير يمانية تنزّرت ودخلت فى عَنْز ، فأوطان عسير إلى رأس تَـيَّة وهى عقبة من أشراف تهامة وهىَ أبها ، وفيها قبر ذى القرنين فيما يقال ، عُثر عليه على رأس ثلثمائة من تاريخ الهجرة والدَّارة ، والفُتَيْحا ، واللَّصبَة ، والمَلَحَة ، وطَبَب ، وأتَانة ، وعُبَل ، والمَعُوث ، وجُرَشَة ، والحَدَبة . هذه أودية عسير كلّـها »[1] .

ونقول إن بلاد القبيلة المعروفة باسم « قبيلة عسير » تتألف من الجبال والأودية والسهوب الواقعة بين أعلى السراة الأزد فى الغرب ، وبلاد شهران فى الشرق ، وبلاد قحطان فى الجنوب ، وبالأحمر وبالأسمر فى الشمال . وبعبارة أخرى هى بلاد واقعة بين جبل تمنية وعقبة القرون ووادى رِكان الممتد إلى الحُقُو فالبحر من جهة الجنوب ، وبلاد بنى شعبة وربيعة اليمين ورجال ألمع ووادى حَلِى من جهة الغرب ، وعقبة شعار ووادى تَيَّة والسهب الممتد إلى بلاد بالأحمر من الشمال ، وسلسلة الهضاب والسهوب المتصلة ببلاد شهران من الشرق . وإذا قيست المسافات بالساعات للمشاة كانت المسافات من شعار فى الشمال إلى تمنية فى الجنوب ثلاثا وعشرين ساعة بالمشى السريع ، وفيما يلى كشف يوضح هذه المسافة[2] : —

(١) صفة جزيرة العرب ص ١١٨ — وأسماء الأوطان ما تزال إلى يومنا هذا على اسمها ما عدا عبل والمعوث وجرشة والحدبة لم أتصل بها ، وربما تغيرت أسماؤها بتقادم الزمن .

(٢) انظر تفاصيل العقبات والمواقع فى الخريطة المرافقة



دقيقة	ساعة	من	الى
٠٠	٤	شعار	الحارث
٠٠	١	الحارث	العاصم
٣٠	٠	العاصم	بني ذبي
٤٠	٠	بني ذبي	السقوى
٣٠	٠	السقوى	الشرف
١٠	٢	الشرف	السودة
٠٠	١	السودة	السقا
٠٠	٢	السقا	العبيد
٣٠	٠	العبيد	الهدال
٣٠	٠	الهدال	الباطنة
١٥	٠	الباطنة	اللقصة
٠٠	٢	اللقصة	ابها
٤٥	١	ابها	الهجبة
٢٠	٢	الهجبة	عضاضة
٣٠	٠	عضاضة	الدربية
٠	٢	الدربية	المسق
٣٠	١	المسق	جنبة
٠٠	٢٣	المجموع	

	ساعة	دقيقة
من شعار إلى عقبة آل الحارث	٤	٠٠
من آل الحارث إلى عقبة آل عاصم	١	٠٠
من عقبة آل عاصم إلى عقبة بنى غنمى	٠	٣٠
من بنى غنمى إلى عقبة المسقوى	٠	٢٠
من المسقوى إلى عقبة الشرف أو الصماء	٠	٣٠
من الشرف إلى عقبة السودة	٢	١٠
من السودة إلى عقبة السقا	١	٠٠
من السقا إلى عقبة آل عبيد	٢	٠٠
من آل عبيد إلى عقبة المَهْلل	٠	٣٠
من المهلل إلى عقبة الباطنة	٠	٣٠
من الباطنة إلى عقبة الملصة	٠	١٥
من الملصة إلى أبها (أو إلى عقبة ضلع)	٢	٠٠
من أبها إلى عقبة الهضبة	١	٤٥
من الهضبة إلى عقبة عضاضة	٢	٣٠
من عضاضة إلى عقبة آل يزيد	٠	٣٠
من آل يزيد إلى عقبة المسقى	٢	٠٠
من المسقى إلى تمنية وعقبتها .	١	٣٠
المجموع	٢٣	٠٠

وأما المسافة من الشرق إلى الغرب فإنها تقرب من المسافة التى من الشمال إلى الجنوب ، وهى — بين أبها و بلاد شهران — تبلغ ٣٥ كيلومترا ، فإذا اعتبرنا بلدة « حِجْلة » فاصلا بين ديرتى شهران وعسير كانت المسافة من أبها إلى أقصى

حدود عسير فى الشرق لا تزيد عن ٢٠ كيلومترا ، والمسافة من أبها إلى شمار تبلغ ٢٨ كيلومترا ، والمسافة من أبها إلى تمنية أقل من ذلك . غير أن السيارة لا يمكنها السير إلا عن طريق خميس مشيط على محاذاة مجرى وادى بيشة . وعلى هذا الاعتبار تتكون بلاد قبيلة عسير عبارة عن بقعة من الأراضى الجبلية يبلغ طولها ٥٠ كيلومترا وعرضها ٤٠ كيلومترا على وجه التقريب . فأين هذه المساحة من المساحة الواقعة بين زهران وظهران ؟

٣ — وعورة بلاد « عسير »

مثلما أطلق اسم القبيلة أو حلف القبائل على البلاد التى تستوطنها ، فلا يستبعد أن يكون لبلاد « عسير » نصيب من اسمها نظراً لوعورتها وصعوبتها . حقاً إن بلاد «عسير» عسيرة المرتقى وعرة المسالك كثيرة الجبال والوهاد والأودية . قامت سلسلة جبال السراة سداً منيعا من جهة المغرب فلا يمكن ارتقاؤها والعبور منها إلا من فجوات حفرتها الطبيعة ونحتتها بين ملتقى الجبال وتقاطع الأودية . وقد قامت هذه العقبات حارساً أميناً على البلاد من جميع الجهات التى يأتيها الخطر منها ، فظلت بعيدة عن سيطرة الفاتحين إلا لماما ، فصمدت للهجمات صموداً عجيباً ، و إن كانت استبيحت مرتين فى العصر الحديث بسبب رداءة الدفاع عن حصونها الطبيعية أو بسبب وقوع الخيانة فيها : المرة الأولى حينما هاجمها «رديف باشا» فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى من عقبة الصماء واحتل أبها وحَرْمَلة ورَيْدة ، والمرة الأخرى بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة حينما هاجمتها قوات تهامة المنضوية تحت لواء السيد « محمد بن على الإدريسى » عام ١٩١٠ ميلادية عن طريق عقبة شعار .

ومنذ وصولى إلى أبها ، وجّهت همّى إلى اكتشاف الطرق القريبة التى يمكن جتياز السيارات منها إلى تهامة تسهيلا لمواصلات الجيش المحتشد فى السراة وفى تهامة ولذلك جست خلال الديار وأنفذت المهندس إلى المواقع التى لم أتمكن من زيارتها

بنفسي ، ولكنى كنت كناطح الصخرة تتحطم دونها جهوده ، فإن جبال السراة تؤلف حاجزاً قوياً لايمكن تخطيه إلا من فرجات معدودة يطلق عليها اسم العقبات ، وهى بطبيعتها مبدأ واد منحدر من أعلى الهضبة إلى سفحها ، ثم يمتد الوادى متغلغلا بين الجبال متعرّجا حول الآكام والرّبى ، إلى أن ينتهى عند ساحل البحر فى تهامة .

سأذكر الأودية المنحدرة من أعالى الجبال فى بلاد قحطان وعسير إلى ساحل تهامة فى القسم الخاص بتهامة بمثل الطريقة التى اتبعتها ومازلت أتبعها فى سرد تفاصيل الأودية التى تصفىّ السفوح الشرقية لسلسلة السراة . وقد ذكرت فى القسم الأول من الكتاب ثلاثة أودية منها — تربة ورنَية و بيشة — وسأذكر فى هذا القسم وادى تثليث ، وأذكر فى قسم نجران الواديين الآخرين نجران وحبونة . ولذلك سأكتفى هنا بذكر مبدإ الأودية فى العقبات المشهورة .

ذكرت فى النبذة السابقة أسماء ١٧ عقبة ، وقد ذكرلى خبراء هذه البلاد عقبات أخرى غيرها ، فبلغ مجموعها ٢٤ عقبة ، لاأرى بأساً من حصرها مع ذكر الجهات التى تصبّ فيها بتهامة :

(١) عقبة شعار ، وتبعد ٢٨ كيلو مترا شمالى أبها ، وتقع غربى الحدود الفاصلة بين ديار بالأحمر وديار « عسير » . وهى فى الواقع المنفذ المطروق من عسير إلى محائل والقنفذة . والطريق منها إلى أبها ممهد لسير السيارات من أيام الحرب العامة ، وأصعب قسم فيه عقبة أمّ الرّكب بقرب بلدة « رِضْف » على بعد ستة كيلومترات من أبها .

(٢) عقبة رِجْم ، وتبدأ من شعف آل الحارث من ربيعة ورُفَيْدة من عسير ، وتصب فى وادى تَمْنِيَة .

(٣) عقبة قضا ، وتبدأ من شعف آل عاصم من ربيعة ، وتصبّ فى النهاية فى وادى حَلِي بن يعقوب .

(٤) عقبة وسانب ، تبدأ من المسقوى فى بلاد ربيعة ورفيدة من عسير وتنتهى فى وادى حَلِي .

(٥) عقبة فوده ، تصبّ فى وادى حَلِى عند جرف ابن موهوب فى بلاد ألمع .

(٦) العقبة الصماء ، بقرب تَهْلَل ، وهى من أصعب العقبات ، وقد يعتبرونها أصعب وأوعر من ضَلَع وشعار ، وتنتهى فى بلاد رجال ألمع .

(٧) عبقة توالب ، تبدأ من جبل السودة الذى هو أعلى نقطة فى سراة عسير ، وتصبّ فى وادى العَوْص فى بلاد رجال ألمع ، وهذا ينتهى فى وادى حَلِى .

(٨) عقبة القرون ، وتبدأ من جبل السودة أيضا ، وتصبّ فى وادى شوكان ضمن بلاد رجال ألمع .

(٩) عقبة أمطهار (الطهار) وتبدأ من السقا وتصب فى وادى مَرَبَة ضمن بلاد رجال ألمع .

(١٠) عقبة ضفعاف ، وتبدأ من السقا وتصب فى مَرَبَة .

(١١) عقبة رَيْدة ، تبدأ من السقا وتصب فى مَرَبَة .

(١٢) عقبة الصايف ، وتصب فى وادى لِتْوة الذى ينتهى فى مَرَبَة .

(١٣) عقبة آل امحارث (الحارث) تبدأ من المَهْلَل وتصب فى وادى حَرمَلَة الذى ينتهى فى مَرَبَة .

(١٤) عقبة خثيمة ، تبدأ من المهلل وتصب فى وادى الفَيْنَة ثم فى مربة .

(١٥) عقبة لَوْلاَه ، تبدأ من الباطنة وتحول على وادى الفَيْنَة ثم تصب فى مربة .

(١٦) عقبة خيمة ، تبدأ من المَلَصَة وتحول على وادى الفينة ثم تصب فى مربة

(١٧) عقبة ضَلع بقرب أبها على بعد كيلومترين منها إلى الجنوب الغربى ، وهى الطريق المطروق من أبها إلى القصبة فدرب بنى شعبة فجيزان .

(١٨) عقبة قِصْرى أو الشرف ، وتلتقى مع عقبة ضلع فى أسفلها عند منفرج الوادى قبل القصبة .

(١٩) عقبة الهضبة ، تبدأ بقرب الشرف أيضا وتنزل إلى وادى ضَلع .

(٢٠) عقبة عضاضة ، تبدأ من عضاضة وتنزل إلى وادى ضَلع .

(٢١) عقبة آل يزيد ، أو عقبة عِتْود ، وتصب فى وادى عِتْود .

(٢٢) عقبة المسقى ، وتصب فى عتود .

(٢٣) عقبة القرون ، وتبدأ من جبل تمنية وتصب فى وادى ركان ثم فى وادى الحُقُو .

(٢٤) عقبة بن حَمُّوض أو عقبة شهران من آل ينفع ، تبدأ من تمنية ما بين وادى عتود ووادى بَيْض .

وتوجد بالطبع عقبات أخرى فى بلاد قحطان ووادعة إلى الجنوب من بلاد عسير ، سأذكرها فى حينها ، لأنها هى المنافذ الوحيدة إلى تهامة .

وانحدار هذه العقبات شديد الميل بعيد المدى ، وقد يستغرق النزول من العقبة بضع ساعات ، كما أنه فى بعضها لا يتجاوز الساعة .

وجبال عسير مرتفعة جدا ، وربما كانت أعلى الجبال فى السراة بعد دخولها بلاد الملك « ابن سعود » . وقد سجّل البارومتر (٩٣١٠) أقدام فى قمة جبل « ذِرَة » المشرف على أبها ؛ و (٩١٢٠) قدما فى عقبة « ضَلَع » ، و (٩٦٢٠) قدما فى عقبة « أم الركب » بقرب أبها ، و (٨٧٥٠) قدما فى عقبة شعار ، و (١١٠٠٠) قدم فى « تَهْلل » . وكان أعظم ارتفاع سجله البارومتر فى السودة إذ بلغ (١١٤٢٠) قدما ويوجد بقرب السودة جبل آخر مرتفع بينها وبين تَهْلل لم نصعد إليه ، ولكن المهندس قدّر ارتفاعه بنحو اثنى عشر ألف قدم .

٤ — أودية « عسير »

حينما أتى «الهمدانى» على ذكر قبيلة عسير قال : «والدارة والفتيحا واللصبة والملحة وطيب وأتانة وعبل والمفوث وجُرَشة وَحَدَبَة : هذه أودية عسير كلها[١]» . و«عسير» بلاد الأودية والجبال ، فلا عجب أن تكون كل عقبة من العقبات التى أوردنا

(١) صفة جزيرة العرب للهمدانى ص ١١٨ .

ذكرها فى الفقرة السابقة رأسا لواد كبير أو صغير ، وقد تكون الأودية الناشئة من رءوس العقبات أودية رئيسية كبيرة مثل « عِتْود » و « حَلِى » و « الحُقُو » ، وقد تكون فرعية تصب فى الأودية الرئيسية .

أما من جهة سفوح جبال «عسير» الغربية فلا أشك فى أن كل عقبة تؤلف واديا اسمه كاسم العقبة نفسها . وسنذكر تفاصيل هذه الوديان وما يقوم حولها من قرى ومزارع وعمران فى تهامة بعد خروجها من ديار عسير ورجال ألمع و بنى شعبة وأهل حلى فى بحثنا عن تهامة عسير .

أما من جهة سفوح جبال عسير الشرقية ، فهنالك أودية كثيرة قد أهملها «الهمدانى» الذى نقلنا عبارته فى مطلع هذه الفقرة . حقا إن الأودية التى تصفى مياه السفوح الشرقية والجنوبية لعسير غير طويلة ، ولكنها فى الواقع من أهم روافد وادى بيشة ، وتجتمع به بقرب بلاد ابن هشبل كما ورد ذكره فى بحثنا عن بلاد شهران . وإليك أهم الأودية الكائنة فى هذه الجهة من بلاد عسير :

أولا : وادى خبيبى : ينبع من السُّقَا إلى الغرب من عقبة ضَلَع وعلى بعد بضع ساعات إلى الجنوب الغربى عن أبها . وحينما يقرب من أبها يسمّى باسمها ، ثمّ يمتدّ مسافات طويلة حيث ترفده أودية فرعية كثيرة إلى أن يصبّ فى وادى بيشة شهران عند بلاد ابن هشبل ، وتقوم على ضفاف هذا الوادى قرى بنى مغيد من قبيلة « عسير » . وهو أعظم أودية عسير .

ثانياً : وادى حَمْرة : ينبع من جبال تهلل و يصب فى وادى أبها عند بلدة المَحَّالة من مراكز بنى مالك من عسير ، و يملك البلاد القريبة من رأسه « عَلْكَم » من عسير ، و يملك ما كان فى أواسطه وأسفله بنو مالك من عسير .

ثالثاً : وادى المَلَاحَة : وينبع بالقرب من « تَهْلَل » فى بلاد « عَلْكَم » ، و بعد أن يسير مسافة قصيرة يلتقى بوادى أتانة .

رابعاً : وادى أتانة : وينبع بالقرب من « الطَّلْحة » فى ديار « ربيعة

وَرُفَيْدة » ، ويلتقى به وادى الملاحة فى قرية « الفَـيَّة » ، وحينما يلتقيان يتغير اسماهما ويتّحدان فيصبح اسمهما (الوادى الطويل) نظراً لطوله ، إذ يسير مسافة طويلة قبل أن يلتقى بوادى أبها عند « الخَنَقة » قبل بلاد ابن هشبل .

خامساً : وادى طَبَب : يطلع من باحة « ربيعة » ويمرّ على آل بجاد ، ثم يصبّ فى وادى « تمنية » إلى جهة تهامة .

سادساً : وادى جوحان : وينبع بالقرب من العقبات الواقعة جنوبى أبها ، ويصبّ فى وادى أبها عند بلدة « قاعد » و « الدارة » بين بنى مغيد وبنى مالك . وقد زرت هذا المكان فوجدت عند ملتقى الواديين مستنقعاً عظيما تجمعت المياه فى بعض أنحائه فـكوّنت بركا متسعة نما على أطرافها نبات الحلفا والمَلَص ، وفيها نوع من السـمك ذى اللون الأسود . وبجوار هذه البرك مزار قديم العهـد هدمه الإخوان ، يزعم أهل هذه البلاد أنه قبر ذى القرنين .

سابعاً : وادى ضَلَع : وعلوّه الجَنْدل، وهى جبال تقع إلى جنوب جبل « ذِرَة » المشرف على أبها والحارس لها من جهة الشرق ، ويصبّ فى وادى عِتود الغربى (أى المتجه إلى تهامة) .

ثامنا : وادى مَرَبَة : ويخرج من بلدة « رَيْدة » إلى الغرب من أبها ، ويتجه غربا بجنوب إلى جهة تهامة حيث يلتقى بوادى ضَلَع قبل أن يصب هذا الأخير فى عِتود الغربى .

تاسعا : وادى عِتود : وهو فى الحقيقة واديان أحـدهما شرقى والآخر غربى . وكلاهما ينبع من عقبة عتود المذكورة آنفا ، ولـكن أحدهما ينحدر من العقبة إلى جهة الغرب حيث يصب فى البحر ، والآخر يتجه إلى الشمال الشرقى محاذيا وادى بيشة غير بعيد عنه حوالى كيلومترين . وتقوم على هذا الوادى خمس قرى لآل راشـد من شهران . وكان من الواجب ذكره فى بحثنا عن شهران لأنه ينبع من عقبة عتود ، وهى كما لايخفى لآل يزيد من بنى مغيد من عسير . وهذان الواديان هما اللذان قال فيهما الشاعر إنهما مساكن الأسد فى الجزيرة ، كما مرّ بك .

٥ — الطريق من « الخميس » إلى « أبها »

تبلغ المسافة من سوق ابن مشيط فى بلاد شهران إلى سوق أبها قاعدة عسير ٣٥ كيلومترا تقطعها السيارة فى ساعة وبضع دقائق ، نظراً لوعورة بعض أقسام الطريق الذى افتتحه «محى الدين باشا» متصرف عسير وقائد فرقتها العسكرية أيام الحرب العامة لسير المركبات . و « محي الدين باشا » لم يسلم البلاد إلا عقب الهدنة عام ١٩١٨ ، وقد عين فيما بعد وزيرا مفوضاً لحكومة تركيا فى القاهرة .

غادرنا ساحة السوق حيث كان مخيمنا ، ضحى يوم الخميس الواقع فى ٢٣ شوال ١٣٥٤ (٨ فبراير ١٩٣٤) ، وسرنا على جانب وادى بيشة الغربى ، وكانت القرى على يسارنا — وتمتد الطريق فى أرض سهلة تتخللها ربى وهضاب كثيرة إلى مسافة ثلاثة كيلومترات عن السوق ، حيث تقوم بلدة « ذهبان » التى يسكنها الأمير سعيد بن مشيط ، وبعد أن تكون الطريق سائرة فى اتجاه جنوبى إذا بها تنحرف إلى جهة الشمال الغربى ، بين هضاب صخرية صعبة المسالك طولها كيلو متران .

وبعد خمسة كيلو مترات من مفرق قصر ابن مشيط نصل إلى واد كبير هو وادى عِتود المنوه به فى النبذة السابقة .

يبلغ عرض مجرى الوادى أكثر من خمسين مترا ، وينبت على أطرافه الحلفا والغزار والقصب ، ويشاهد المسافر من هذا المكان قرية واقعة إلى جهة الشمال أسفل الوادى هى أول قراه ، فلما رأيناها قدرنا بعدها عنا بنصف كيلومتر . أما القرى الواقعة على هذا الوادى فهى :

١ — العطفة	٤ — مشرف
٢ — الخلصة	٥ — آل الزعابك
٣ — آ ل راشد	٦ — الشعبة

وكلها لآل راشد من شهران .

ونظراً لارتفاع أبها عن الخميس لا بد لك من اجتياز عقبات كثيرة فى طريقك

من الثانية إلى الأولى ، إذ ما تصل إلى الكيلومتر السابع بينهما حتى تصبح على ارتفاع ٨٢٠٠ قدم عن سطح البحر، وبعد كيلو متر واحد يصل الارتفاع إلى (٨٣٠٠) قدم وحينما تبلغ الكيلو متر الرابع عشر تكون على ارتفاع (٨٣٢٥) قدما ، ومن هذا المكان يشاهد السهل المنبسط المحيط بوادى حِجْلة على بعد ١٥ كيلو متراً ونصف من خميس مشيط .

بلدة « حِجْلة » قرية بنى مالك من « عسير » ، وهى كبيرة متسعة تقوم على أطرافها أبراج كثيرة يسميها أهلها « القصبات » وهى بالفعل قصبة مجوّفة لها مدخل ضيّق ، يرقى إليها بسلّم من الحجارة البارزة من الجدار الأسطوانى الشكل . وتستعمل هذه القصبات مَرَاقِبَ للحراسة من هجوم الأعداء المباغت ، وللدفاع عن القرية وما يحيط بها من المزارع .

حينما أشرفت على «حِجْلة» شاهدت منظرا غريبا لم يكن لى سابق عهد بمثله . شاهدت البيوت والقصبات ذات رفارف خلتها لأول وهلة مصنوعة من الصفيح ، وإذا بى حينما اقتربت منها وأنعمت النظر فيها ، يتّضح لى أنها مصنوعة من الأردواز الحجرى ، ذلك أن طراز البناء فى عسير مختلف عنه فى بلاد شهران وسواها مما شاهدته من البلاد . فأساس البناء وجدره إلى ارتفاع حوالى متر عن سطح الأرض مبنيّة بالحجارة ، وما فوق ذلك مبنىّ بالطين أو اللّبِن المجفف بحرارة الشمس ، وكلاهما قليل المقاومة لا يستطيع تحمّل التأثيرات الجوّية والأمطار الغزيرة . ولذلك عمد أهل هذه البلاد إلى طريقة يدفعون بها خطر الأمطار ويدرءون بها سقوط الجدران ، بأن أحاطوها من جميع أطرافها برفرف من الأردواز على أبعاد متفاوتة لا تزيد فى معظمها على متر واحد ، ولا تكاد تبلغ أحيانا نصف متر . وعلاوة على أن هذا الطراز يكسب البناء شكلا غريبا ، فإنه يدل على مبلغ استفادة القوم من الأسباب التى يملكونها لدرء الأخطار الطبيعية وحماية البيوت من الانهيار .

كانت « حِجْلة » من أعظم قرى « عسير » ، غير أنّها أصيبت بضربة قاصمة عام فتح عسير على يد الأمير عبد العزيز بن مساعد ، إذ هاجم الإخوان جماهير عسير المجتمعة

فى « حجلة » للدفاع عنها فأبادوها ، وكانت مقتلة عظيمة مازال أهل عسير يذكرونها ويندبون سوء حظهم فيها ، وقد كانوا ذوى شوكة وأنفة وعزّة طوال مدة الحرب العلمة ، فأصابتهم هذه النكبة ، وأودت بمقاتلتهم ، وأضعفتهم كثيراً .

نجتاز شَعيب « حجلة » عند الكيلومتر السادس عشر ، ثم شعيب المدفن بعد ذلك بكيلومتر واحد ، ثمّ نصل إلى هضبة بالقرب من قرية « الغليظ » حيث يكون الارتفاع (٨٤٠٠) قدم ، وحينما نصل إلى الكيلومتر الثالث والعشرين يبلغ الارتفاع (٨٦٠٠) قدم .

نقطع وادى « جوحان » عند الكيلومتر السادس والعشرين ، وبعد مسير ثلاثة كيلومترات نقترب من قرية « الشرف » ، ويستمر التصعيد حتى نبلغ الكيلومتر الثلاثين ، فيصبح الارتفاع (٨٧٠٠) قدم ، ثمّ بعد قليل يزيد الارتفاع خمسين قدما أخرى .

وحينما نصل إلى الكيلو متر الواحد والثلاثين نكون قد بلغنا وادى « مشيع » الذى يمر بقرية « مشيع » التى تحسب من قرى « أبها » نفسها ، وبعد قليل نصل إلى أعلى ارتفاع بلغناه حتى الآن وهو (٨٩٠٠) قدم ، ومن هذا المكان نشاهد مدينة « أبها » والقلاع المحيطة بها فى أعالى الجبال ، ويظهر لنا قصر « شذا » الذى بناه محمد بن عائض ، ويظهر لنا إلى الغرب من قصر شذا قصر حديث البناء يختلف بطراز بنائه عن « شذا » حيث أنه يشبه قصور بلاد شهران ، بناه عبد الوهاب أبو ملْحة على أطلال الثكنة العسكرية العثمانية ، وقد علمت أنه كان على طراز حديث ، فجعل البناء الجديد على طراز بلاد شهران .

الفصل الثانى

قبيلة عسير

نسب عسير — أقسامها — نسب آل عائض — القبائل التابعة لعسير — قبيلة ربيعة اليمن — عادات غريبة فى قبيلة ربيعة

١ — نسب « عسير »

تضم قبيلة عسير المعاصرة مجموعة من القبائل المختلفة الأصول البعيدة الأنساب ، غير أن « عسير » الأصلية مختلف فى نسبها أنزارى هو أم يمانى . ذكر الهمدانى : « عسير يمانية تنزّرت ودخلت فى عنز »(١) .

وإرجاع أنساب القبائل العربية المعاصرة إلى أصولها أمر من الصعوبة بمكان عظيم ، نظراً للاختلاط الذى حصل — خلال الحقب المتطاولة والقرون المتداولة — فى أنساب القبائل وهجراتها ومحالفاتها ، وما إلى ذلك من الأسباب الداعية لضياع النسب الأصلى أو اختلاطه .

وقبيلة عسير المعاصرة حلف من القبائل ذات الأصول المختلفة ، وهى ترجع أنسابها إلى أسلم من الأزد سكان السراة .

ذكر السّويدى أن « الأزد من أعظم الأحياء وأمدها فروعا ، وقد قسمها الجوهرى إلى ثلاثة أقسام : أحدها أزد شنوءة بإضافة أزد إلى شنوءة وهم بنو نصر ابن الأزد . والثانى أزد السراة بإضافة أزد إلى السراة وهو موضع بأطراف اليمن نزلته فرقة من الأزد فعرفوا به . والثالث أزد عمان بإضافة أزد إلى عمان وهى مدينة بالبحرين نزلها فرقة منهم فعرفوا بها(٢) » .

---

(١) صفة جزيرة العرب ص ١١٨ .

(٢) سبائك الذهب ص ٣٣ .

وقبيلة عسير تضم أربعة بطون ، اثنان منها ينسبان إلى أسلم من الأزد ويلحقهما بعض فرق من شهران وقحطان ، والبطنان الآخران حلفاء للأولين ، والظاهر أن أصلهما يرجع إلى شهران أو قحطان .

أفادنى الشيخ على بن مشيبة أمير كافة « عسير » وهو من بنى مغيد ، أن القبيلة متحالفة منذ زمن قديم ، ولكن كثرتها من الأزد أزد السراة ، وفيها عناصر من شهران وقحطان ، وهذا طبيعى بالنظر إلى رابطة الجوار وضرورات الاختلاط الناشىء عن الغلبة والسلطان .

لا أستطيع حصر عدد أفراد قبيلة « عسير » بأقسامها الأربعة ، غير أنى علمت أنه قد فرض على عسير من المجاهدين أربعمائة مقاتل فى الأوقات المعتادة ، ويمكن أن يطالبوا بمضاعفة هذا العدد فيقدمونه بكل ترحاب . والواقع أن فرض عدد من المجاهدين لا يتبع قاعدة واحدة معينة ، وقد يترك أكثر الأحيان إلى تقدير القبيلة نفسها . والعادة فى مثل هذه الأحوال أن تذكر القبيلة عدداً أقل من عددها الحقيقى بالتأكيد ، فينشأ عن ذلك رقم لا يدل على شىء يمكن الاعتماد عليه فى تقدير المقاتلة أو الرجال فى القبيلة . غير أنى قمت بتحريات واسعة فعلمت أن فى إمكان القبيلة أن تخرج حين الضرورة القصوى ألفى مقاتل . وعلى هذا الاعتبار يمكن تقدير العدد التقريبى للقبيلة ذكوراً وإناثا بحوالى ٣٥ — ٤٠ ألف نسمة .

٢ — فروع قبيلة « عسير »

تقسم قبيلة عسير إلى أربعة بطون ، وهى :

(١) بنو مغيد . (٣) ربيعة ورُفَيْدة .

(٢) عَلْكَم . (٤) بنو مالك .

ولكل بطن عزوة خاصة يتفاخرون بها فى الحرب فيقولون : « مغيد الخطى » ، « عَلْكم الهول » ، « ربيعة مساكة الحرب » ، « بنو مالك أهل الصمت » .

والترتيب الذى ذكرناه فى تعداد أسماء هذه البطون يتبع مساكنها اعتباراً من الجنوب إلى الشمال . وفيما يلى فروع كل بطن من البطون الأربعة :

أولا : بطن بنى مغيد : وهم أكثر عسير عدداً فضلا عن أنهم رؤوس القبيلة وأمراؤها منذ نحو مائة سنة ، أى منذ احتلال العثمانيين لها بقيادة « محمد على باشا » والى « مصر » . ويمكن تقسيم هذا البطن إلى أربعة أفخاذ[1] هى :

(١) فخذ آل ناجح ، وفيه أقسام كثيرة أهمها :

آل يزيد ، وهم رؤوس عسير ، ومنهم آل عائض

آل تمام	آل فلاح	آل الحاج

(٢) فخذ آل عبد العزيز ، وفيه أقسام أهمها :

آل مفرح	العـــرقة	آل سكران
آل القبعى	القـــدر	آل بوسراح
آل مشيبة	آل ضبمان	آل ضحيَّـة

(٣) فخذ آل وازع ، وفيه عدة عشائر أهمها :

آل ويمن	آل بدلة	آل العكاس

(٤) فخذ مغيد الوطى وفيه عدة عشائر أهمها :

الشرف	بنو جمفرى	أهل الشعف

٣ — نسب آل عائض

وبمناسبة ذكرنا لبنى مغيد نرى من الفائدة أن نذكر هنا نسب آل عائض من آل يزيد :

مؤسس الأسرة ومنشىء حكمها عائض بن مرعى من أهل رَيْدة من آل يزيد من بنى مغيد . وقد تسلم الحكم من على بن مُجَثِّل كما سنذكره فى موضعه إن شاء الله .

---

(١) فى كتابى « قلب جزيرة العرب » جعلت هذه الأفخاذ سبعة ، ولكن تحرياتى الشخصية دلتنى على أن تقسيمى الحالى هو المعتمد . انظر ص ١٩٦

وخلّف عائض خمسة أولاد ، هم :

(١) محمد بن عائض ، وقد خلّف ثلاثة أولاد هم : علي ، وعبد الله ، وعائض .

(٢) عبد الرحمن بن عائض ، وقد خلّف ولداً اسمه محمد بن عبد الرحمن توفى في الرياض منذ بضع سنين ، وله أربعة أولاد هم : حسن ، وناصر ، وعبد الله ، وعائض . والأول من الأولاد في « أبها » والثلاثة الآخرون في الرياض .

(٣) سعيد بن عائض ، مات ولم يعقّب .

(٤) سعد بن عائض ، مات ولم يعقّب .

(٥) ناصر بن عائض ، خلّف أولاداً لم ينسب منهم إلا واحد اسمه « محمد » له ولد حيّ حين كتابة هذا الكتاب .

أما أولاد محمد بن عائض الثلاثة فإن أحدهم (عائض) مات ولم يعقّب .

وأما علي فله ثلاثة أولاد ، هم :

(١) الحسن ، وهو آخر أمير من آل عائض ، يقيم حالياً في الرياض .

(٢) عائض ، له ولد اسمه يحيي ، أما هو فقد مات .

(٣) محمد ، مات ولم يعقّب .

وأما عبد الله بن محمد بن عائض فله ثلاثة أولاد ، هم :

(١) عائض ، مات بالرياض ، وله ولد .

(٢) سعيد ، مقيم في أبها ، وليس له أولاد .

(٣) حسن ، مقيم في أبها ، وليس له أولاد .

والأحياء من آل عائض حين كتابة هذه الأسطر هم :

ا — ستة أشخاص يقيمون في أبها ، هذه أسماؤهم :

(١) سعيد بن عبد الله بن محمد بن عائض .

(٢) حسن بن عبد الله بن محمد بن عائض .

(٣) حسن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عائض .

(٤) يحيى بن عائض بن على بن محمد بن عائض .

(٥) ولد محمد بن ناصر بن عائض .

(٦) ولد عائض بن عبد الله بن محمد بن عائض .

ب — أربعة أشخاص يقيمون فى الرياض هذه أسماؤهم :

(١) حسن بن على بن محمد بن عائض (أمير عسير السابق) .

(٢) ناصر بن محمد بن عبد الرحمن بن عائض .

(٣) عائض بن محمد بن عبد الرحمن بن عائض .

(٤) عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن عائض .

* * *

ثانياً : بطن عَلْكَم من عسير : أفادونى أن هذا البطن يتفرع إلى ستة أقسام هى :

(١) بنو مازن — (٤) بنو المقرن

(٢) أهل القصير — (٥) تلادة عبدل

(٣) آل سعيدى — (٦) أهل عضاضة بقرب الشعف .

ثالثاً : بطن ربيعة ورُفَيْدة : يتألف هذا البطن من قسمين لا أشك فى أنهما من العشائر المتحالفة ، ولست أدرى ما الصلة بين ربيعة ورفيدة و بين استعمال الاسمين كعلم لبطن واحد . إن اسم ربيعة فاش بين قبائل العرب ، وقد عددت خمسا منها تحمله وقد يكون هنالك غيرها . وكذلك رفيدة فإنه علم لعشيرة من قبيلة قحطان . وعلى كل حال فإن هذا البطن ينقسم إلى فخذين :

ا — فخذ ربيعة ، وفيه أربع عشائر هى :

(١) تيهان — (٣) بنى غنمى

(٢) آل شدادى — (٤) آل عاصم

ب — فخذ رفيدة ، وفيه خمس عشائر هى :

(١) آل الحارث — (٣) أهل طبب — (٥) الرفقتين .

(٢) التلادة — (٤) أهل الفال

رابعاً : بطن بنى مالك : هذا الاسم فاش أيضاً ، فهنالك بنو مالك فى جبال تهامة بقرب العبادل وفَيْفا وبالحارث ، وهنالك بنومالك جماعة ابن فاضل بين زهران والطائف ، وهنالك هذه القبيلة من عسير ، وأما أقسامها فهى :

١ — آل الجمل ٥ — آل رميان
٢ — بنو رزام ٦ — بنو مُنَبّه
٣ — بنو ربيعة ٧ — آل يعلى ، ومنهم أحمد بن مُعَدّى أمير بنى مالك
٤ — آل الحبشى ٨ — التلادة

٤ — القبائل التابعة لعسير

يساكن فروع قبيلة عسير ويخالطها طبقات من القبائل التى تحسب أدنى فى المستوى الاجتماعى وأقل اعتباراً من القبائل ذات الشوكة والسطوة ، وهى لا تنحصر فى بلاد عسير فحسب ، بل إن منها فروعاً فى بلاد شهران وقحطان ورجال الحجر . والظاهر أن ضرورة المجتمع البشرى وطبيعة العمران أوجبت إيجاد هذه الطبقات التى تكسب بعرق جبينها من أعمال دنيا فى نظر القبائل الأخرى برغم ضآلة الفروق الموجودة بينها و بين تلك القبائل من ناحية طرق المعيشة وقلة العناية بالكفاءة فى الزواج والنسب .

ولهذه القبائل درجات بعضها فوق بعض . فمنها ما هو — فى طراز معيشته — أقرب إلى القبائل ذات السطوة ، ومنها ما هو أقرب إلى الصناع وَالخدم والمستجدين ، ومنها ما هو كالغجر يكسبون قوتهم من الاستجداء أو المديح أو القيام ببعض الأعمال الحقيرة . وقد ذكر لى من هذه الطبقات ما يأتى :

١ — البلاحطة : وهم مثل الغجر مدّاحون مستجدون . ومنهم أفراد لهم مكانة لا بأس بها من حيث الكرم وحسن الضيافة والمقام بين الجيران ، ومنهم الشعراء المداحون ، لقيت أحدهم فى قرية الملاحة فأنشدنى كثيراً من الشعر النبطى عن وقائع عسير وأيام محمد بن عائض ، و بينها قصيدة فى مديحى ومديح الحكومة . وقد قابلنى

مرة أخرى بمكة فوجدته على عهدى به مدّاحاً قوّالاً حسن العشرة سريع البديهة

٢ — الكحلة : طبقة أرقى من البلاحطة ، وهم فى نظامهم الاجتماعى يشبهون القبائل ذات النسب ، غير أنها لا تناسبهم ولا تتزوج منهم .

٣ — الهتمان : وهم فى عسير مثل « هتيم » فى الحجاز ، أى من طبقة القبائل المنحطة .

٤ — الدّواسر : أصلهم من الأرقّاء والصناع والخياطين . وهم — بالطبع — بخلاف الدواسر ذات العصبية والمكانة والمنعة فى وادى الدواسر ونجد ، فأولئك من أشرف طبقات العرب .

٥ — طبقة الصناع : من مُجَبِّب وخرّاز وحداد ومبيض و برّام . وهم لا يتناسبون إلا فيما بينهم .

٦ — الفيوض : وهم العمال الذين يشتغلون فى حياكة النسيج اليدوى الخشن ، ومنهم طبقة أدنى من الجميع يسمونها : الخدمان ، أى الأجراء .

٥ — قبيلة ربيعة اليمن

جرى العرف فى سائر بلاد السراة وقحطان وشهران على أن يكون لكل قبيلة فى السراة أتباع فى تهامة . فقبيلة عسير يتبعها فى تهامة من القبائل العظيمة قبيلة رجال ألمع . ولكن بالنظر لأهمية هذه القبيلة أفردنا لها بحثا خاصا ، لا سيما لأنها من ناحية العدد والمدّة قد تقرب من قبيلة عسير إن لم تزد عليها ، ولا شك فى أن التبعية إنما هى فى السلطان السياسى أكثر منها فى الحالات والعادات الاجتماعية والنسب .

وقد ذكر لى كبار عسير أن فى تهامة أربعة أقسام تتبع القبيلة ، وتتبع بالأخص بنى مغيد أو عَلْكَم ، وتبعيتها لبنى مغيد أكثر ، وهى :

١ — المُضَيِّبون . وهم قريبون جدا إلى بنى مغيد .

٢ — أم نفلة . ويتبعون علكم .

٣ — أهل وادى مَرَبّة . ويتبعون علكم و بنى مغيد .

٤ — ربيعة اليمن . وتحسب من ملحقات بنى مغيد ، وهى المقصودة ببحثنا الحالى نظرا لهمجيتها وغرابة عاداتها وبعدها عن سائر أسباب الحضارة والمدنية .

تقيم ربيعة اليمن فى وادى ضَلَع إلى الجنوب الغربى من « أبها » على بعد منها ، وتمتد منـازلها حتى درب بنى شعبة فى أسفل الوادى بعد التقائه بوادى عِتْود التهامى .

ويبلغ عدد أفراد القبيلة نحو ألفى نسمة . وهى ما تزال على حالة البداوة فتسكن فى مغائر أو خشش بين الصخور ، أو أكواخ مشيدة من الحجارة المرضومة المغطّاة بالخصف أو بقطعة من قماش . وقد يكون للـكوخ باب صغير جداً يدخل منه المرء حابيا على ركبتيه ، إذ لا أبواب ولا مزالج ولا أقفـال ، وهى أكواخ نقّالة ، تنقل من مكان إلى آخر تبعا لحركات القبيلة بحثا عن المرعى . وتعيش القبيلة على تربية المواشى ، ولا تحسن الزراعة مطلقا .

ولربيعة اليمن خمسة فروع هى :

(١) آل زعبة (٣) الفراحنة (٥) آل واثلة

(٢) آل غراب (٤) البوّاح

٦ — عادات غريبة فى قبيلة ربيعة

سمعت من أخبار هـذه القبيلة وعاداتها الغريبة شيئا كثيرا زاد معه شوقى إلى مشاهدة أفرادها من الجنسين ودرس طباعهم وأخلاقهم وتسقّط أخبارهم لتفكهة قرائى بهـا ، فاغتنمت فرصة الأسواق الأسبوعية فى « أبها » أيام الثلاثاء من كل أسبوع لمقابلة بعض من يحضر السوق منهم ، والتقاط صور بعضهم وسؤالهم عن أحوالهم ، فوفّقت إلى أشياء كثيرة أوضحها فيما يلى :

تعيش القبيلة حياة بدائية غاية فى الهمجية والوحشية . طعامها خشن ، ولباسها بسيط يتخذ للستر أكثر منه للتدثر والزينة ، ومسـاكنها — كما ذكرت فى النبذة

السابقة — مساكن القرون الأولى وهى بحالتها الحاضرة بعيدة قرونا كثيرة عن حالة الحضر من أهل المدن الحجازية بَلْه غيرهم من سكان المدن الكبرى .

أما طعامها فنوع من « العريكة » أو « العصيدة » أو الخبز والسمن . ويندر استعمال القمح بين ربيعة ، وكذلك اللحم فإنه ترفه لا يتناولونه إلا فى الأعياد والمواسم أو فى حفلات الختان والولائم وماشابه ذلك . والخبز والعريكة يصنعان من الشعير أو الذرة أو الدخن ، ويعصد الدقيق بالماء على النار ثم يسكب فى مواعين خشبية غالبا ونحاسية حينا ، وتحفر وسط العصيدة المسكوبة فى الماعون حفرة صغيرة تملأ بالزبدة السائلة أو السمن السائح ، فيلتقم الإنسان قطعة من العريكة يغمسها فى السمن ثم يزدردها .

وأمّا لباسها فمئزر (فوطة) يحيط بالقسم الأدنى من الجسم ، ويربط حول الخاصرة بسبتة أو بخصفة أو بعقد طرفيه دون حاجة إلى حزام . وهو لباس الرجال والنساء . وتختص المرأة علاوة على ذلك بلباس يشبه الصديرية القصيرة تلبسه فوق القسم الأعلى من جسمها ، وأحياناً يكون هذا اللباس مئزراً آخر أو مسفعا يُلفّ — مثل رداء الإحرام — حول الكتفين أو إحداهما وحول الظهر والصدر ، وقد تكون الصديرية قصيرة لا تبلغ حدّ المئزر الأدنى ، فيبقى قسم من البطن والخاصرة مكشوفا لا يستره لباس .

وغطاء الرأس عند النساء قبّعة من الخوص يسمونها (طَفَشَة) وهى على نوعين :

(١) ذات كنار عريض ، ويختص بها أهل تهامة حيث الشمس محرقة جداً .

(٢) ذات كنار رفيع تتوسطها أسطوانة بارزة تجعلها أقرب فى شكلها إلى القبعات الأسبانية الأندلسية أو قبعات « السيلندر » لولا أن هذه من الحرير وتلك من الخوص .

أمّا الرجال فلا يغطّون رءوسهم بل يضفرون شعورهم أو يتركونها على طبيعتها منفوشة بصورة تلقى الذعر فى القلوب . وقد يربط الشعر بسبتة تمسكه منعاً لتحريك الرياح له ، وقد يكون الرباط من أزهار البُرْك أو الشيح أو غيرهما .

ويتقلد الرجال خناجر طويلة تسمى « جنبيّة » . وهذه الجنابي مختلفة الأشكال بعضها طويل جداً يشبه السيف القصير ، وبعضها كالحربة المحدبة ، وبعضها كالخناجر الحجازية أو اليمانية ، وأكبر الخناجر هي التي يلبسها أفراد رجال ألمع .

ومن أرذل عادات ربيعة الاختلاط الجنسي بين الرجال والنساء من الأبكار والثيبات . وقد روى لي عن ذلك روايات أخشى أن يكون مبالغاً فيها كثيراً بسبب التهم الشنيعة التي يوجّهها بعضهم إلى هذه القبيلة وسواها من قبائل تهامة قبل قيام الحكم الحالي الذي قضى على هذه العادات الجاهلية وضرب على أيدي مرتكبيها بيد من حديد . وقد لاتتزوج البكر زواجاً شرعياً قبل أن تكون قد ولدت ولداً أو أكثر سفاحاً ، والظاهر أن كثيرين يرغبون في زواج البنت ذات الرقم القياسي في عدد أولاد السفاح . ويسمى ولد السفاح عندهم (ولد الهيجة) وفي لهجة أهل البلاد (ولد أمهيجة) والهيجة هي الغيضة أو الغابة ، أي الولد الذي ولد في الهيجة وليس على فراش أهله . أمّا المتزوّجات فإنهن محصنات لا يعرفن الباطل ولا السفاح ، ومجرّد زواج البكر أو الثيّب يلقي عليها ستاراً كثيفاً من الحصانة والحرمة والقدسية . وقد روى لي أن رجلا غازل متزوّجة في ليلة كانت فيها متعبة نائمة ، فلمّا عرفت بالأمر ظلّت تتعقبه مدّة إلى أن ظفرت به وقتلته رمياً بالرصاص دون أن تطالب بديته لأنها قتلته دفاعا عن العرض والشرف . ولا أشك في راوي القصّة ، بل أعتبره شاهد عيان لأنه اشترك في تسوية الحادث نظراً لمقامه عند القبيلة .

ومن أحسن عادات هذه القبيلة :

(١) إكرام الضيف .

(٢) الحشيدة لثلاثة والفزعة لهم : الخويّ والضيف والرفيق إلى أن ينصرف من الديرة أو إلى أن يهضم طعامه

(٣) المحافظة على أعراض المتزوجات .

(٤) حفظ جميل المحسن والإشادة بذكره .

غير أن أخبث وأفظع العادات الوحشية عند ربيعة اليمن عمليّة « الختان » ، وهى طريقة فظيعة تنبو عنها الأذواق وتمجّها الأنفس . والختان هو سلخ جلد العانة من أسفل السّرة إلى أواسط الفخذين بما فى ذلك الفرج ، ويكون إجراء العملية فى جمع حافل من رجال القبيلة ونسائها، شيبها وشبّانها ، بناتها وأطفالها ، تتجلّى فيه سماجة الذوق والوحشية .

لم تكن عادة السلخ محصورة فى ربيعة اليمن ، بل كانت فاشية فى أكثر قبائل تهامة عسير، ولكن الحكومة الحاضرة قضت عليها وشددت النكير على مرتكبيها فلم يبق من آثارها إلاّ القليل الزائل ممّا لا يتصل خبره بالحكومة .

وقد شرح لى بعض من شهد حفلة الختان عند ربيعة مراسم إجرائها ، فرأيت تدوينها فيما يلى :

عيد الختان من أعظم الأعياد والمواسم ، ونظراً للأخطار التى يتعرض لها المختتن فإن كثيرين يؤخرون ختانهم سنوات كثيرة قد تصل إلى العشرين أو أكثر ، ولا يجوز ختان من لم يكن بالغاً ، ويعيّن للشبان الطالبين موعد الختان ومكانه ، ويدعى إليه سائر القوم رجالاً ونساء ، وتنحر الأبقار والأغنام من ضأن وماعز بهذه المناسبة . وذكر لى أنه حدثت وقائع ختان كان الأولاد يحضرون فيها ختان أبيهم مما يدل على أهمية الحادث والتخوف منه . لأنه فى الحقيقة ضرب من الوحشية الخطرة التى تتطلّب الشىء العظيم من الشجاعة والجلد والصبر على الآلام ، وتفضى إلى الموت أحياناً كثيرة .

يقف الشاب الذى ينوى الاختتان فوق دكة مرتفعة فى محضر من النساء لاسيما الأبكار الراغبات فى الزواج ، ولا يكون على الشاب من الثياب ما يتستر به ، بل تكون عورته بارزة من غير حياء ولا خجل . إنها وقفة جبّارة تمثّل لنا عهد الأبطال الخرافيين أمثال « أبوللو » و « هرقل » ، يقف الشاب متكئاً بيده اليسرى على رمح قصير يتخذه عكازاً يستند إليه عند شدّة الألم ، ويحمل بيده اليمنى جنبيّة

كبيرة يسمّيها قوم رايمة « ذريعة » أو « مميرة » ، ويرفع الشاب رأسه منادياً معتزيا، بينما سكين الجرّاح تعمل في جلده تقطعه شريحة إثر أخرى . هذا مقام يتبارى فيه الأشدّاء ، فمن اختلج أو صاح أو بكى أصابته سبة من العار إلى الأبد ، ومن اختلجت أطرافه أو ظهرت عليه علائم الخور والضعف ، فهو جبان رعديد لا كرامة له بين الناس ، وليس هو بالبطل الذى يستهوى قلب المرأة فتعتبر اتخاذه بعلا لها من دواعى فخرها . ومن شدّة إيغالهم فى اختبار جَلَد الشاب قد يذرون رملا ناعماً فوق رجله ، فإن ثبت الرمل عليها اعترف ببطولته ، وإن اهتزّ أو انتثر فذلك دليل الخوف والرعب والاختلاج من الألم ، والعار كل العار لمن كان هذا شأنه .

ولا يقف المسلوخ ساكنا ، بل عليه أن يعتزى إلى قومه إن كان أصيلا ، وتكون العزوة غالباً إلى أخواله . وكثير من أولاد السفاح يعتزون بأنهم أولاد « الهيجة » لا أولاد الهيجاء . وقد يطلب الشاب شريحة من جلده ليمسكها على ذكر قوم لهم عليه يد أو منّة . والبنات يقفن أمام المسلوخ يشجعنه ويثبّتن عزمه بينما عملية القطع والسلخ سائرة دون توقّف ، وقد يناديه بكلام مشجّع مغر إلى أن تنتهى العملية الجهنمية . وكثيراً ما يموت الشاب قبل إتمامها ، وطويل العمر من سلم منها ، ثمّ عليه أن يتحمّل أياماً أخر حتى تشفى جراحه . عجبٌ أمر هذا الجنون فى الوحشية ، ولكنها التقاليد والخرافات والأوهام تتسلط على أفكار البسطاء والجهلة فتجعلهم يعيرون توافه الأمور أهمّية لاحدّ لها . ولم أستطع الغور إلى أصل أسباب عادة السلخ ، ولم أجد سبباً معقولا يفسّرها سوى استهداف تربية الشاب على تحمل المشاق والأهوال بدون تذمّر أو خوف أو وجل كما كان يجرى فى « أسبارطة » بموجب قوانين « ليكورغ » الأسبارطى ، وإلاّ فما معنى طلب المسلوخ لشرائح من جلده يباهى بها صارخاً معتزياً مفتخراً بأن هذه على شرف أعمامه ، وتلك على شرف أخواله ، وهاتيك على شرف من قدّم له يداً أو مساعدة ، وأخرى على شرف « الهيجة » ذات المقام الرفيع ؟!

بعد انتهاء عملية الختان أو بالأحرى عملية السلخ يصبح للشاب ملء الحرّية في العويل والصياح والتألم والنحيب بقدر ما يريد . ألم يحز لقب البطولة ؟ . ألم يتحمّل آلامه بكل ثبات وشجاعة ؟ ، إذن لا تثريب عليه ولا حرج بعد ذلك .

وفصل التداوى مأساة أخرى مؤلمة كفصل الختان ، والمسلوخ الذى يسلم من عمليّة السلخ قد يقع فريسة بين براثن جراحه المتعفّنة ، وكثيراً ما يطول أمد شفائه إلى سنة . وأما العلاج فبسيط جدّا : ملح الطعام يذرّ على الجراح للتطهير ، أو نوع من مسحوق الحجارة المخصوصة التى يمزج بها نوع من الأعشاب البرّية . هذا كل طبّ « ربيعة » فى معالجة جراح المسلوخ .

روى لى محدثى عن تعيير الشبان بعدم الصبر أثناء عمليّة الختان أنه كان قادماً من تهامة عام ١٣٤٩ هـ ، فوصل ديرة « ربيعة » فأخبر أن عندهم اجتماعاً كبيراً للنظر فى قضيّة ناشئة عن تعيير أحدهم لشاب بسبب اختلاج رجله وقت ختانه ، فحقد على معيّره وقام عليه فقتله انتقاماً منه على إشاعته الكاذبة ، وكان الاجتماع كمجلس قضائى عادل للحكم فى شأن هذا الشاب : هل اختلج أثناء العملية حقاً ؟ ، وكان سؤال رئيس الاجتماع للمحلفين : « هل اختلج أو لا ؟ » فإن كان قد اختلج فعلى القاتل الدّية وإن كان لم يختلج فلا تلزمه الدّية ، وكان قول المحلفين أن الشاب لم يختلج ، وكان الحكم النهائى أن القاتل غير ملزم بدية القتيل .

الفصل الثالث

عمران عسير

خصب التربة وغناها — الطرق والمواصلات — أبها وقلاعها — قرى عسير

١ — خصب التربة وغناها

القسم الهام من الأرض الزراعية فى عسير مؤلف من مجارى الشعبان والأودية ومن منخفضات الجبال والفجوات بين الهضاب . والأرض على الإجمال خصبة قوية الإنبات ، غير أنها محتاجة إلى المياه ، فإذا أمطرت السماء أخصبت الأرض وأنبتت محصولا عظيما . وقد شاهدت مدة إقامتى فى عسير أن المعول فى الزراعة على مياه الأمطار ، فإذا لم ينزل الغيث لم يتمكنوا من زرع الحبوب فى الأماكن التى لا تصل إليها مياه الآبار . وعلى فرض تمكن الأهالى من استثمار ما تسقيه المياه المستخرجة بالسوانى من الآبار الواقعة حول مجارى الأنهر ، فإن كميات المياه فى الآبار ذاتها تقل جداً ، بل إن كثيراً من هذه الآبار ينضب فى فصل الصيف . وقد كانت سنة زيارتى لأبها سنة قحط شديد قلت معه الحاصلات الزراعية وتلاشت الماشية ، حتى لقد كنا نشاهد قطعان الماشية سارحة فى البرية لا تستطيع اجتياز ممر السيارة دون أن يذهب بعضها ضحية الدهس ، بسبب هزالها وضعفها الناشىء عن قلة المرعى .

وكان من أثر ذلك أن احتاط أهل عسير وسائر بلادة السراة بخزن الحبوب فى آبار خاصة تحت الأرض لا تصلها الرطوبة ولا يتسرب إليها السوس ليقتاتوا بها فى السنوات ذات الإنتاج الضعيف . أما إذا جادت السماء بغيث كاف فإن الخيرات فى عسير تكون عظيمة جداً .

وأهم زراعة يعنى بها الأهلون القمح والشعير والذرة ، وقليل ماهم الذين يزرعون الدخن بخلاف أهل تهامة . ولا يهتمون بزراعة الفاكهة إلا قليلا فى جوار أبها حيث

توجد شجيرات من التين والرمان والتفاح والخوخ والعنب . غير أن أشجار الموز والبن تنمو جيداً فى الأقسام الغربية من جبال عسير ، ولكنها ليست من السعة وعظيم المحصول بحيث تكفى الأهلين احتياجاتهم . ومن غريب ما لاحظت فى زراعة البن أنها لا تزهر إلا على ارتفاع معين من سطح البحر ، فإن تعدته لا تثمر ولا تعيش ، ولا تنبت كذلك إلا على السفوح الغربية لمرتفعات عسير واليمن ، أما المرتفعات الشرقية فلا تنمو فيها أبداً . والظاهر أن سبب ذلك جفاف جو السفوح الشرقية ، بينما جو السفوح الغربية رطب .

القمح والشعير هما المحصولان الرئيسان فى البلاد ، وعليهما المعول ، وما عداهما ثانوى فى نظر الأهلين ، لا يشكل قسما مذكوراً من غذائهم اليومى .

والعسل من المنتجات الهامة فى عسير ، إذ يتكاثر النحل فيها تكاثراً عجيباً ، ومنه أنواع يجنى منها عسل ناصع البياض بلون السكر النقى ، وقد حملت نموذجاً منه فى عودتى إلى الحجاز ، فعجب سائر الذين ذاقوه من منظره ونكهته . وهم يسمون العسل الأبيض : (مُجَرِّى) والأحمر : (شوكة) .

أما الحاصلات الحيوانية فهى الغنم والبقر والماعز . أما الإبل فلا توجد فى بلاد عسير نظراً لصعوبة الأرض ووعورتها من جهة ولضيق المراعى وشدة البرد من جهة أخرى . وجميع نتاج الحيوان يستهلك محلياً إلا فى سنوات الخصب فإنهم يصدرون السمن والغنم إلى الجهات المجاورة . ويمكن وصف هذه البلاد بأنها تكفى نفسها ولا تحتاج إلا إلى الأقمشة والأبازير ، أما الآلات فقليلة الاستعمال لاستغناء أهل البلاد بالمصنوعات المحلية عنها .

وتوجد فى عسير معادن أهمها الحديد الموجود فى جبل « تَهْلَل » بجوار السودة ، زاره المهندس المرافق لنا ، ويبعد عن أبها مسافة عشرين كيلو متراً إلى الغرب ويبعد عن قرية السودة حوالى أربعة كيلومترات ، وهو جبل مرتفع مكسو بالأشجار

الدائمة الخضرة ، ذو ينابيع جارية فى الصيف والشتاء ، يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر (١١٠٠٠) قدم . أما السودة فارتفاعها (١١٤٢٠) قدماً . وقد شاهد المهندس آثار عشرات النقر لإذابة المعدن فيها ، وأحضر نماذج من الحجر الحديدى أرسلها للتحليل ، فظهرت جودة النوع والكمية ، غير أنه من الضرورى إجراء فحوص وتحاليل كثيرة قبل التثبت من فائدة المعدن من الوجهة الاقتصادية .

ولا شك فى وجود معادن أخرى غير الحديد لاتزال على حالتها الأولى ، ولا يمكن استغلالها إلا بعد حفر واستكشاف وتحاليل ، للوقوف على مدى فائدتها الاقتصادية .

٢ — الطرق والمواصلات

مما يستدل به على رخاء البلاد : موقعها ، وخصب تربتها ، وسهولة مواصلاتها . ومع أن المواصلات فى «عسير» لا تزال بدائية إذا استثنينا طريق السيارات إلى بيشة ، فإن موقع عسير وخصب تربتها جعل منها مركزاً هاما بين اليمن والحجاز ونجد من جهة ، والسراة وتهامة من جهة أخرى .

والطرق الرئيسية المتفرعة من أبها مركز عسير ست ، هى :

أولا — طريق تهامة : وتبدأ من أبها متجهة إلى الجنوب الغربى مسافة ثلاثة كيلومترات ، ثم تنزل من عقبة ضلَع إلى القصبة ، ثم إلى درب بنى شعبة فصبيا فجيزان .

ثانياً — طريق عقبة الصماء : إلى الغرب من أبها ، وتنزل إلى بلاد رجال ألمع ومنها إلى تهامة ، وبالأخص قوز الجعافرة وجيزان .

ثالثاً — طريق عقبة شعار : وهى الصلة بين عسير والقنفذة والحجاز بطريق تهامة ، وهى من أعظم الطرق وأهمها من الوجهتين الاقتصادية والعسكرية . وكان من أهميتها أن جعلت القنفذة مركزاً بحرياً لتموين عسير ومركزاً للحكومة وقواتها

العسكرية بطريق بارق ومحائل ، وهى الطريق التى كانت تخترقها الجيوش العثمانية . ولذلك فإن « محيي الدين باشا » آخر متصرف فى عسير قد مهد هذه الطريق من أعلى عقبة شعار إلى أبها لسير المركبات والمدافع ، ولكن العقبة نفسها حاجز عظيم فى سبيل المواصلات ، وكذلك يقال عن الطريق من أسفل العقبة إلى بارق ومحائل . وقد بلغنى أنه كان فى نية محى الدين باشا إكمال تمهيد الطريق إلى القنفذة ، غير أن احتلال الأشراف والإدريسى لتهامة والقنفذة حال دون تنفيذ عزمه . وتبعد شعار عن أبها مسافة ٢٨ كيلومترا .

رابعا — طريق الحجاز : عن كتف السراة مارة بقرب عقبة شعار ومتجهة إلى بلاد بالأحمر وبالأسمر وبنى عمر حتى بلاد بنى شهر فغامد فزهران إلى الطائف . وهى طريق للمشاة ، وخاصة أهل الجبال ممن لا يطيقون حر تهامة فى الصيف .

خامسا — طريق شهران : وهى التى سلكتها فى قدومى من خميس مشيط إلى أبها ، وهى صالحة لسير السيارات ، مهّدها محيي الدين باشا أيام الحرب العامة ، ويبلغ طولها من أبها إلى الخميس ٣٥ كيلو متراً كما سبق بيانه .

سادسا — طريق اليمن : تسير من بلاد عسير فى اتجاهين : أحدهما عن طريق شهران ثم تنحاز إلى الجنوب حيث تدخل بلاد قحطان ، والآخر من عسير رأساً إلى تمنية ومنها إلى ديار قحطان ووداعة ظهران إلى صعدة ، وهذه الطريق أصعب الطرق وأكثرها وعورة .

وقد اكتشف الجيش بقيادة ولى العهد طريقا لسير السيارات من أبها إلى خميس مشيط فطريب فوادى تثليث فوادى حبونة حتى نجران ، كما اكتشف طريقا أخرى إلى ظهران كانت شديدة الوعورة بحيث إن السيارات اجتازتها بكل عناء .

والمواصلات التليفونية والتلغرافية مفقودة فى عسير، لكن فيها مركزا لاسلكيا هاما يصل بين عسير وسائر أنحاء المملكة العربية السعودية .

٣ — مدينة أبها

حينما اجتزنا وادى « مشيع » ورقينا الهضبة التى تفصل بينه و بين الحزوم التى قامت عليها مدينة « أبها » ، رأينا منظرا جميلا لمجموعة من القرى أو الحلل المنتشرة على ضفاف الوادى المتجه من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى والمشهور بوادى « خبيبى » أو وادى « أبها » . وتمثلت لنا المدينة الشهيرة فى التاريخ الحديث بوقائعها الحربية وحصارها الطويل عام ١٩١٠ وحصارها الأخير طوال مدة الحرب العامة ، وأوحت إلينا — فى الوقت نفسه — بشعور منبعث من القلب ممزوج بنفحة من الأسى والحزن على ما أصابها من تخريب وتدمير خلال النكبات التى حلّت بها ، ولمسنا الشاهد على ذلك فيما رأيناه من أطلال القلاع والأبراج المحيطة بها فى أعالى رءوس الجبال المحيطة بأبها وواديها إحاطة السوار بالمعصم .

« أبها » ، قاعدة عسير ، كانت مركزاً لحكم آل عائض وللإدارة العثمانية إلى حين زوالها . وهى مقرّ إمارة السراة فى عهد حكومة الملك عبد العزيز آل سعود وهى فضلاً عن ذلك سوق عسير الشهيرة التى تعقد يوم الثلاثاء من كل أسبوع فى ساحة متوسطة بين مجموعة القرى التى تتألف منها المدينة .

كان اسم أبها فى القديم « مناظر » ، ومناظر الآن حلّة من أحياء المدينة ، وقد تكون مناظر أصل البلدة القديمة ثم توسعت حدودها واستطالت رقعتها حتى شملت قرى أخرى لم تكن منها .

تتألف أبها فى وقتنا الحاضر من عدة قرى ممتدة على أطراف وادى أبها من أعلاه فى جهة الجنوب الغربى إلى مصبّه فى جهة الشمال الشرقى . وهذه أسماء القرى والأحياء اعتباراً من المنبع إلى المصب .

وقد أغفلنا قرية اسمها « العتربان » لأنها لاتحسب من أبها بالذات :

(١) المفتاحة ، فى علوّ الوادى إلى جهة الشرق منه .

(٢) القرى .

(٣) نمان .

(٤) الربوع وهى حلة كانت فيها سوق تعقد يوم الأربعاء فسميت بها .

(٥) شذا ، وفيها القصر الذى بناه محمد بن عائض حينما نقل مركز حكمه من ريدة إلى أبها ، وليس فيها — فى الواقع — سوى قصر ابن عائض وقصر الحكومة الذى بنى على أطلال الثكنة العسكرية العثمانية ، ومركز اللاسلكى .

(٦) مناظر ، وهى أصل المدينة كما أسلفنا .

(٧) البديع .

(٨) الخشع .

(٩) النصب .

(١٠) مقابل ، وهى القرية الوحيدة القائمة على الجانب الغربى للوادى . وقد كان فيها مسكن متصرف عسير سليمان شفيق باشا ثم محيي الدين باشا ، وكان يصلها بأبها جسر حديث قد تهدّم الآن وهُجر .

كانت أبها مدينة زاهية زاهرة بسبب كونها مركزاً للحكم العثمانى فى السراة ومقرّا للفرقة العسكرية ، ولكنها منيت بنكبات كثيرة ألحقت بها أفدح الضرر وأخرتها إلى الوراء سنين طويلة .

أما النكبة الأولى فقد أصابتها عام ١٩١٠ م — ١٣٢٨ هـ . حينما ثار السيد محمد على الإدريسى حاكم تهامة على حكم الدولة العثمانية وأنفذ ابن عمه السيد مصطفى الغربى الإدريسى لحصارها ، فشدد عليها الحصار حوالى ثمانية أشهر ، إلى أن وصلت النجدات من الحجاز بقيادة الشريف حسين أمير مكة لذلك العهد ، فإنه وصل إليها فى أواسط رجب ١٣٢٩ هـ

وكانت قوات الإدريسى محاصرة لها منذ ذى القعدة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م) . ومع أن الحصار دامَ طويلاً ، فقد اقتصر الأمر على الغلاء ، نتيجة فقد المواد الغذائية دون أن يلحق بالمدينة تدمير أو تخريب .

والنكبة الثانية أصابتها أيام الحرب الكبرى حين ظل محيي الدين باشا متصرفا لعسير بعد انتقاض الشريف حسين على الأتراك وانقطاع المواصلات بين عسير والبلاد العثمانية ، فعمل محيي الدين جهده لتخفيف ويلات الحرب والحصار المضروب عليه ، فعامل الناس بالحسنى وقرّب القلوب إليه ، فانضوى جميع أهل عسير تحت لوائه ، وكانوا عدّته فى الشدائد والأهوال التى مرّت به ، وقد أجرى لهم طائفة من الإصلاحات العمرانية و بنى فى البلاد قلاعا وأبراجاً كثيرة لتشغيل اليد العاملة ، غير أن نطاق الأعمال كان ضيقا ، والغلاء كان فاحشا .

والنكبة الثالثة وقعت عقب الحرب العامة وزوال الحكم العثمانى من البلاد ، حين هاجمها الأمير عبد العزيز بن مساعد بجند من متعصّبة الإخوان أيام كان الإخوان إبان اشتداد غلوائهم ، ففعلوا فى أبها الأفاعيل ، وخربوا كثيراً من معالم العمران . حتى لقد هدموا الأسبلة التى يستقى منها الناس بحجة أنها قباب . وهدموا بعض البيوت بدعوى أنها بيوت أخصامهم وهم فى حاجة إلى الحطب فاستعملوا خشبها وقوداً ، وكسروا آلات الخياطة لأنها من أعمال السحر ، وحطّموا المرايا الكبيرة لأنهم لم يعرفوها . وقد روى لى بعضهم فى هذا الشأن قصة طريفة ، وذلك أن والد مترك بن شفلوط من كبار قحطان دخل بيتاً كبيراً فتخيل أمامه رجلا يعترض طريقه ، فانتهره ، فأجابه ذلك بالمثل ، فرفع يده بسيفه ، فقابله بمثل حركته ، فما كان منه إلا أن أسرع الخطى نحو مبارزه ، وبادره بضربة تردد صداها فى سائر البيت ، واجتمع الناس على صوت مرآة تتحطم من ضربة سيف ابن شفلوط الذى تخيل خياله المنعكس فى المرآة عدوّا مبارزا .

والنكبة الرابعة والأخيرة وقعت عقب غزو الأمير فيصل نجل الملك عبد العزيز لأجل إنقاذ فهد العقيلى من الحصار . فقد ترك أبها بعد أن أمّر عليها رجلاً اسمه ابن عفيصان ، ثار عليه الحسن بن على بن عائض ، وحاصره فى قصر شذا مدة طويلة إلى أن وصلت النجدات من نجد وفكت الحصار عنه ، فما كان منه بعد فك الحصار إلا أن أدّب المجرمين وهدم منازلهم ، وكذلك فعل بالثكنات والقلاع

والأبراج المحيطة بأبها . وكانت هـذه النكبة ثالثة الأثافى التى أتت على كل آثار الحـكم العثمانى فى البلاد .

و بعد هذه النكبات المتوالية بدأت أبها بالانتعاش مرة أخرى . وقد ساعد على إنعاشها استتباب الأمن واستقرار الحكم من حين اتخاذها قاعدة لجيع الأعمال العسكرية فى تهامة واليمن . وكانت الجيوش تذهب وتجىء إليها وتترك فيها من النقود ما استعاد به أهلها ثراءهم و بعض ما فقدوه فى الفتن السابقة . حتى إن تعداد أبها قد بلغ إبّان اتخاذها قاعدة للأعمال العسكرية حوالى خمسة عشر ألفا عدا الجند والموظفين ، ولـكنه الآن لا يزيد على ثمانية آلاف .

قلنا إنّ أبها بليت بنـكبات كانت أولاها فى حصار الأدارسة لها عام ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م . وقد فطن الأتراك بعد ذلك إلى أن سبب ما أصاب سليمان شفيق كمالى باشا اعتماده فى الدفاع عنها على مواقع قريبة فيها ، بينما كان فى الإمكان تحصينها تحصينا قويا يساعد عليه موقعها الطبيعى والجبال والهضاب المرتفعة المحيطة بها من كل جانب ، فشمّروا بعدئذ عن ساعد الجد ، و بنوا حولها سلسلة من القلاع على رءوس الجبال وصلوا بينها بأبراج المراقبة والحصار الأولى ، فأصبحت من أحصن المدن . وكان من نتيجة ذلك أن ثبت فيها الأتراك مدافعين بل مهددين للإدريسى وللشريف طوال سنى الحرب .

والقلاع الرئيسية التى تحفظ أبها ثلاث :

(١) قلعة ضَلَع : وهى حاكمة على وادى ضلع ومدينة أبها ، بحيث لا تستطيع أية قوة أن تصعد من تهامة دون أن تتعرض لمدافع ورشاشات و بنادق المدافعين فى تلك القلعة .

(٢) قلعة ذِرَة : وهو جبل مرتفع يكاد يكون منفرداً عما سواه ، و يرى من أماكن بعيدة جداً . (ذكر لى المهندس أنه رآه من السودة على بعد ٢٠ كيلومترا) ، وهو إلى الشمال الشرقى من قلعة ضَلَع . وقد بنيت فوقه قلعة كبيرة تحتها أبنية محفورة

فى بطن الجبل . وقد استفادت الحكومة الحالية من هذه القلعة ، واتخذتها أول أمرها مركزاً للاسلكى .

(٣) قلعة شميسان : إلى الشمال من أبها ، تحرس الطريق العام القادم من عقبة شعار ومن عقبة الصماء .

وتوجد بين القلاع سلسلة من المخافر القوية المقامة على رءوس التلال لحراسة الطرق الموصلة إلى أبها وللدفاع عن القلاع أيضا . ويوجد بين ضَلَم وذرة جبل مرتفع اسمه « أبو خيال » بنى فوقه مخفر حصين لحراسة طريق القلمتين .

وقد وصل محى الدين باشا بين أبها والقلاع بطرق متعرجة فى أعلى الجبال وجعلها مزدوجة للذهاب والإياب ، وسيّر عليها المدافع والمركبات . وعلى الإجمال فإن أعظم عمل قامت به الحكومة العثمانية للدفاع عن أبها ، إنما قام به محيي الدين باشا الذى يذكره كثيرون إلى الآن .

ويستقى أهل أبها من الآبار المحفورة فى الوادى ، ماؤها عذب لذيذ ، وهواؤها نقى عليل . غير أنى لاحظت ثقل الجو نوعا فى أبها ، فإن الغريب يشعر بالتعب من أقل نشاط يبديه فيها ، وإذا رقى درجاً أو هضبة صغيرة أدركه التعب الشديد الذى يمكن تسميته (التفحيم) أى ضيق النفس واللهثة واشتداد ضربات القلب .

وأبها ، سوق عسير الدائمة ، وتعقد فيها سوق أسبوعية يجتمع فيها أهل القرى للبيع والشراء ، وأكثر من يفد إليها النساء وطالبوا الزواج . وسنذكر فى الفصل التالى طرفا من عادات أهل أبها الاجتماعية .

٤ — قرى « عسير »

يكاد يكون كل بطن من بطون عسير الأربعة مستقلا فى قراه وبلاده عن البطون الأخرى ، الأمر الذى يدلّ على تفاوت أصولهم . ومن القرى مالها شهرة خاصة بسبب اتخاذها مركزاً حكومياً فى وقت من الأوقات . مثال ذلك « طبب »

التي كانت مركزاً لحكم ربيعة ورفيدة (أي بلاد أبو نقطة) ، و « الشفا » التي كانت مركزاً لحكم آل يزيد ، و « ريدة » التي كانت مركزاً لحكم عائض بن مرعي ثم انتقل ابنه إلى أبها و بني « شذا » فكانت مركزه ، غير أن رديف باشا ومختار باشا أسرا محمد بن عائض في ريدة . و « حرملة » هي بلدة آل عائض أيضاً وهي التي هدمها الأمير فيصل بعد استيلائه على أبها بسبب فرار صاحبها الأمير حسن بن علي بن محمد ابن عائض . من أجل ذلك ، رأيت أن أذكر فيما يلي قرى كل بطن من عسير على حدتها :

أولاً : قرى بني مالك من عسير :

ا — قرى ربيعة :

(١) حجلة.
(٢) الغليض
(٣) لعصان .
(٤) آل جرجر .
(٥) آل بالنعمان .
(٦) عددان .

ب — قرى بني منبـه :

(١) العطف .
(٢) سبل ، وهي قرية لأمير بن مُعَدِّي شيخ بني مالك .
(٣) الجزعة .
(٤) الجنفور .

حـ — قرى آل يعلى :

(١) العين .
(٢) المحّالة العليا والسفلى
(٣) الجعجاعة .
(٤) اللصبة .

ء — قرى آل رميان :

(١) شوحط .
(٢) منادر العين .
(٣) آل سغور .
(٤) القعوة .

هـ — قرى التلادة :

(١) آل الثلفا .
(٢) آل جاهل .
(٣) مسلت .
(٤) صعبان .

و — قرى بنى رزام :

(١) سوق السبت .
(٢) القرايات .
(٣) الشعب .
(٤) الجاردة .
(٥) الملاحة .
(٦) القيَّة .

ز — قرى آل مجمل :

(١) صعرور .
(٢) حياد .
(٣) الأفلاج ، وهى آخر وادى الملاحة قبل التقائه بأتانة .
(٤) المطفات .

ح — قرى آل الحبشى :

(١) الخارجة .
(٢) العطفة .
(٣) آل أبى شوحطة .
(٤) قرين .
(٥) الفرسة .

ويبلغ عدد سكان هذه القرى نحو ١٥ ألف نسمة .

ثانياً : قرى بنى مغيد من عسير :

بنو مغيد مختلطون لم أتمكن من تمييز قراهم بحسب فروع البطن :

(١) هضبة بنى جِرّى .
(٢) آل منسم .
(٣) العمارات .
(٤) الحصن الأسفل .
(٥) الحصن الأعلى .
(٦) آل أبا الفلاح .
(٧) جوحان .
(٨) قاعد .
(٩) العرين .
(١٠) مشيع .
(١١) العزيزة وهى قريتان الحولة والسحيا .
(١٢) النصب .
(١٣) مدينة أبها وقد وردت تفاصيل قراها

(١٤) العثربان .
(١٥) العلاية .
(١٦) السحرة .
(١٧) آل زِبْدى .
(١٨) آل عكاش .
(١٩) آل الحاج .
(٢٠) آل العلا .
(٢١) آل الزنوة .
(٢٢) الشبارقة .
(٢٣) الهيلة .
(٢٤) القوزة .
(٢٥) آل مفرّح .
(٢٦) آل سكران
(٢٧) السقا وهى أربع قرى ، القرن والقعوة وآل تمام وآل فلاح
(٢٨) سعف آل ديمن .
(٢٩) اليزيدين .
(٣٠) سعف آل يزيد .
(٣١) آل القبيعى .
(٣٢) حرملة .
(٣٣) ريدة .
(٣٤) الضفعان .
(٣٥) ذا القيعى .
(٣٦) ليثوى .
(٣٧) حَبُو .
(٣٨) مسقام .
(٣٩) عَتْمة .

ثالثاً : قرى ربيعة ورُفَيْدَة :

ا — قرى ربيعة :

(١) المسقوى .
(٢) مصاولى .
(٣) تيهان .
(٤) النجمة .
(٥) الزهر .
(٦) الجو .
(٧) زينة .
(٨) الزهرة .
(٩) الرمدة .
(١٠) أم رهوة .
(١١) الدغل .

ب — قرى رفيدة :

(١) آل سعلى .
(٢) آل محمود .
(٣) شرمنى .
(٤) آل مجمل .
(٥) المسخية .
(٦) العطف .
(٧) طبب .
(٨) الطلحة .

(٩) القال .
(١٠) آل العدامى .
(١١) آل بجاد .
(١٢) آل القلمة .

حـ — ولربيعة ورفيدة فى تهامة :

(١) بعرور .
(٢) ناهية .
(٣) العقبة .
(٤) آل الذيب .
(٥) آل الخنيش .
(٦) آل السحر .
(٧) آل جحيش .
(٨) آل فضيلة .

رابعاً : قرى عَلْكَم من عسير :

(١) وادى البيح .
(٢) العين .
(٣) آل طرفة .
(٤) المغمر .
(٥) العطف .
(٦) غاوة .
(٧) المصنعة .
(٨) قرخة .
(٩) النجاد .
(١٠) القصير .
(١١) الوادى الطالع .
(١٢) أمّ شينة .
(١٣) السُّودة .
(١٤) السوق .
(١٥) الحصان .
(١٦) الذيبة .
(١٧) المخض .
(١٨) الباطنة .
(١٩) اليمانية .
(٢٠) آل يوسف .
(٢١) عضاضة .

ولعَلْكَم فى تهامة أربع قرى :

(١) آل النجيم .
(٢) لولاه .
(٣) خيمة .
(٤) حسوة .

ويرى ممّا ذكر أن بنى مغيد أكثر قرى وأعظم عدداً ، وهم « أبها » مركز المقاطعة ، ولذا فإن رياسة كافة عسير منهم .

الفصل الرابع

العادات الاجتماعية فى عسير

الزى — الطعام — اللهجة — مراسيم الزواج — الخرافات

١ — الزى

أول ما يلفت نظر الباحث فى الشئون الاجتماعية لقطر من الأقطار ، أزياء الأهلين ، وطبائعهم من حيث الرقة والجفاء ، وما إلى ذلك . أما فى عسير فمن حيث أزياء الرجال فإنها لا تختلف كثيراً عن أزياء بلاد شهران التى وصفناها فى القسم الأول . ومن حيث الطباع فإن أهل عسير رجالا ونساء يختلفون عن شهران ببعض المميزات التى قد تكون أثراً من آثار البيئة والإقليم ، فهم أرق طباعاً وأقرب إلى الاختلاط الأجنبى من أهل شهران ، وربما كان هذا ناشئاً عن جو بلادهم وكونهم اختلطوا بالغرباء أكثر من سواهم ، ويظهر أن اتخاذ أبها قاعدة لإدارة عسير وشهران هو الذى جعل أهلها أقرب إلى اقتباس عادات غيرهم وأقل تعصباً وجفاء من سواهم .

هذا ويمكن تقسيم عسير من حيث العادات الاجتماعية إلى قسمين : الأول ، أهل عسير الذين يقطنون الربى وسفوح الجبال الشرقية حتى بلاد شهران وقحطان . والثانى ، أهل عسير الذين يقطنون الربى والسفوح الغربية أى فى منقلب الجبال إلى جهة تهامة ، حتى إن الأهالى أنفسهم يسمون سكان هذا القسم « أهل تهامة » تمييزاً لهم عن الآخرين . فالقسم الأول أقرب إلى شهران وقحطان فى عاداته منه إلى أهل عسير المقيمين فى تهامة ، يظهر ذلك فى زيهم ولهجتهم وأحاديثهم بل فى طباعهم .

والعسيرى التهامى أقرب إلى رجال ألمع منه إلى بنى قومه ، لباسه سهل بسيط لا يشبه لباس ربيعة اليمن ولا لباس أهل أبها بل هو وسط بينهما . والنساء يلبسن فوق أثوابهن رداء كالفرو مصنوعاً من الجلود المدبوغة تربط أطرافه العليا حول العنق وتدلى بقيته على الظهر إلى مافوق الكاهل . وهذا الرداء على نوعين :

الأول : « المَزَرّ » أو « المزار » ، وهو عبارة عن مجموعة من جلود الحملان تدبغ ويخرز بعضها ببعض بسبت ذى لون يختلف عن لون الجلد ، ويحيط بهذه المجموعة (كنار) من لون السبت ، وغالباً ما يكون أحمر . وطريقة لبسه أن يكون مقلوباً ، فالشعر من الباطن والجلد من الظاهر ، ليكون الجلد وقاء من المطر لايخترقه الماء كالمشمّع ، وليكون الشعر وجاء من البرد فى الشتاء

والثانى : « النطع » أو « المقصر » وهو عبارة عن ثلث المجموعة الأولى من الجلود المدبوغة اللينة الكثة الشعر ، وهو أقل عرضاً من الأول لا يستر إلا بعض الظهر .

أما غطاء الرأس فإن نساء تهامة يستعملن (الطَفَشَة) وهى قبعة من الخوص عريضة (الكنار) غير بارزة الوسط . وأما نساء الجبال فإنهن يستعملن الخمار يضعنه على رءوسهن ، وتلبس الأبكار نوعاً من القبعات المصنوعة من القماش على شكل مثلث مفتوح القاعدة كى تدخل فى الرأس وتستقر عليه ، وقد يوضع خمار أو نقاب فوق هذه القبعة .

وقد جمعت معلومات وافية عن الملابس وأدوات الزينة التى يستعملها الرجال والنساء أذكر بعضها فيما يلى :

١ — (النّسْعة) ، وهى حبل من الجلد المجدول كالضفيرة ، تستعملها النساء كالحزام ، تنتهى عند أحد طرفيها كتلة من أطراف شرائح الجلد بينها ملقط صغير لالتقاط الشوك ومنكاش ومرود ، وهى أعم بين البادية .

٢ — (السبتة) ، وهى حزام من الجلد المنقوش المخروز ، تنتطق بها النساء فوق أثوابهن ، وهى كالنسعة إلا أنها أقصر وأسمك ، وهى أعم بين الحاضرة .

٣ — (المكفة) ، وهى قطعة من الجلد مصنوعة على شكل إكليل تضعه النساء على رءوسهن لمسك الشعر أو لتثبيت الخمار فوق الرأس .

٤ — (إكليل) محبوك من الخصف والأعشاب البرية العطرية مثل الشيح والبُرْك والريحان والوزاب ، وظيفته إمساك الشعر عن أن تلعب به الريح . وللرجال إكليل خاص يختلف عن أكاليل النساء فى الشكل ، يستعمله — على الأخص — رجال تهامة الذين يطلقون شعورهم كالنساء ولا يلبسون فوق الرأس شيئاً سواه .

٥ — (الشملة) ، وهى عباءة من صوف الغنم قصيرة جداً ، تطرح على الكتفين ، ولكنها صلبة لاتتهدل عليهما ، وهى لباس الأغنياء والأعيان ، تقوم أيام الشتاء مقام (المقمر) والنطع عند البادية .

٢ — الطعام

البرّ والسمن ، هما الطعام الوطنى الرئيسى فى عسير وقحطان وشهران ، فلا يعلو عليهما طعام . أليس البرّ من أهم منتجات عسير الزراعية ؟ أليس السمن من نتاج أغنام عسير وأبقارها ؟ البرّ والسمن : تاج المحصولات وعماد الطعام وقوام المعيشة . أمّا ماعدا ذلك فثانوى أو كمالى . فاللحم مقامه فى الأعياد والمواسم والضيافات القليلة المحدودة ، والفاكهة والخضر وجودها مثل عدمها ، والحمد لله على كل حال . وطريقة صنع الطعام بدائية هيّنة ليّنة لا دخل فيها لفنّ الطهو . اللحم مسلوق وكفى ، والبرّ للخبز والعريكة ، والسمن يسقى به الاثنان .

وصفنا فيما مضى طعام العريكة وهو أعم الأطعمة وأعظمها شأنا . يعصد الدقيق فوق النار بالماء الساخن حتى ينضج ، ثمّ يصبّ فى قصعة أو جفنة متعنجرة أو غير متعنجرة ، والحفرة فى وسطها تستوعب كميّة من السمن السائح . و إليكم أيها الضيوف

ما عندنا من الطعام الحلال . كلوا هنيئاً ، واشربوا الماء القراح أو اللبن الحامض مخيضا أو رائبا .

أرسلنا فى مشترى الحليب فقيل لنا : « عار أن يبيع الأهالى الحليب » عار وأى عار ! إذن لابد من غنيات أو أبقار نستدر لبنها . يحيا عصر الرعاة ، وتحيا الصراحة والحرية .

ويصنع من دقيق القمح عدا العريكة نوع من الخبز السمج يشوى على النار فى الطابون أو فى إناء ، ثم يصب عليه السمن والعسل . وهـذا القرص من أشهى المآكل وألذها .

أمّا اللحم فهاكه سليقاً ناضجاً مقطّماً إربا إربا متناسبة بقدر الأقة أو دونها ، وهاك المرق فى قصعة ، وهاك قطع اللحم منثورة على مائدة تبسط على الأرض من جلود الغنم المجفّفة بالشمس . قصعة المرق تتوسط الدائرة ، تحيط بها أرغفة الخبز الساخن ، تتخللها قطع اللحم ، وقد تحتل قصعة العريكة مكان قصعة المرق ، وهى سيدة الطعام ، كلوا واشربوا هنيئاً مريئاً . أمّا قطع اللحم الممتازة كالـكتف والفتيلة وسواها من أطايب اللحم فإن المضيف يوزّعها بنفسه على الضيوف بادئاً بالأول قائلا : « الزم » فيتناولها الضيف قائلا : « تسلم » إلى أن يدير قطع اللحم على الحـاضرين ، وإن بقى شىء منها بعد ذلك يوزع على من لم يحضر الدعوة من الأهل : هاكم الرأس وهاكم الـكوارع وهاكم الأضلاع وهاكم الدهن وهاكم المطط . لـكلٍّ قسم بحسب مقامه فى الهيئة الاجتماعية . . الطيبات للطيبين ، والـكبيرة للـكبير .

ومن المناظر المألوفة أن يأتى المضيف إلى جفنة العريكة ، فيقتطع منها قطعة يكورها بين أصابعه كلقمة كبيرة لا يزدردها إلا الجائع النهم ، ويصنع منها إناء يشبه الملعقة أو بالأحرى أذن الذئب ، يغترف بها من السمن ويقدمها للضيف . وإذا كان الضيف عزيزا لا يكتفى المضيف بلقمة واحدة — وطوبى لمن يطيق ازدراد هذه الـكتلة الهائلة من العريكة والسمن . لـكنهـا هى العادات وهو الإكرام وهو حسن الضيافة .



أحدث القصبات فى بلدة حجلة فى عسير . وهى عامة فى عسير ونجران



نساء بدويات فى سوق « أبها » وهن لابسات قبعات عريضة



قصر شـــذا فى « أبها »

٣ — اللهجة

أم التعريف : حضرت أوّل سوق أسبوعية عقدت فى أبها عقب وصولى إليها، وتحوّلت فى أرجائهـا مستعرضا من فيها ، سائلا منقبا عن أحوالهم ، فما كان أشدّ عجبى حينما سألت أحدهم عن المكان الذى جاء منه فأجابنى : من « أمستى » ، قلت : « ومن أنت » ؟ فأجاب : « محمد امناصر » وحينما تـكررت الأحاديث بينى و بين كثيرين من أهل عسير أدركت أنهم يعرفون الأسماء بـ « أم » بدل « ال » . والتعريف بأم من لهجات العرب كما ورد فى الحديث (ليس من امبر امصيام فى امسفر) أى (ليس من البر الصيام فى السفر) . وشرعت أستقى المعلومات عن الجهات التى تعرّف بأم ، فعلمت أن التعريف بها قاعدة عامة عند الكثيرين منهم . وتبادر إلى ذهنى ما كنت أسمعه عن قبيلة مهمة بجوار جيزان اسمها قبيلة « امحمد » ، فإذا بها قبيلة « الحمد » عرّف اسمها بأم . وحضرت عرضة قام بها أفراد قبيلة رجال ألمع المرسلين إلى ساحة الحرب مستبدلين برفاق لهم ، فسمعتهم ينشدون :

علموا قحطان مع جمع امشارق[١] يحفظون امحد[٢] لا حيا بفارق
حتى يجون امعى[٣]

ياعسير امهول ما هذى امقضيه[٤] ودّنا نجران نهب له سريه
علموا ولد أمأمام[٥] لابد من صنعا ونحرق قصوره

قلب النون راء : طلبت من أمير عسير أن يرسل إلى منزلى بعض كبارهم للسؤال عن أحوالهم ، فجاءنى الشيخ زائد ، وأدلى إلىّ بمعلومات نفيسة عن حالة قبيلته وقراها وأوديتها وأودية تهامة إجمالا . وقد عجبت من اصطلاح ذكره أمامى ، فسألته عنه ، فأوضح لى غامضه . كان يملى علىّ القرى والشعبان التى تصب فى وادى حَلِى ، فإذا به يذكر أمامى أن الوادى ينتهى فى حلى « بر يعقوب » فاستغربت التركيب ، ولما سألته عن بعض مشاهير القبيلة كان يذكر اسم الشخص ثم يردفه بكلمة « بر »

(١ — ٥) أل بدل أم .

ثم يذكر اسم الوالد ، فتبادر إلى ذهنى أن أسأله عن اسم والدته ، فسمعت عجبا ، قال حفظه الله : « أنا زايد بر غراره وأمى فاطمة ابرة محمد »

قلب الجيم ياء : ورجال ألمع وأهل عسير يقلبون أحيانا الجيم ياء ، فيقول أحدهم : « صليت فى المسيد » يعنى فى المسجد ، و «رأيت الريال» أى الرجال . لقد ذكرتنى لهجة أهل عسير فى قلب الأحرف بواقعة جرت لى ولبعض الرفاق فى قرية « شقرا » من قرى بنى سفيان بجوار الطائف حيث ذهبنا للنزهة ، فسألنا أحد أهلها عن الوقت وكان قريب الظهر ، فقال : « فات اللهر » ، قلب الظاء لاما ، وكان مخاطبنا يقلب الظاء والضاد لاما فى جميع الكلمات التى وردت على لسانه فى حديثنا معه .

الكشكشة أو البشبشة : لاحظت فى أهل التهم ظاهرة أخرى هى الكشكشة أو البشبشة . وقد لقيت صعوبة جمّة فى فهم كثير من أحاديثهم بسبب ذلك . وهى لهجة ممجوجة لا سيا بين النساء ، وقد حاولت كثيراً أن أفهم حديثهن فلم أفلح . ولهن فى الحديث لهجة خاصة يستعملن فيه الألفاظ الغريبة بسرعة فائقة . وكثير من الأسماء والأفعال غريب على سماعى وطريقة التلفظ به أغرب .

ثمّ بمعنى هنالك : ومن ألطف اصطلاحاتهم وأخفها على السمع كلمة « ثمّ » بمعنى هنا لك ، إذ يتلفظون بها على البديهة دون أى تكلف ، يخاطبك بها الرجل والمرأة والغلام على السواء : « سرنا من امسقى وثمّ أو من ثمّ يطلع أموادى » (سرنا من السَّقِى ومن هنالك يطلع الوادى) .

الجمل المعترضة : لا أودّ إتعاب القارئ بما دوّنته من الاصطلاحات المركبة فأكتفى ببعضها . يغلب على أهل هذه البلاد إدخال جملة معترضة أثناء الحديث بقصد الدعاء والثناء والمديح على غرار :

إن الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

يكون مخاطبك مسترسلا فى الحديث وإذا به يزّح بالجملة المعترضة : «إيه ونا فداك» « إيه واللى يسلمك » . وقد تبلغ به المحبّة أن يقول لك لزيادة التأكيد : « ربّى يأخذنى قبلك » ، أو « ربى يديمك ويبقيك » وكثيراً غير هذا .

ولا شك فى أن دراسة اللهجات العامية فى سائر البلاد العربية من المسائل الهامة جداً ، ولكننى واثق من أن دراسة اللجهات المحلية فى عسير وتهامة وأطراف اليمن من أكثر الدراسات نفعا لمعرفة الفوارق والعوامل فى لغتنا العربية . وإنى لأرجو أن يوفق الله إلى إتمام مثل هذا البحث .

٤ — مراسم الزواج

يوشك السفور أن يكونَ عاما فى القرى وبين البادية فى جميع أنحاء عسير وشهران وقحطان ، والاختلاط بين الجنسين عامّ خلا نساء الأمراء والأعيان فإنهن لا يمتزجن إلّا بأقاربهن الأدنين ، ولا شك فى أن الاختلاط بالغرباء يسبّب مشاكل شتى ، ولذلك فإن الحكومة الحاضرة عملت جهدها للقضاء على هذه العادة دفعا لمضارها واتقاء لمفاسدها ، غير أن ما عمل فى هذا الباب لا يزال دون الغاية المطلوبة .

عجبت باديء الأمر من هذا الاختلاط ومن رفع الكلفة بين الجنسين ، ولكنّى أدركت أنّ نساء هذه البلاد قد اعتدن عدم الاحتراز من مخالطة الغرباء بفضل الزمن والعادات المتوارثة ، ولا يرين فى ذلك بأسا ، متمثّلات بقول الشاعر :

بيض حرائر ماهمن بريبة ويصدهّن عن الخنا الإسلام

أعتقد أن هذه البلاد قد منيت بقحط فى الرجال ، وكان من جراء ذلك أن رخص الزواج ، وجرى فيه تساهل عظيم مع الغرباء عن القبيلة ومع غير الكفء . وقد لاحظت أنواعاً من الزواج كانت المساومة فيه أساساً له وكان المال سبباً لإتمامه ولم يستنكف أهل هذه البلاد عن تزويج بناتهم من الجنود برغم علمهم بقصر مدة إقامتهم بين ظهرانيهم . وهذا التساهل فى اختيار الأزواج أو بالأحرى فى بيع النساء للرجال بثمن بخس دراهم معدودة قد لفت نظرى إلى هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة التى أرجو أن يكون الباعث عليها الحرب وضروراتها ، وأن تكون الأسباب التى أوجدتها قد زالت الآن .

كنت أعجب أول وصولى إلى عسير من كثرة الأحاديث عن الزواج الذى لا يخلو منه مجلس ، ولكن عجبى أخذ فى التضاؤل بمرور الزمن حتى أصبحت لا أرى

غضاضة فى طرق الموضوع فى أية مناسبة . وزعم بعض محدثىّ أن الزواج بين أفراد القبيلة لاسيا بين أبناء العم رخيص جداً ، فالمهر لايتجاوز غالباً خمسة عشر ريالا فرنسيا (١٢٠ قرشاً مصرياً) ، غير أن الذى يدفع منه بالفعل خمسة ريالات فقط ، إذ العادة فى هذه المهور أن تجعل ثلاثة أقسام ، الثلث الأول يدفع نقداً والثلث الثانى ينزل عنه ولى أمر العروس مقابل الضيافة التى يقدمها للعريس ، والثلث الباقى هدية .

أما فى وقت وجودنا بأبها فقد أخبرونا بأن سوق المهور قد ارتفعت جداً بالنسبة للأغراب الراغبين فى الزواج . وقد حدث أن بعض كبار الجند قد أبلغ المهر إلى ٥٠٠ ريال نقداً ، وهذا أمر لم تعهده نساء تلك البلاد ، فكان الإقبال على الزواج عظيما من الجانبين .

واختيار العروس ـ لاسيا القرويات والبدويات ـ يقع فى أحد مكانين : السوق أو البئر ، وما على الراغب فى الزواج إلا أن يرتدى أحسن ثيابه يوم السوق ، ويشرع فى ذرعه ذهاباً وجيئة ، إلى أن يقع نظره على فتاة تعجبه ، فيتقدم إليها خاطباً باللغة المعلومة : « أنا ميدك » و « أنا ميد » و « أنا ليس ميد » . ويستدل على ولىّ الفتاة وتتم الخطبة فى نهار واحد ، وهاك المهر ، وهاك الضيفة وهاك الشرهة ، وهاك الأستاذ مأذون الزواج : بسم الله الرحمن الرحيم ، سبحان من حلل النكاح وحرم السفاح ، مبارك يا عريس .

وقد بلغ التنافس على العرائس أشده أيام كنا فى أبها ، فعوضاً عن استعراض الفتيات فى السوق بدأ الراغبون فى الزواج فى تصيدهن من بعيد فى طريقهن إلى السوق قبل وصولهن إليه ، حتى لايزاحمهم مزاحم أو ينافسهم منافس . الزواج سهل ، والطلاق ميسور ، إما وفاق و إما فراق ، وكان الله يحب المحسنين

أما البئر فإنها جامعة فتيات الحى أو القرية ، يقصدنها حاملات القرب على ظهورهن ، إذ أن السقاية وحمل الحطب والكلأ من مهمات النساء الماهرات فى الحمل على الظهور ، والسقاية من البئر بالسلاسل ، وقد تطول عملية رفع الماء بالدلاء ، وهذه فرصة حسنة للحديث فيما بينهن أو مع الشبان الراغبين فى الزواج . يحصل التعارف

والاتفاق الضمنى على البئر ، ثم يعقب ذلك إجراءات الخطبة الرسمية فى البيت . وفيما يلى طرف مما شاهدته من هذه الإجراءات والعادات :

حضرت حفلتين من حفلات عقد الزواج كان العريس فى كلتيهما من أصدقائى وكانت المراسم فيهما واحدة تقريباً مع بعض الاختـلاف فى الفروع والهوامش لا فى الأسس والقواعد . ركبنا من أبها فى سيارتين إلى قرية مجاورة واقعة فى جهتها الشمالية اسمها «رِضْف» حيث العروس وأهلها ، ولما اقتربنا من بيوت القرية أخذ رفاقنا يطلقون الرصاص من البنادق والمسدسات ، وكان المنتظر أن يقابلنا أهل القرية بالمثل غير أنهم بخلوا بالخرطوش فلم يطلقوا طلقة واحدة ، وإنما قابلونا صفاً طويلا محيين مرحبين ، ثم دعونا إلى بيت تناولنا فيه القهوة . وكان علينا أن ننتظر نتيجة المساومة على توزيع مهر العروس بين والدتها وأخيها وعمّها الذى هو وليها . كان المهر مائة ريال نقداً لم يتمكن الوسيط من توزيعه على وجه يرضى الجميع إلا بعد مناقشات ومحاورات كثيرة . وقدم العريس علاوة على النقد هدية من السكر والشاى والقهوة والهيل ، كما قدم الجهاز المؤلف من ثلاثة أثواب كاملة أحدها من الحرير ، ولم يكن فى الجهاز مصاغ قط . وبعد إتمام هذه الإجراءات دعى المأذون بإجراء العقد ، فقرأ ما تيسر من كلام الله ، ثم أجرى العقد بين ولى أمر العروس وبين العريس شفهياً دون أن يكتب صك بذلك كما هو متبع فى أكثر البلاد ، وبذلك انتهت المراسم وتم عقد الزواج . ثم دعينا إلى تناول طعام الضيافة ، وكان يتألف من كبش مسلوق وأرز مفلفل — وهذا من النوادر — ومرق وعريكة وخبز ، وباركنا للعروسين وتمنينا لهما السعادة والهناء .

أما مراسم الحفلة الثانية فلم تختلف عن الأولى إلا بتبادل إطلاق الرصاص من الجانبين ، وبعدم مشاهدتنا مساومات المهر وتوزيعه ، كما أننا لم نشاهد توزيع قطع اللحم كما جرى فى الحفلة الأولى .

أبناء عم العروس أولى بها من الغرباء ، ولهم عليها حق الأفضلية ، ولذا يجب التثبت من عدم معارضتهم فى الزواج أو إرضاؤهم للتخلى عنه قبل إتمامه .

ويروى البسطاء من أهل البلاد حكايات طريفة عن الخرافات المتسلطة على أذهانهم ، إذ يعتقدون بقدرة أهل العروس على الحيلولة دون وصول العريس إلى عروسه . وطريقة ذلك أن يعقدوا للعريس عقدة تعجزه عن بلوغ مراده من زوجته ، ولهم فى ذلك طرق عديدة يتوسلون بها ويؤمنون بفائدتها للوصول إلى النتيجة المطلوبة على زعمهم . وفيما يلى بعض الوسائل التى يتوسل بها أهل العروس وأبناء عمومتها للحيلولة بين العريس وعروسه إن لم يكونوا راضين عن الزواج ، وذلك حين إجراء المأذون لمراسم العقد .

١ — عقد خيط أو شريط أو طرف الفترة أو الثوب .

٢ — خلع الخاتم من الإصبع ثمّ إعادة لبسه رويدا رويدا كلّما قرأ المأذون جملة أو آية .

٣ — سلّ الجنبيّة من غمدها ثمّ إعادتها إليه أثناء قيام المأذون بعمله دون أن يلحظ أحد ذلك .

٤ — قلب النعال حين إجراء العقد .

٥ — عقد بعض شعرات من صوف ذبيحة العروس حين إجراء العقد .

٦ — عقد مصران الذبيحة .

٧ — غمس مسمار فى دم الذبيحة ودقّه فى الأرض .

٨ — خلط مرق الذبيحة بماء حين إجراء العقد .

هذه أشهر الطرق . وهنالك طرق أخرى غيرها . وممّا يوجب الأسف أن هذه الخرافات تجرى من القوم مجرى الدم ، ولها فى نفوسهم أثر عظيم ، ولذلك فإن أهل العريس يكونون يقظين منتبهين حين إجراء العقد ، لئلا يحدث شىء من ذلك .

وممّا يجدر بى تسجيله هنا — على سبيل الفكاهة — واقعة حدثت لرفيقنا الذى كان دائما مصدر السلوى والتفكهة : « كنعان أفندى » . كنا نمازح كنعان ونرغّبه فى الزواج ونشجعه عليه ، ومن المعلوم أنّه أعزب . وكنّا كلما خرج بمفرده من المنزل نسأله بعد عودته عمّا إذا كان قد وفّق إلى العثور على فتاة موافقة ، وتعهدنا بمساعدته بالمهر

وحفلة العرس ، فطلب منّا تدبير المساعدة المالية من الأمير سعود أولا ، فأن دبّرت فإنه لا يمانع فى الزواج . وقد كلّف فعلا أحد أصدقائه بالبحث عن فتاة مناسبة ، ووفق الصديق فى مهمته وأرشده إلى فتاة فى السادسة عشرة من العمر ، غير أنّ كنعان كان قد تسلّم المساعدة المالية فاعتبرها فتاة أحلامه وعدل عن الزواج وأخبر صديقه بالعدول عن الخطبة !

ومن غريب المصادفات أن الأمير تركى السديرى أمير عسير كان معى فى المنزل وقت الغذاء ، وخرج إلى دار الحكومة ، وما عتم أن أرسل إلىّ رسالة يخبرنى فيها بأن حديث كنعان معنا عن عدم زواجه خرافة ، وأنه لعب علينا بزواجه خفية عنّا . ونظرا لمعرفتى الوثيقة بأن كنعان لم يتزوج ، لم أصدق الخبر بالطبع ، غير أنّى اغتنمتها فرصة للتفكهة بممازحة كنعان وتشويش أفكاره والتهويل فى أمره .

أخبرت كنعان بأن أهل البنت قد شكوا للأمير نكثه وعدوله عن الزواج دون أن يسلّم المهر ، وأنّ الأمير لم يشأ اتخاذ الإجراءات ضدّه قبل مشاورتى والاتفاق معى على حلّ الموضوع صلحا ، وعليه دفع المائة ريال قيمة المهر وإلّا اضطر الأمير إلى النظر فى الشكوى بصورة قانونية .

حينما أعود بذاكرتى إلى منظر كنعان ساعة إخباره بذلك الخبر ، تستفزّنى عوامل الضحك والاغتباط من موقف كنعان الحرج واعتباطه وقلقه . يالها من ساعة عصيبة وكارثة مؤلمة ألمّت به . لم نترك وسيلة من وسائل الاستفزاز والتهويش والمشاكسة إلاّ اتخذناها ، فازداد الكرب به ، وضاقت به الحيل ، فتركنا غاضبا من إهمالنا له وعدم مبالاتنا به فى ساعة شدّته ، وذهب إلى السوق متفرّجا عسى أن يطرح همومه وينسى آلامه ، غير أنّه عاد إلينا بعد ساعة تبدو عليه الآلام النفسية من هذه الورطة ، ولم يطق صبرا بين الرفاق ، فأخذ بندقيتى واعتزم الخروج للصيد على حدّ قوله ، فخفنا أن يؤدى به الأمر إلى الانتحار ، فأطلعناه على الحقيقة بين قهقهة الرفاق وتصفيقهم الحاد للعريس الخيالى الجبار !

٥ — الخرافات

تنتشر فى هذه البلاد عقائد خرافيّة تجرى من نفوس أهلها مجرى الدم ، ولها أثر شديد فى تكييف أمزجتهم ، فأكثرهم يعتقد بالسحر والتنجيم وكتابة الحجب والطلاسم ، الأمر الذى يجد المشعوذون معه سوقا رائجة لشعوذاتهم وأباطيلهم ، ويتوسلون بذلك لسلب البسطاء أموالهم أو لسلب أموال النساء الجاهلات . نعم إنّ نشر قواعد التوحيد منذ تأسيس الحكومة الحاضرة قضى على كثير من هذه الخرافات والأوهام الباطلة ، غير أنّه لم يقض عليها قضاء مبرما .

لا شك فى أنّ اعتقاد البسطاء فى قدرة بعضهم على منع العريس من مساس عروسه بواسطة عقد العُقد ضرب من الأوهام والخرافات .

وتخريف أيضا اعتقادهم السائد فى قبر « ذى القرنين » الواقع على ملتقى واديى جوحان وأبها ، وهو القبر الذى هدمه الإخوان أيّام الفتح الأولى .

وكذلك من الخرافات الاعتقاد السائد بينهم بشأن الكهف المجاور لجبل « تمنية » ، يزعمون أنّ فيه ثلاث جثث كبيرة لأناسىّ ماتوا منذ قرون غير أنّ أجسادهم تجمّدت وظلّت على حالها ، وأن كل من رأى هذه الجثث أصيب بشىء لا يستطيعون أن يقروه أخير هو أم شرّ .

ولكن أعجب ماروى لى من عقائدهم الخرافية اعتقادهم بما يفعله أهل داخل اليمن من استنطاق الموتى الذين يقتلون غيلة ، وزعمهم بأن فى إمكانهم معرفة القاتل وتطبيق الجزاء عليه بهذه الطريقة . وحبّذا لو كانت هذه الخرافة حقيقة ، إذن لتمكن قضاة التحقيق من كشف أسرار الجرائم والضرب على أيدى الجناة والمجرمين ، ولكنها خرافة لها أثرها العظيم فى أوهام الناس .

إذا اغتيل إنسان وأريد معرفة قاتله ، قام أهل القتيل بمعونة بعض السحرة والكهان إلى سلم فربطوا القتيل إليه عرضا ، وحملوه إلى مكان بعيد بين الجبال حيث لا يسمع نباح الكلاب ولا الأصوات المزعجة ، وعلّقوا السلّم على شجرة ،

ثم عمدوا إلى حفرة فى الأرض تتسع لجلوس شخص واحد فوضعوا فوقها صخرة كبيرة بحيث تغطيها إلاّ فتحة صغيرة مواجهة لوجه القتيل المعلّق على السلّم المربوط إلى الشجرة. وينصرف رفاق المختبىء فى الحفرة إلى مكان منعزل لايُشاهَدون منه . فإذا جنّ الليل أنصت المختبئ فى الحفرة وحدق فى وجه القتيل منتظراً وقوع الأعجوبة ، وإذا بطير كبير يشبه النسر ينحط من السماء على عالى الشجرة مقابل الميت ، ثم تبدأ عملية الاستجواب والاستنطاق .

يتكلم النسر مشيرا إلى الميت طالباً منه أن يخبره باسمه واسم عائلته ، وربما سأله عن عمره برغم أن هؤلاء البسطاء لايؤرخون أعمارهم ولا توجد فى ديارهم مصالح إحصاء ولا دوائر تسجيل النفوس — فيفتح القتيل فاه ويجيب عن أسئلة النسر واحدا واحدا ، ويطلعه على اسم القاتل ومكان القتل وكيفيته وغير ذلك من التفاصيل .

وقد يكون النسر محباً للاطلاع راغباً فى كشف أسرار الموتى وأفعالهم فى الحياة الدنيا ، فيتمادى فى السؤال والميت يجيبه على أسئلته حتى يتطرق إلى الخصوصيات المحضة ، فيصيح المختبىء فى الحفرة بالنسر أن كفى ولا لزوم لكشف أسرار الموتى ، فيغضب النسر من هذا الطفيلى ويثور عليه ، وينقض على الحفرة للانتقام منه وتمزيقه بمخالبه القوية ومنقاره المحدّد ، فيصيح الرجل المختبئ مستغيثاً ، ويقبل عليه رفاقه لإنقاذه ، فيضعف النسر أمام الكثرة التى تغلب الشجاعة ، فيفر لساعته ، ويسارع الرجال إلى رفع الصخرة عن فوهة الحفرة لإنقاذ رفيقهم ، وينظرون فإذا الميت على حاله لايتكلم ولا يتحرك .

بهذه الوسيلة يكشف أهل اليمن أسرار الموتى وطريقة اغتيالهم للانتقام من القاتل . إلا أن المثل السائر يقول : « لكل شيء آفة من جنسه » و « لكل داء دواء » . فالقاتل الذى يعلم أن تلك الوسيلة قد تفشى سره ، لايستبعد أن يعمد إلى قطع لسان القتيل وشفتيه ، فيصبح عاجزا عن النطق حينما يستجوبه النسر ، ويقضى بذلك على آمال أهل القتيل فى الوقوف على السر .

الفصل الخامس

بلاد وادعة وقحطان

وادعة ظهران ، قراها وأوديتها — نسب قحطان وأقسامها — قرى قحطان — وادى تثليث

١ — وادعة ظهران ، قراها وأوديتها

كنت أعتقد قبل رحلتى إلى عسير أن قبيلة وادعة تؤلف قسما من أقسام قبيلة قحطان ، وهذه العقيدة هى التى جعلتنى أذكر وادعة ضمن أقسام قحطان فى كتابى « قلب جزيرة العرب »[1] . وحينما تقابلت مع كبار وادعة فى خميس مشيط علمت منهم أنهم من نسل همدان بن زيد ، وأن أقاربهم وأبناء عمومتهم ، هم اليامية أهل نجران وحبونة وذوو محمد وذوو حسين وَدَهْم ، حالة كون قحطان ينسبون إلى عامر بن الحَلف بن قضاعة ، وهم أقرب إلى خَوْلَان بن عامر (بنو جماعة ومنبه وكثيرون من غيرهم) منهم إلى وادعة

تقع بلاد ظهران فى منتهى حدود المملكة العربية السعودية المتاخمة لليمن ، وتبعد عن خميس مشيط بطريق السيارات ٢٢٦ كيلومتراً ، وهى بلاد جبلية ذات أودية كثيرة خصبة ، يحدها من الجنوب بلاد سحار الشام والفاصل بينهما « رأس عِلْبَيْن » يقابله فى حدود اليمن « عقبة الشُّطْبة » التى كانت مدخل الجند إلى اليمن بقيادة ولى العهد ، ويحدّها عن بلاد بنى جماعة « يَبَاد » و « الصخيرة » وهما بجوار « وادى الحاجر » ويحدّها من جهة الغرب أى من جهة تهامة جبل « آل مخطيْ » و « الْمُسَنَّى » . وأما من جهة الشرق فإن بلاد « يام » متصلة بها ، وأقرب القرى إليها بلدة « بدر » مركز المكارمة ، وبين بدر وظهران مسافة ست ساعات يقع فى منتصفها ربع يسمى « رَهْوَة الْمَقْصَم » .

---

(١) ص ١٨٩ .

إن سكنى قبيلة صغيرة كوادعة فى منعزل عن أبناء عمها من همدان بن زيد، أمر لا يمكن تفسيره بالوقائع التاريخية الثابتة، وليس لذلك مثيل إلا وجود قرية يَباد التابعة لسحار بين ظهران وبلاد بنى جماعة من خولان، ومع ذلك فقد استقرت هذه القبيلة واستقلّت به وخالطت قحطان بن عامر واختلطت أنسابهما، مما دعا كثيرين إلى الظن بأنهما قبيلة واحدة.

وتقسم القبيلة إلى قسمين: «آل حَيَّان» و «وادعة»، ولكن الأهالى يقسمون القبيلة بحسب القرى التى يقطنونها، وهذه أسماء قرى القبيلة وأوديتها:

١ — وادى الحاجر: ينبع بالقرب من وادى النشور فى بلاد سحار باليمن. ويتجه إلى الشرق حيث يصب فى وادى هداده الذى يصب بدوره فى وادى حبونة.

٢ — وادى قتام: ينبع ما بين علبين والشطبة، وهى الحد الفاصل بين اليمن والمملكة العربية السعودية، ثم يصب فى وادى الحاجر، ويجتمعان فى «المجزعة» ثم فى هداده.

وفى هذا الوادى خمس قرى هى اعتباراً من علوّه إلى مصبّه:

(١) الحنكة　　(٣) الوساطة　　(٥) المجزعة
(٢) الصمدة　　(٤) الشحق

٣ — وادى العرين: يبدأ فى «عراعر» التى توالى تهامة من جهة الغرب، ويصب فى المجزعة، وفيه من القرى ما يأتى:

(١) عراعر　　(٤) بلدة ظهران
(٢) آل عبيد الله　　(٥) آل المونس
(٣) الحصن　　(٦) التبضة

وجميع الأودية المذكورة تصب فى القرن والخانق فى أعلى وادى حبونة.

٤ — وادى الفيل : يبدأ من قرية الأرنب ، ويصب فى القرن فى أعلى حبونة وفيه من القرى :

(١) الأرنب
(٢) الشعب
(٣) المعلف
(٤) آل كعبان وهم كبار وادعة
(٥) ملحة

٥ — وادى طلحة : وهو واد صغير يدفع مياهه فى طرف « الذراع » وهى قرية يعلوها « سيل الحمرة » ، وليس فى الوادى سواها .

٦ — وادى رشاد : وأوله قرية « آل جزقة » ، وتليها قرية « آل يعلى » ، ويصب فى « القرن » ثم فى حبونة .

هذه الأودية الستة هى أصل وادى حبونة ، أحد الأودية الستة التى ذكرنا أنها تصفّى السطح الشرقى المائل لبلاد السراة ضمن المملكة العربية السعودية . ويصب فى حبونة أيضا واديان آخران فى بلاد « يام » هما وادى « الهداده » ، ووادى « الحرشف » .

والطرق الممتدة من بلاد وادعة إلى ما جاورها شتى أهمها :

(١) طريق عقبة الخشبة .
(٢) طريق هفاص .
(٣) طريق شجع .
(٤) طريق المصلولة .
(٥) طريق القم وعلبين ، وهى طريق اليمن .
(٦) طريق سعد الكامل .
(٧) طريق الخانق و بدر وحبونة .

٢ — نسب قحطان وأقسامها

يطلق على هذه القبيلة اسم قحطان بن عامر ، والأولى أن تكون قحطان بن عمرو بن الحَلْف بن قضاعة ، وقحطان أخو خولان بن عمرو الذى منه قبائل كثيرة

فى اليمن وتهامة . وقحطان من القبائل العربية المعاصرة فى العدد والعدة ، ومنها فروع متحضرة وفروع عشائر لا تزال على البداوة فى عسير ووادى الدواسر ونجد . ويجتمع بها فى أحد أجدادها الأعلين قبائل بنى خالد و بنى هاجر وسواها . ولن نذكر هنا إلا أقسام قحطان المقيمة فى جهات عسير بين وادعة ويام وعسير وشهران من الجنوب والغرب والشمال و بين وادى الدواسر من الشرق . ويمكن تحديد ديار ما سنذكره من أقسام قحطان بأنها واقعة فى أعالى وفى مجرى وادى تثليث ووادى بيشة[1] .

ويمكن تقسيم قحطان إلى الأقسام الخمسة الآتية :

أولا — بطن رُفَيْدة . وأميرهم ابن سام الذى ذكرنا أن علو بيشة يسمى باسمه. وفى هذا البطن ستة أفخاذ هى :

(١) ذعىّ
(٢) بنو قيس
(٣) جارمة وخطاب
(٤) الحف ووقشة ومن وقشة آل الحجل.

ولرفيدة أتباع فى تهامة ذكروا لى منهم القبائل الآتية :

(١) الجهرة
(٢) آل على
(٣) آل الحلامى
(٤) آل مفرج
(٥) آل مفتاح
(٦) آل مكاذب
(٧) آل السرى

ثانيا : بطن بنى بشر . وأميرهم ابن ثقفان ، وفيه العشائر الآتية :

(١) آل عرفان
(٢) الحيان
(٣) آل محمد
(٤) آل فرحان

ولبشر أتباع فى تهامة هم :

(١) آل مسعود
(٢) آل على

(١) انظر تفاصيل وادى بيشة فيما سبق

(٣) آل حسان
(٤) آل الحسن
(٥) آل سالم

ثالثاً : سنحان الحباب . وأميرهم الحيدانى ، وفيه العشائر الآتية :

(١) الزربا
(٢) الغازى
(٣) آل الشريف
(٤) الرشدة
(٥) آل شوكان

ولهم فى تهامة أتباع أهمها ما يأتى :

(١) آل حجل
(٢) « مسارى
(٣) « مداوى
(٤) « غائضة
(٥) « النعير
(٦) حَيَّان
(٧) آل عمس
(٨) « مفتاح
(٩) « مَعِينة
(١٠) « مشاش
(١١) « سعيد

رابعاً : بطن عبيدة . وأميرهم ابن شفلوط ، ويمكن قسمته إلى فخذين : « آل الصقر » و « آل الحارث » . وفيه من العشائر ما يأتى :

(١) الفهر
(٢) آل مهدى
(٣) « معمر
(٤) العرجان
(٥) حَمَالة
(٦) الحرقان أو آل سليمان
(٧) المساردة
(٨) آل سلمان
(٩) آل على
(١٠) آل زهير
(١١) آل الكرعان
(١٢) آل زيدان
(١٣) آل الجرو
(١٤) الجرابيع
(١٥) العبس
(١٦) آل عائذ

(١٧) آل قريش
(١٨) آل الجلدة
(١٩) بنو طلق
(٢٠) الوهابة
(٢١) العرين
(٢٢) البسام
(٢٣) المنادية

خامساً : بطن شريف . وكبيرهم دليم بن محمد أبو لعثة ، وأقسامهم كما يأتى :

(١) آل سريع
(٢) بنو يزيد ومنهم ابن دليم
(٣) بنو هاجر
(٤) آل عبد القادر
(٥) بنو أوس
(٦) آل داود .

٣ — وادى تثليث

ينبع وادى تثليث من بلاد قحطان ، ولذلك رأينا ضرورة ذكره فى هذا الموضع من الكتاب مع ذكر روافده الكثيرة التى تمده بأمطار بلاد قحطان ، مثلما ذكرنا من قبل بعض الروافد التى تمده من بلاد شهران

فى بلاد قحطان تسعة أودية تقوم عليها قرى عامرة هى أساس وادى تثليث ، وهى اعتباراً من الجنوب إلى الشمال كما يلى :

أولاً : وادى القصب : وأساسه واديان :

ا — وادى الجمع ، وفيه قريتان :

(١) آل حازب
(٢) آل حيان .

ب — وادى جناب ، وفيه ثلاث قرى :

(١) آل سعد .
(٢) آل الهوى .
(٣) « الزبيرى .

ثانياً : وادى سروم : وتقوم على أطرافه القرى الآتية :

(١) القعدة .
(٢) آل حنى .

(٣) السلاطين .
(٤) الجهاوات .
(٥) ابن قاش .
(٦) آل البازم .

ثالثاً : راحة سنحان : وفيه من القرى :

(١) آل الحرى .
(٢) « عيضة .
(٣) الأشعث .
(٤) آل عمران .

رابعاً : راحة شريف : وفيه من القرى :

(١) الحوط .
(٢) القروات .
(٣) آل شَمَّاخ .
(٤) « المونس .
(٥) القضـــاة .
(٦) المفلان .
(٧) أمّ ظاهرة .
(٨) الفيض .

خامساً : وادى الحرجة ، وفيه قريتان :

(١) خيسر .
(٢) الحرجة ، وهى مركز هام للتجارة مع اليمن وعلى الأخص تجارة البن .

سادساً : وادى محلاة ، وفيه ثلاث قرى :

(١) البغصة .
(٢) آل صبرة .
(٣) آل داود .

سابعاً : وادى يعوص ، وفيه من القرى :

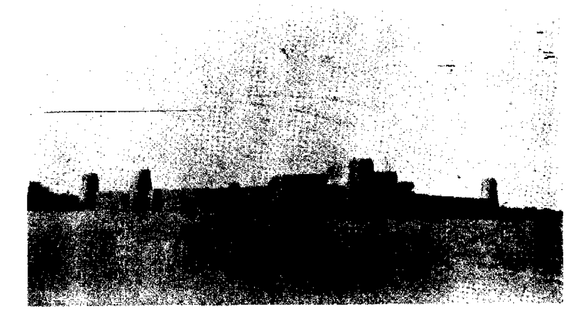
(١) العقدة .
(٢) بنو هاجر .
(٣) أهل النقعة .
(٤) آل سامر .
(٥) آل مسلمة .
(٦) « الباس .
(٧) « شارد .
(٨) « الـكولة .



رقصة الحرب « الدبكة » عند أهل نجران



وادى « تثليث »



قلعـــة بيشة

(٩) آل سيف .
(١٠) « الطيق .
(١١) الخظيرة ، وهى مقر ابن دليم .

ثامناً : وادى الوقيرة ، وفيه من القرى :

(١) آل شَرِيَّة .
(٢) « مقامر .
(٣) آل طلحان .

تاسعاً : وادى الخظيرة ، وفيه من القرى :

(١) الحظيرة .
(٢) دهـــل .
(٣) الخضرا .
(٤) العنابس .

والأودية التى ذكرناها تعود إلى بطون « بنى بشر » و « سنحان الحباب » و « شْرِيف » من قحطان . أمّا « عَبِيدة » و « رُفَيْدَة » فإن أوديتها تتجه إلى ناحية بلاد شهران وتثليث ، ولذا فإننا — عدا ما ذكرناه — نذكر فيما يلى أهم الأودية التى ترفد وادى تثليث .

يذكرون أن وادى تثليث كان ملكا لعمرو بن معدى كرب ، ولكننى أرجح أن يكون عمرا قد ملك أواسط الوادى الذى تقوم عليه فى زماننا الحاضر قرى وهجر لبعض عبيدة من قحطان ، أمّا أن يكون ملك الوادى من منبعه إلى مصبه فذلك ما أستبعده .

طلبت من مترك بن شفلوط شيخ عبيدة أن يصف لى الوادى ، متبعاً فى ذلك مجراه من علوه إلى مصبه ، فوصفه لى على النحو الآتى :

علو تثليث فى الخوايس أى المناقع التى عند سنحان والحرجة و بلاد شريف ، ويحول منها متجها إلى الشمال حتى يصل بعد مسيرة يوم للمطية إلى « المواه » وهو المكان الذى تجتازه طريق السيارات الذاهبة إلى « الحصينية » فى أسفل وادى « حبونة » فى طريقها إلى نجران ، ثم يمتد من « المواه » إلى مسيرة نصف يوم للمطية حتى يبلغ « الحمْضَة » وهى قرية فى بطن تثليث تخص « آل مسفر » من

« آل مسعود » من « آل الجل » من «قحطان» . ومن الحضة يتجه إلى « الحفائر » وهو ماء فى البادية بينه وبين الحضة ثلاث ساعات ، ثم على مسير ساعة يصل إلى « النقرة » وهى هجرة لابن عَبُّود من قحطان ، وفى هذ المكان يصب فى الوادى سيل سراة عَبيدة المسمى « طَرِيب » الذى تقوم عليه هجرة « السبيخة » بلد محدثى ابن شفلوط . ويتجه الوادى من هذا المكان إلى « الـكُهَيْف » وهى هجرة لآل سعد التابعين لابن لبْدة من قحطان ، وبجوار هذه الهجرة قرية أخرى لآل سويدان التابعين لابن عبود من قحطان ، ثم ينحدر إلى « بزيز » وهى على مسافة نصف يوم أيضاً ، ثم إلى « جينة » على مسافة نصف يوم أيضا ، ثم إلى « مَلَح » مسيرة نصف يوم ، ثم ينحدر إلى أن ينتهى بعرق « المختمية » الفاصل بين تثليث ووادى الدواسر .

وقد فاض تثليث عام ١٣٣٧ (١٩١٨) فيضانا عظيما ، فـكسر العرق الرملى الذى يحجزه عن وادى الدواسر عند المختمية ، وطغى على وادى الدواسر ، وجرف كثيراً من بلدانه وقد ذكر لى الأمير عبد الله بن معمر الذى كان أميراً على الدواسر إذ ذاك أن السيل مكث أياما كثيرة لا يمكن مغالبته ، ولذلك سمى المكان الذى اخترقه السيل فى العرق الرملى المنكسر « مفجر المختمية » .

وفيما يلى الأودية الرئيسية التى يمكن القول بأنها ترفد وادى تثليث خلاف الأودية المار ذكرها :

أولا : سيل سراة عبيدة من قحطان أو سيل طريب : وهو ليس بعيداً عن وادى بيشة ابن سالم ، ويمر بالسبيخة بلد ابن شفلوط على بعد ٤٩ كيلو مترا من خميس مشيط ، ويتجه منها إلى « جاش » ثم يلتقى بتثليث عند « النقرة » بلد ابن عَبود كما مر .

ثانيا : سيل الهيج : ويطلع من أودية « بنى طلق » عند « الحنقة » ، ويمر فى « الرحيق » ، ويلاقى تثليث فى « الحفائر » .

ثالثا : وادى المسيرق . وهو يجتمع ثلاثة أودية كبيرة :

١ — وادى الشيق المار ذكره فى الفصل الخامس ببلاد خيبر من شهران

٢ — وادى السليل المار ذكره فى وصف الطريق بين خيبر وتندحة

٣ — وادى خيبر نفسه .

وتجتمع هذه الأودية الثلاثة عند بلدة خيبر وتصب فى وادى « ثفن » الذى يعارض تثليث وراء جاش .

رابعاً : سيل القاعة : ويطلع من « عقدان » وهو ماء إلى الغرب من شعيب « طريب » ويسير إلى بلدة اسمها « يعرى » لقبيلة ناهس من شهران ، ثم يلتقى بسيل « الطَّرِيسة » ثمّ يصبّ فى طريب عند « الجِثوة » فوق السبيخة بمسيرة ساعة .

٤ — قرى قحطان

ذكرنا فى النبذة الثانية من هذا الفصل أسماء الأودية والقرى العائدة لبطون سنحان وشريف من قحطان ، والآن نذكر أسماء قرى « رُفَيْدة » و « عبيدة » و « بنى بشر » . وعذرى فى ذكرها ، مع علمى بأن هذا البحث جاف ، رغبتى فى أن أجمع المرة الأولى أسماء جميع الأودية والشعبان والقرى فى بلاد عسير وملحقاتها كى تكون مرجعاً للمطلعين المدققين .

أولا : قرى بطن رفيدة :

١ — قرى فخذ الحف : ويسميها أهلها « لحاف »

(١) العكاتة
(٢) الحيفا
(٣) القرن
(٤) آل حلامى
(٥) آل حذيلة
(٦) آل على
(٧) آل بايع
(٨) البطحاء
(٩) آل عامر
(١٠) الصمخية
(١١) بنى وهب
(١٢) آل لوط
(١٣) الشاعر
(١٤) الدمام
(١٥) آل السر (امسر)

ب — قرى فخذ وقشة :

(١) بلحى
(٢) آل أبي صبب
(٣) الخرة
(٤) الحرقان
(٥) المصياد
(٦) الضور
(٧) آل القضف
(٨) آل خيش
(٩) وادى حارث
(١٠) آل خزيم
(١١) القرن
(١٢) العيص

جـ — قرى فخذ آل الجمل :

(١) الديبة
(٢) المجمع
(٣) آل فجعة
(٤) المحشوش
(٥) آل ابن حى
(٦) الصفرا
(٧) المراغة

د — قرى فخذ قيس :

(١) الجوف
(٢) لزمة
(٣) الدرب
(٤) الحظيرة
(٥) الربّة

هـ — قرى فخذ مستنير :

(١) الثّنية
(٢) الروغ
(٣) بالمديد

و — قرى فخذ ذَعَىّ :

(١) آل كامل
(٢) آل مفرج
(٣) آل ماشى
(٤) المراغة
(٥) آل بريد
(٦) بنى تميم
(٧) آل مدير
(٨) آل سالم
(٩) آل قصيف

ز — قرى فخذ جارحة وخطاب :

(١) المصيق
(٢) القرحاء
(٣) غفرة
(٤) آل الشيخ
(٥) الدربين
(٦) عراب
(٧) آل زهير
(٨) يسواق
(٩) آل الداحس

(١٠) آل العظبا
(١١) آل السواد
(١٢) آل نادر
(١٣) آل الرميح
(١٤) الجوف
(١٥) آل شوية
(١٦) آل عمرنية
(١٧) آل عسر

ثانياً : قرى بطن عبيدة :

(ا) قرى فخذ آل الصقر :

(١) الربعة
(٢) آل كنبة
(٣) آل جلدة
(٤) آل الشوف
(٥) القضعان
(٦) آل ثابت
(٧) آل مهدى
(٨) آل حبيل
(٩) آل جبرة
(١٠) آل قريش
(١١) آل عقبة
(١٢) آل قرعة
(١٣) آل بسام
(١٤) آل سليمان

(ب) قرى فخذ آل معمّر :

(١) سحيان
(٢) الربايع
(٣) الحدباء
(٤) الحظير
(٥) الجرداء
(٦) آل عربيدة
(٧) الزهرة
(٨) الفلقة
(٩) الهواجر
(١٠) آل دريم
(١١) المحاميد
(١٢) آل عميلة
(١٣) المخرمة
(١٤) الوهابة
(١٥) آل مهروى
(١٦) آل محاصر
(١٧) آل سلمان
(١٨) الوادى الأبيض
(١٩) الحراملة
(٢٠) آل زليق
(٢١) آل كلب
(٢٢) المجاذعة
(٢٣) ابن خطاب
(٢٤) الأشاعرة
(٢٥) ابن الورد

(حـ) قرى فخذ بنى طلق :

(١) آل خضير
(٢) زهير
(٣) الرهط
(٤) القفاعيس
(٥) عنجة
(٦) آل مفرى

(٧) آل دكيم (٩) الصفاق
(٨) آل مذعان (١٠) آل الحرد

(ى) قرى فخذ طريب والعرين :

(١) الجرابيع (٤) رغوة (٧) وهبة
(٢) الفرس (٥) آل كريمان (٨) آل عرفان
(٣) الحراملة (٦) آل جابر (٩) آل أبى نهار

ثالثاً : قرى بطن بنى بشر :

(١) العسران (١٢) الجهمة (٢٣) الزاوية
(٢) آل شياع (١٣) قحيم (٢٤) آل الثنا
(٣) عثمان (١٤) الدّرب (٢٥) شبيرمة
(٤) المحافيظ (١٥) ابن النمر (٢٦) مثاب
(٥) آل سارغة (١٦) فرحان (٢٧) دارمة
(٦) آل عازب (١٧) ابن عاطف (٢٨) ابن كليب
(٧) حمالة (١٨) العبيدية (٢٩) ابن مظهر
(٨) العقيق (١٩) آل عطيف (٣٠) الجوبة
(٩) العرابة (٢٠) آل ظالم (٣١) آل مكر
(١٠) آل الخلف (٢١) الزهرة (٣٢) سهيب
(١١) الوسط (٢٢) آل مانع (٣٣) أهل سعيا

ويلاحظ بكل جلاء أنّ أكثر الأسماء الواردة إنما هى فى الواقع فى أسماء فروع القبائل الساكنة فى القرى نفسها ، وهذا الاستعمال ناشىء عن تغلب اسم القبيلة على اسم القرية نفسها .

الفصل السادس

رجال ألمع ورجال الحجر

نسب ألمع وأقسامها — قرى ألمع وأوديتها — رجال الحجر — قبيلة بنى شهر — قضاء محائل .

١ — نسب ألمع وأقسامها

تقع بلاد ألمع إلى الغرب من بلاد قبيلة عسير ، وتتاخمها فى منقلب السراة الغربى التى يسميها أهلها « الطور » ، وأهل البلاد يحسبون ألمع تهامة لعسير .

وقد غلبت على ألمع تسميتها برجال ألمع ، مع أن « رجال » إحدى البلدتين الشهيرتين : « رجال » و « الشعبين » فى هذه المنطقة كما سنذكره فى موضعه . أما القبيلة نفسها فلم أستطع التثبت من كونها قبيلة « ألمع » أو أنها قبيلة « آل مع » كما أرجّح ، ثم حرفت فأصبحت « ألمع » .

وتنسب قبيلة ألمع إلى « أزد شنودة » . ويعيّرهم جيرانهم بأنهم من بنى قريظة نظراً لتقلبهم وكثرة فسادهم وشرورهم . وينضوى تحت لواء القبيلة الأصلية الأزدية فرقتان هما : « أهل صلب » و « بنو زيد » وأصلهما من بكر مثل أهل الدرب ، إلا أن هذا التمييز فى الأصول فقط لا فى العادات والمعاملات .

وتمتد ديرة ألمع على سفوح الطور الغربية مما يصاقب بلاد عسير من جنوبها إلى شمالها ، والصلات بين البلادين كثير ومتينة . وألمع تابعة لعسير اسما فى هذه الأيام ، وقد كانت تابعة لها أيام سلطانها وغلبتها ، وكانت أيام الحكومة العثمانية « قائمقامية » مرتبطة بمركز « المتصرفية » فى أبها ، وهى فى وقتنا الحاضر قضاء تابع لأمارة أبها أيضا .

يختلف أفراد ألمع عن مجاوريهم من عسير بعدة صفات ، ويمكن حسبانهم من المخضرمين بين قبائل تهامة وقبائل عسير من حيث عاداتهم ولباسهم ومظهرهم ،

أما من حيث قاماتهم فقد لاحظت أنه يغلب عليهم شكل القبائل اليمانية بقصر قاماتهم ونحافة أجسامهم وأشكال رءوسهم ووجوههم . إلا أن فيهم ظاهرة غريبة جداً بادية فى لون العيون ، فإن كثيرين منهم ذوو عيون خضراء مائلة إلى الزرقة . أما من ناحية الشكل الظاهر فإن ملابسهم لاتشبه ملابس أهل عسير لافى لونها ولا فى تفصيلها ، بل هى خضراء دكناء تكسبهم شكلا فذاً فى بابه . ولهجتهم قريبة من لهجة أهل عسير القاطنين سفوح الطور الغربية فى قلبهم لبعض الحروف عن مخارجها وفى نطقهم للقاف والكاف بما يشبه نطق الألمان واليونان للخاء أى بين الخاء والشين .

ويبلغ غزو ألمع ٧٠٠ مجاهد ، وقد ضوعف هذا العدد فى الوقائع الأخيرة مع اليمن وكان فى وسع القبيلة استبدال المجاهدين من وقت إلى آخر . وقد قدروا عدد سكانها بما لا يقل عن ٣٠ — ٤٠ ألف نسمة .

ويحيط بالقبيلة من جنوبيها بنو شعبة أهل الدرب فى وادى عتود ، ومن شماليها آل موسى و بنو توعة من قبائل بارق ومحائل ، ومن شرقيها عسير بأقسامها الأربعة ومن غربيها قبائل المنجحة و بنى هلال وقنا و بحر بن سكينة .

وتقسم القبيلة إلى عشرة أقسام ، غير أنها — حين الجهاد — تنصوى تحت سبعة ألوية ، والواقع أن بعض الفروع الصغيرة أرادت أن تنفصل ، لكنها داخلة ضمن الفروع الكبرى ، وفيما يلى أسماء البطون مع أفخاذها :

أولا — بنو قطبة : مركزهم الشعبين ، ولهم أربعة فروع :

(١) آل موهوب
(٢) فرع يسكن الشعبين
(٣) فرع يسكن الشرفة
(٤) فرع يسكن مجمان

وينضوى تحت هذا البطن فخذ مستقل يعرف بفخذ « أهل العوص » .

ثانياً : بنوظالم : وأفخاذهم :

(١) آل جميدة (٥) آل درقة (٨) مهمال
(٢) « السلمى (٦) المقاصدة (٩) آل جائز
(٣) « حليما (٧) أهل ذنب النقر (١٠) « عمقة
(٤) أهل قرية رجال

ويتبع « بنى ظالم » بطن يسمى « البنما » ، وفيه عشائر كثيرة ، أهمها :

(١) الحارث (٣) المشهورة (٥) آل رقصان
(٢) آل هبة (٤) آل سمى (٦) الحلاوية

ثالثاً : بنو شحب : وفيهم فخذان :

ا — بنو عبد ، وهم :

(١) آل المسحم . (٤) آل قفيل
(٢) « زياد (٥) « فقوة
(٣) « رادة .

ب — بنو شديدة ، وهم :

(١) الغمور (٣) آل مفلح .
(٢) الصواقعة . (٤) المخلوطة .

رابعاً : بنو قيس : وفيهم الأفخاذ الآتية :

(١) آل المتعالى (٤) أهل المرار (٦) الصدر
(٢) آل يعلى (٥) آل الرصوب (٧) أهل شعفى
(٣) آل الجرعة

خامساً : بنو زيد ومنهم :

(١) آل حيان (٣) آل الرويعى (٥) أهل دبلة
(٢) آل الملك (٤) آل الشحطة (٦) آل النجمين.

سادساً : بنو حبونة ومنهم :

ا — آل العلا

ب — آل جندابو

ح — آل اللحجين ، وهم أربع عشائر هى :

(١) آل الحسين (٣) آل المسبلة

(٢) آل عبيد (٤) آل محلبة

سابعاً : أهل صلب وفيهم :

(١) آل عراف (٤) آل السِّروة (٦) أهل السرو

(٢) المحجرة (٥) آل الشعبي (٧) جحدة

(٣) معلين

ويطلق أهل هذه البلاد اسم « بكر » على بنى زيد وأهل صلب ، كما يطلق اسم بنى تغلب على بنى شعبة ، وربما كان هذا تشبيهاً ببكر وتغلب لا بسبب نسبة صحيحة بين القبيلتين .

ويقيم بين قبيلة ألمع فريق من السادة يعرفون بالسادة « الحفاظية » (واحدهم حفظى) هم بمقام الفقهاء والقضاة للقبيلة . وقد اطلعت على كراسين مخطوطين من تأليف بعض قضاة الحفاظية اسم الأول : « الديوان المرضى » تأليف أحمد « الحفظى » . واسم الآخر : « الظل الممدود ، فى سيرة ملوك آل سعود » .

وكلاهما يبحث فى تاريخ الحركة السلفية فى نجد و بعثها على يد الإمام محمد بن سعود وشيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى القرن الماضى ، وتاريخ فتح عسير وتهامة وغير ذلك من الأحداث .

٢ — قرى ألمع وأوديتها

بلاد ألمع مجموعة جبال ووديان . وأهم الوديان التى تقوم حولها القرى الهامة أربعة هى :

أولا : وادى حَلِى : ويمرّ فى بلاد ثلاثة بطون من ألمع ، فعلوّه لبنى قطبة ، ووسطه لبنى ظالم ، وأسفله للبَنَا ، وهو يطلع من الطور أى السراة ، ويصب فى البحر الأحمر عند قرية مخشوش المسماة حَلى ابن يعقوب ، وتقع عليه القرى الآتية :

(١) العوص (٧) مندر العوص (١٣) الحارث وهى أول قرى البنه
(٢) المشايع (٨) ضاحية أول قرى بنى ظالم (١٤) أهل تنومة
(٣) آل مبيوع (٩) الجبيل (١٥) أهل سمعى
(٤) الأصم (١٠) تمابة (١٦) رتعان
(٥) غنمة (١١) الظهرة (١٧) ردام
(٦) الجزعة (١٢) الفقى

وينتهى العمران عند ردام إلى مسافة مرحلتين المطية حتى يصب الوادى فى البحر عند حلى ابن يعقوب . ويصب فى هـذا الوادى أودية كثيرة أهمها وادى الشعبين الذى يدفع فى مندر العوص ، ووادى عمقة لبنى ظالم يصب فى وادى حلى بقرب ثغى . وتقوم عليه ثلاث قرى : عمقة ، والرديف ، والحريزة .

ثانياً : وادى كسان : علوّه لبنى ظالم ووسطه لقيس وأسفله لبنى جونة ومنتهاه لأهل صلب . ينبع من جبل قوة ، وتقوم عليه القرى الآتية :

(١) رجال قرية مشهورة (٥) رحبى (٩) الدير لأهل صلب
(٢) البيح (٦) العطفة (١٠) الحبيب
(٣) البتيلة لقيس (٧) الضيق (١١) شط ميكة
(٤) القفا لبنى جونة (٨) مَخْلِيَة

و بعد شط ميكة يجرى الوادى فى القفر إلى أن يدفع فى البحر بقرب القَحْمَة .

ثالثاً : وادى ريم : لشحب و يطلع من جبل شحب و يصب فى كسان عند حدود أهل صلب ، و يتفق الواديان و يصبان معا فى القحمة ، وتقع على الوادى القرى الآتية :

(١) الصدارة (٤) الباخة (٦) ذو المصون

(٢) شوحطة (٥) ضلاع (٧) الأثل

(٣) عكنة .

رابعا : وادى حسوة : وهو لقيس و بنى يزيد ، و يطلع من الطور بقرب العوص ، و يصب فى درب بنى شعبة ، أى فى ملتقى وادى ضلح بوادى عتود ، وفيه من القرى :

(١) الصدر (٤) الجبلة (٧) النجود

(٢) الذروة (٥) الفنيان (٨) المرايفة

(٣) الرصوب (٦) هيصمة

وأما القرى الجبلية فكثيرة ؛ نذكر منها فيما يلى ما كان لكل بطن من بطون القبيلة على حدتها :

ا — قرى بنى ظالم :

(١) قوة (٤) الضحى (٦) أم لوان

(٢) المرواح (٥) الشرف (٧) القاربة

(٣) المدرقة

ب — قرى بنى قطبة :

(١) الشرفة (٣) عُرْ (٥) سالع

(٢) محجان (٤) شوكان

جـ — قرى قيس :

(١) المرار (٣) القلة (٥) الحورة

(٢) مويركة (٤) العرة

د — قرى جونة :

(١) المصادة	(٣) وطن آل جندب	(٥) المسكتة
(٢) القارية	(٤) المشبلة	(٦) أهل الشرف.

هـ — قرى أهل صلب :

(١) المحجرة	(٣) أهل السّروة	(٥) آل عراف
(٢) معلين	(٤) الشعي	(٦) السكرى
		(٧) أهل السرو

و — قرى شِحْب :

(١) الجم	(٣) آل قفيل	(٥) آل رادة
(٢) آل زياد .	(٤) آل فقوة	

ز — قرى شديدة :

(١) غمرة ، وليس لها فى الجبال قرى غيرها .

أما بنو زيد فليس لهم فى الجبال قرى مطلقا .

وقد أخبرنى زيد بن غرارة من كبار ألمع أن قوانين القبيلة تقضى بجعلها قسمين :

١ — ألمع الشام : وتتألف من بنى ظالم ، وشحب ، والبنا ، و بنى قطبة .

٢ — ألمع اليمن : وتتألف من قيس ، وجونة ، وصلب ، و بنى زيد .

٣ — رجال الحجر

يطلق اسم « رجال الحجر » على ثلاث قبائل تقطن السروات الواقعة بين بلاد عسير وشهران جنوبا ، و بلاد بنى شهر و بالقرن شمالاً ، وشهران شرقا ، وقبائل محائل و بارق غربا ، والقبائل الثلاث هى : بالأحمر ، و بالأسمر ، و بنو عمرو . وهنالك من يقول إن اسم « رجال الحجر » لا يشمل غير قبيلتى بالأحمر و بالأسمر ، وأن بنى عمرو ينسبون إلى الشلاوة وغيرهم .

أولا — قبيلة بالأحمر : أقرب القبائل إلى عسير ، وتبدأ حدودها اعتباراً من عقبة « شعار » وبلاد بنى مالك عسير إلى أن تتصل بقبيلة بالأسمر . وتقسم القبيلة إلى الأقسام الصغيرة الآتية :

(١) المجنّب	(٦) أهل لعبان	(١١) آل محمد
(٢) بنو ثعلبة	(٧) نازلة	(١٢) الغاربين
(٣) آل الأصلح	(٨) أهل هبح	(١٣) آل مخلد
(٤) آل القاسم	(٩) آل عزّام	(١٤) آل العلوى (امعلوى)
(٥) آل الزيان	(١٠) أهل بهلوان	

ويتبعهم فى تهامة فريق يسكن قرية « فرشاط » الواقعة فى آخر ما يمتدّ إليه بصر الواقف فى أعلى عقبة شعار إلى جهة مجرى الوادى على طريق « محائل » .

وتسكن القبيلة قرى شبيهة بقرى عسير وعددها ٣٠ قرية ، عدا قرية « فرشاط » فى تهامة ، وهى :

(١) عبل	(١١) آل مبارك	(٢١) آل عزّة
(٢) آل الضلع	(١٢) أهل الطويب	(٢٢) آل الصدامى
(٣) آل الزيان	(١٣) صبح	(٢٣) آل العلوى
(٤) مسفرة	(١٤) آل عامر	(٢٤) الزّبيّة
(٥) بنى ثعلبة	(١٥) آل رشيد	(٢٥) عبالة
(٦) آل عصاة	(١٦) قرابنة	(٢٦) آل مُورِق
(٧) الهدشة	(١٧) آل رافع	(٢٧) آل حسين
(٨) الخللة	(١٨) جذام	(٢٨) آل عمر
(٩) أهل عباهم	(١٩) بيحان	(٢٩) المادين
(١٠) آل مخلد	(٢٠) آل كامل	(٣٠) آل الشاعر

ثانياً — قبيلة بالأسمر : كبير هذه القبيلة عبد الله بن على بن حرمان ، وديرتها إلى الشمال من ديرة بالأحمر ، وفيها الأقسام الآتية :

(١) ذبوب	(٤) بنو قاعد	(٧) آل عياء
(٢) آل خريم	(٥) أهل حوران	(٨) بنو جنادة
(٣) سدوان	(٦) أهل القيح	

وأما قرى هذه القبيلة فهى :

(١) بنو مالك	(٣) القواعد	(٥) أهل الفاحتية
(٢) أهل حزم	(٤) آل الطير (اسطير)	(٦) أهل الشبين

وفى تهامة فروع كثيرة تتبع « بالأسمر » ، وبعضهم يحسب أهل « فرشاط » منهم ، غير أنها فى الواقع تابعة لقبيلة بالأحمر . أما الذين فى تهامة من بالأسمر فهم :

(١) آل حماد	(١٤) آل خالد	(٢٦) القرعة
(٢) السوق	(١٥) آل غماد	(٢٧) آل معلم
(٣) ذو بوب	(١٦) آل أمّ عقيف	(٢٨) آل ليم
(٤) غاشرة	(١٧) شغب	(٢٩) آل مداد
(٥) وعلام	(١٨) مضوعى	(٣٠) آل المعتلى
(٦)آل عمير	(١٩) أمّ قشيع	(٣١) ششة
(٧) عطيفة	(٢٠) الجزعة	(٣٢) عتمة
(٨) الحظيرة	(٢١) العطفة	(٣٣) محرز
(٩) آل رزق	(٢٢) رحبى	(٣٤) آل مسهل
(١٠) القرى	(٢٣) الفرسة	(٣٥) أسود
(١١) آل مطرق	(٢٤) عينين	(٣٦) ريدان
(١٢) محور	(٢٥) البطين	(٣٧) مارد
(١٣) أبو خشرة		

ثالثاً — قبيلة بنى عمرو : تقع ديار هـذه القبيلة إلى الشرق من ديار بالأحمر وبالأسمر .

٤ — قبيلة بنى شهر

قبيلة بنى شهر من أهمّ القبائل العربيــة على السراة ، ويحدّها من الشمال : غامد وزهران وبالقرن ، ومن الجنوب : رجال الحجر ، ومن الشرق : بيشة وشهران ، ومن الغرب : قبائل القنفذة . وكانت بلاد هـذه القبيلة أيام الحكومة العثمانية « قضاء » فيه قائمقام مركزه بلدة « النَّمَاص » أكبر قرى القبيلة . وكانت القبيلة وقتاً ما تابعة للسيد محمد على الإدريسى ، غير أنها كانت أقرب إلى مكة منها إلى صبيا أو أبها ، وذلك بسبب أواصر النسب بينها و بين الأشراف فى مكة ، ومنذ قيام الحكومة الحاضرة أُتبعت لإمارة عسير ، أسوة بالقبائل السابق ذكرها فيما مرّ من الكتاب ، وبالقبائل التى سنذكرها فى النبذة الآتية .

وقد اختلف فى تقسيم القبيلة وتفريعها ، فبعضهم يعتبرها أربعة أقسام والبعض الآخر يعتبرها قسمين ، إذ أن الإدريسى — حينما كان حاكما — قسم بنى شهر إلى قسمين :

١ — سلامان ، ويتبع المَسْبَلى .

٢ — بنو أثلة ، ويتبع الشبيلى .

ولكنه لم يتبع طريقة معينة فى إدخال الفروع فى هذين الأصلين ، ولم يتّبع التسلسل بالميلاد ، بل كان تقسيمه على حسب اجتهاده . وقد ألغى هذا الترتيب الآن ، وعادت التقسيمات إلى ما كانت عليه من قبل تبعاً للمنعنات التى ورثتها القبيلة والتى تقضى بقسمتها إلى الأقسام الموضحة فيما يلى :

أولا : بطن شهرة الأمين أو الكلاثمة : وتتبعه الأفخاذ الآتية :

(١) بنو بكر	(٣) بنو جبير
(٢) بنو قشير	(٤) آل ابن ريّاع

ولهذا البطن أتباع فى تهامة هم : فخذ عَبْس ، وفيه من العشائر :

(١) أهل الحيد
(٢) آل عبيد
(٣) الحصنة
(٤) آل عمّار

ثانياً : بطن العوامر ، وتتبعه الأفخاذ الآتية :

(١) بنو مشهور
(٢) بالحصين
(٣) آل بهيش
(٤) آل سودة
(٥) مليح
(٦) دحيم
(٧) كنانة
(٨) بنو لام

وأتباع العوامر فى تهامة هم : أهل أترب ، وصيون وأقسامهم :

(١) آل يحمد
(٢) آل يعلى
(٣) آل محجوبة
(٤) آل محباشى
(٥) العصمة

ثالثاً : بطن بالحارث أهل الشعفين ، أو أهل وادى تَنُومَة ، وفيه الأقسام الآتية :

(١) أهل تنومة
(٢) آل دحمان
(٣) حبيهة
(٤) الجهاضمة
(٥) آل الصعدى
(٦) الحصون

ولهذا البطن فى تهامة أتباع فى نَعْص والمنظر وَ بِجْرَة ؛ وأكثرهم من البدو الرُّحَّل

رابعاً : بطن بنى التيم ، وفيه الأقسام الآتية :

(١) آل وليد
(٢) آل ليلح
(٣) آل زيدان
(٤) خشرم

وأتباعهم فى تهامة :

(١) بنو حسين
(٢) بالجدع
(٣) بنو زهير
(٤) المجاردة
(٥) بنو مخلد
(٦) آل شغيب
(٧) آل حميت
(٨) آل الأملح

وللقبيلة فريقان آخران يتبعانها هما :

ا — شهر الشام . وفيه ثلاثة أقسام :

(١) بنو ثابت ، وقريتهم السروة

(٢) بنو الأوس

(٣) أهل القبل

ب — قبيلة تربان : وهم بدو رحّل مازالوا على الفطرة يسكنون المغاور والكهوف وحالتهم الاجتماعية فى غاية الانحطاط .

ولقبيلة بنى شهر أسواق أسبوعية شهيرة ، نذكر أهمها فيما يلى :

١ — سوق تنومة فى قرية آل صفوان	يوم السبت
٢ — سوق عبس	« الأحد
٣ — سوق الجازة	« الاثنين
٤ — سوق النماص فى قرية العسابلة	« يوم الثلاثاء
٥ — سوق شهرة الأمين فى السرو	« الأربعاء
٦ — سوق بنى التيم فى قرية الخضرة	« الخميس
٧ — سوق أترب	« الجمعة

أمّا قرى القبيلة فتزيد على المائة ، مما يدل على غناها وأهميتها ، وهى :

(١) التمامى	(٢) منعا	(٣) المركبة	(٤) آل ثابت
(٥) السنظوف	(٦) شعيبة	(٧) المتن	(٨) النصاب
(٩) روق	(١٠) الحفير	(١١) الصمدة	(١٢) سدومة
(١٣) خصيرى	(١٤) الوهدة	(١٥) الحلقة	(١٦) بيضان
(١٧) آل عمر	(١٨) آل حفس	(١٩) ربع هزاع	(٢٠) الوطا
(٢١) ما ولد على	(٢٢) السوق	(٢٣) المهد	(٢٤) الصبيات
(٢٥) الفنان	(٢٦) التيس	(٢٧) القرعة	(٢٨) آل محمل

(٢٩) الفضول (٣٠) جِبِّي (٣١) القلت (٣٢) مجاوب
(٣٣) البزوة (٣٤) آل ايدى (٣٥) العاسية (٣٦) محذل
(٣٧) العامسة (٣٨) آل سعد (٣٩) العرف (٤٠) آل حسين
(٤١) اللهبة (٤٢) الميفى (٤٣) معمع (٤٤) آل صفوان
(٤٥) زينب (٤٦) البردة (٤٧) مليح (٤٨) آل مرحب
(٤٩) الحدب (٥٠) العلا (٥١) آل سلام (٥٢) منعا المجدل
(٥٣) الطرف (٥٤) شَرِى (٥٥) آل حشاة (٥٦) آل يسار
(٥٧) رزيق (٥٨) الحلاة (٥٩) جرادة (٦٠) آل ذخران
(٦١) الشهوم (٦٢) صمبان (٦٣) عصيين (٦٤) آل معافى
(٦٥) الأَحَض (٦٦) صخيف (٦٧) قويس (٦٨) آل مروح
(٦٩) آل عريف (٧٠) الشرف (٧١) الدحمان (٧٢) العوصا
(٧٣) جار (٧٤) علبة (٧٥) فيلتة (٧٦) الدهنا
(٧٧) آل بهيش (٧٨) القرية (٧٩) القذال (٨٠) الخربة
(٨١) منزل العشر (٨٢) أهل عرعرة (٨٣) الحصون (٨٤) عطية
(٨٥) مرزوق (٨٦) آل رحمة (٨٧) آل ناشر (٨٨) آل عقيقة
(٨٩) المدانة (٩٠) العرق (٩١) مسلمة (٩٢) آل قحطان
(٩٣) خصرا (٩٤) مجيرة (٩٥) آل طوير (٩٦) الشبرقة
(٩٧) قبيس (٩٨) الحلقة (٩٩) الحباوة (١٠٠) القيم
(١٠١) أريامة (١٠٢) لجج (١٠٣) خشرم

٥ — قضاء محائل

قضاء محائل من توابع إمارة عسير، وهو على طريق المسافر من أبها إلى القنفذة، وفيه من القبائل خمس هي :

ا — قبيلة الرَّيْش : ولها من القرى :

(١) أم شعتار (٤) الحاطة (٦) أم كدس

(٢) شعبين (٥) قرن الماء (٧) أم حضن

(٣) معشى أم حُضو

ب — قبيلة آل مِشْوِل : ويحسبها بعضهم من الرَّيْش . وفضّلنا إفرادها بالبحث ، ولها من القرى :

(١) حصن أمّ خيالة (٢) أم ظاهر (٣) المائخ

حـ — قبيلة آل الدريب : وقراها :

(١) شرقش (٢) مصبح (٣) الراحة (٤) العين أو أمعين

د — قبيلة آل موسى : وقراها :

(١) بلدة محائل (٥) آل عمر (٨) الشبجة

(٢) المعشى (٦) آل عيسى (٩) أم صحف

(٣) أم نصب (٧) مقهب (١٠) محصن

(٤) أم جريان

هـ — قبيلة بنى ثُوعَة : وقراها :

(١) أم بطح (٥) قرين (٨) أهل سامة

(٢) آل غنية (٦) أهل البدلة (٩) أهل العيدة أو أمعيدة

(٣) آل مشيدة (٧) حسن بن شاطبة (١٠) آل قبيس

(٤) الشط أو أمشط

القسم الثالث

نجران

الفصل الأول

نجران

موقع نجران — الأودية الشرقية — نجران فى كتب العرب — النصرانية واليهودية الإسماعيلية — زعامة المكارمة — سكان نجران — قبائل اليامية — قبائل اليمن المشهورة

١ — موقع « نجران »

نجران أحد الأودية الستة التى تصفى مياه الأمطار المتحدرة من السفوح الشرقية لسلسلة الجبال الممتدة من جنوب بلاد العرب إلى شمالها بعد دخولها فى البلاد المشمولة بحكم ابن سعود والتى يسميها العرب جبال « السراة » أو « الحجاز[1] » . ومع أن نجران ليس أهم الأودية الستة المشار إليها من حيث طوله والروافد التى تصب مياهها فيه والقرى والمزارع القائمة على جوانبه ، فإن له شأناً خاصاً من جهات كثيرة أخرى أهمها علاقته بتاريخ النصرانية واليهودية ووجود آثار كنيسة ومبانٍ قديمة يقول بعضهم إنها بقايا المدينة الوارد ذكرها فى القرآن باسم (الأخدود) . ولما كنت قد ذكرت الأودية الستة فإننى أرى من المناسب أن أذكر أسماءها والبلاد التى تنبع منها والتى تنتهى إليها مبتدئاً من الجنوب إلى الشمال على وجه الترتيب .

٢ — الأودية الشرقية

أولا — وادى نجران ، وهو منفصل عن الأودية التى فى بلاد الأمام يحيى بجبال مرتفعة تشكل سطحين مائلين لخط تقسيم المياه ، سطح جنوبى تتصفى مياهه إلى

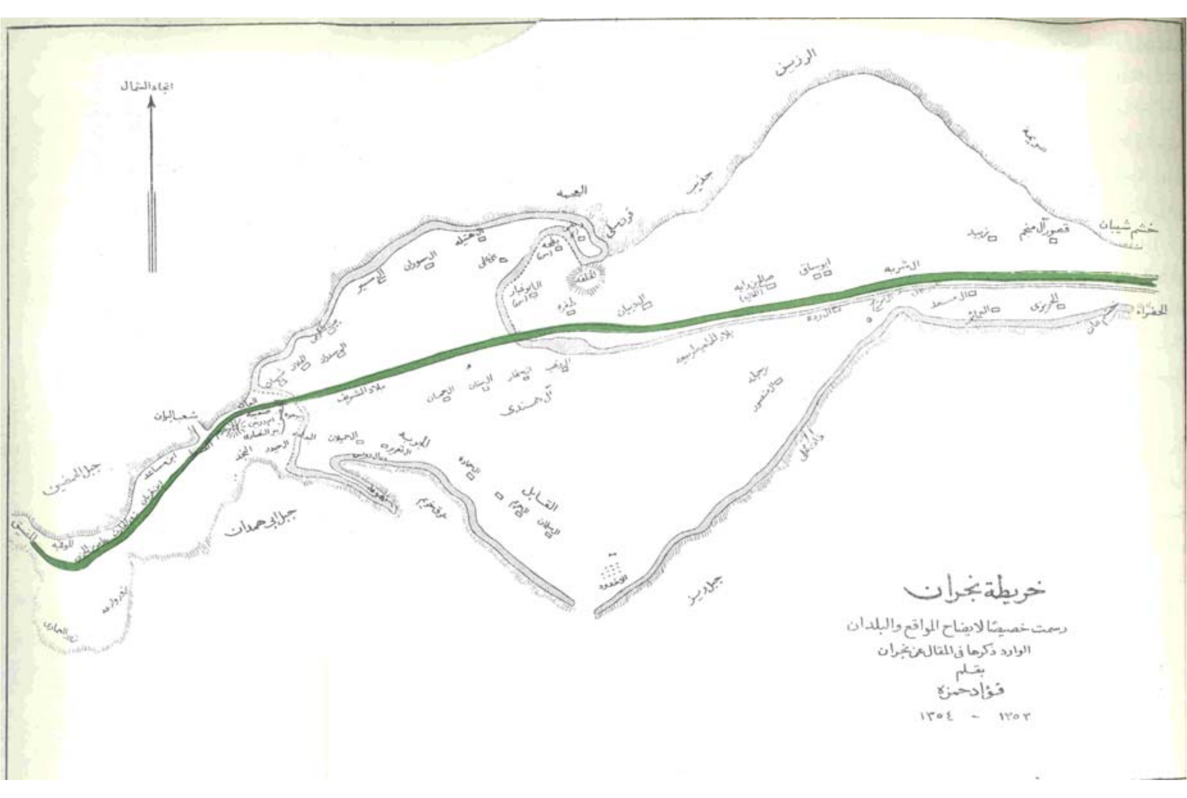
---

(١) بعضهم يسمى السلسلة ساق الغراب ، وهم بالأحرى يسمون السلسلة الغربية ساق الغراب والسلسلة الشرقية لها أسماء أخرى .

وادى الفرع وأصدح اللذين ينتهيان فى بلاد الجوف فى اليمن ، وسطح شمالى تتصفى مياهه إلى وادى نجران ، إلا أن أكثر مياه الوادى تأتيه من جهة الغرب لا من جهة الجنوب . ومياه الأمطار التى تأتى إلى وادى نجران من جهة الغرب تتجمع من السيول والروافد الكثيرة القادمة من بلاد قبيلة سحار و بعض قبيلة بنى جماعة (وكلتاهما ترجع فى أصولها إلى قبيلة خولان بن عامر) ، وأما مجرى الوادى نفسه وأطرافه ومنتهاه فإنه ملك لأحد فروع قبيلة همدان بن زيد المعروفة باليامية .

ثانياً — وادى حبونة (و يسميه جغرافيو العرب المتقدمون حبونن) ويقع إلى الشمال من نجران ، وتفصله عنه هضاب شتى أكثرها مرتفع وفى أعاليها منبسط اسمه الصحن . والواديان يسيران متوازيين تقريباً ، و بعد أحدهما عن الآخر فى غالب نقاطهما مسافة يوم للجمال المحملة ، ومصبهما عند رمال المهمل أى الربع الخالى يبعد هذه المسافة أيضاً . ووادى حبونة أقل أهمية من نجران وأقل عمراناً وقرى بالرغم من أن هنالك أودية مشهورة تصب فيه ، منها أودية بدر والخانق وهدادة والحرشف . وهو يصفى المياه التى تنحدر إلى جهة الشرق من القسم الشمالى من بلاد بنى جماعة اليمانيين كما أنه يصفى بلاد وادعة من همدان والقسم الجنوبى من بلاد قبيلة قحطان . ويمكن ذكر ستة أودية مهمة فى بلاد بنى جماعة ووادعة وقحطان يصح اعتبارها أساساً لوادى حبونة وهى (١) وادى الحاجر و يصب فى هدادة (٢) وادى قتام ويمر مابين عقبتى الشطبة وعلب اللتين هما نقطة الحدود بين بلاد ابن سعود والإمام يحيى الفاصلة بين حدود بنى جماعة وسحار الشام وحدود وادعة (٣) وادى العرين ويمر فى قرى كثيرة منها طهران والجزعة (٤) وادى العيل وينتهى إلى حبونة بعد أن يمر فى وادى العرن (٥) وادى طلحة (٦) وادى رشاد

ثالثاً — وادى تثليث ، وهو يصفى الأمطار التى تتجه إلى جهة الشرق من بلاد بطون قبيلة قحطان ، كما أنه منتهى عدة أودية مهمة تصفى قسما من بلاد قبيلة شهران صاحبة الوادى الرابع الذى سنذكره فيما يلى ، وهذا الوادى أطول من الواديين



خريطة نجران
رسمت خصيصًا لايضاح المواقع والبلدان
الوارد ذكرها في المقال عن نجران
بقلم
فؤاد حمزة
١٣٥٢ - ١٣٥٤
اتجاه الشمال
الوزين
خشم شيبان
قصور آل مجم
زبيد
الشربه
ابو ساق
العبه
حوبن
جبل ابو همدان
جبل المضين
شعب البون
ملاح الشرف
آل جمندى
القابل
جبل دريز
الدوله

المتقدمين وأكثر اعوجاجاً منهما ، وهو فى اتجاهه مختلف عنهما نوعا لأنه منحرف إلى الشمال الشرق . والأودية التى تصب فيه كثيرة نذكر أهمها وهى : (١) المجمع (٢) جناب (٣) سروم (٤) راحة سنحان (٥) راحة شريف (٦) وادى الحرجة (٧) وادى محلاة (٨) وادى يعوص (٩) وادى الوفيرة (١٠) طريب (١١) الهيج (١٢) وادى المسيرق وهو يتألف من ثلاثة أودية كبيرة فى بلاد شهران : وادى الشّيّق ووادى السّليل ووادى خيبر ، وتتجه إلى وادى ثفن ثم تصب فى تثليث (١٣) وادى القاعة . وينتهى وادى تثليث عند الرمال المعروفة باسم المختمية بقرب وادى الدواسر . وقد فاض تثليث عام ١٩١٧ وكسر السد الرملى وطغى على وادى الدواسر فأغرق قرى كثيرة وسبب خسائر عظيمة فى الأرواح والأموال . ويمكن القول بأن مجرى الوادى وأطرافه ملك لفروع قبيلة قحطان ما عدا المسيرق والقاعة فإنهما لشهران .

رابعاً — وادى بيشة وهو أطول الأودية الستة وأهمها ، ولذلك يقسمونه إلى ثلاثة أقسام يسمونها بيشة ابن سالم من قحطان و بيشة ابن مشيط و بيشة النخل . وهو يصفى مياه الأمطار التى تتجه إلى الشرق والشمال من ديار بطنى رفيدة وعبيدة من قبائل قحطان وديار قبيلة عشير كلها وديار شهران عدا ما يصب فى تثليث من المسيرق والقاعة وديار بالأحمر وبالأسمر و بنى شهر كلها . أما الأودية الكبيرة التى تصب فيه فإننا نذكرها على وجه الاختصار لأن ذكرها كلها يستغرق من التفصيل ما لا يسمح المجال بذكره هنا : (١) وادى تندحة (٢) وادى أبهـا الذى يكون اسمه فى علوه حيث ينبع عند السقا مركز بنى مغيد من عسير « خبيبى » (٣) وادى عتود (٤) وادى الحرة (٥) وادى هرجاب (٦) وادى ترج (٧) وادى تبالة (٨) بطنة الحبيب . ومن المهم أن نذكر أن وادى بيشة ينبع فى علوه من بلاد عبيدة ورفيدة من قحطان عند مكان فيه آثار قديمة لبلدة خربة كانت مشهورة فى الكتب العربية باسم « جرش » . وبعد أن يمر فى بلاد ابن مشيط يجتمع به وادى تندحة قادما

من ضفته اليمنى ووادى عتود وأبها من جهة الغرب ووادى الحرة الذى هو إلى الغرب والشمال من وادى أبها إلى أن يلتقى عند بلاد ابن هشبل فيصبح اسم الوادى اعتباراً من هذا المكان وادى شهران ، ثم يظل هذا الاسم عليه إلى أن يصل إلى مزارع تسمى واعر ، وهى تعتبر أول وادى بيشة الذى هو الأصل فيما يطلق عليه «وادى بيشة» وهى تبعد عن الرّوشن مركز بيشــة أكثر من يومين للجمال المحملة . ويمتد الوادى بعد قرى بيشة التى آخرها الخينة إلى أن يصل إلى منطقة الرمال فيغور فيها فى الرمل المسمى رغوة عند مكان اسمه ظاعن .

خامساً — وادى رنية ، ومنبعه الأصلى فى بلاد غامد الواقعة إلى الشمال من بلاد بنى شهر من موضع اسمه ثراد ، وبعد أن يصفى ديار قبيلة غامد وبعض زهران وبالحارث وبنى عمرو يبدأ العمران فيه عند نخيل اسمه الأملح ، بعد أن يسقى القرى الكثيرة الموجودة على أطرافه والتى آخرها من جهة مصبه بلدة العماير إلى أن يصل إلى رغوة وينتهى عند هجلة المستحتمية . ويصب فى هذا الوادى أودية فرعية كثيرة أهمها : (١) غتران (٢) الهجرة (٣) قرّة .

سادساً — وادى تربة وأصل منبعه فى علود فى ديرة زهران وبنى مالك ، ولكن أكثر مياهه تأتى من ديرة البقوم فى حضن وأطرافه من حرة سبيع الواقعة إلى الشرق والجنوب من الخرمة ، وينتهى الوادى فى عرق سبيع الرملى عند القنصلية والعرق يبعد مسيرة مرحلة للمطية عن الخرمة ، ويفصل وادى تربة عن وادى رنية حرة سبيع المشهورة . ويصب فى وادى تربة عدة أودية أهمها : (١) الهجرة (٢) المبايع (٣) سعدانات (٤) الجوفا (٥) الحرملية (٦) الشضو (٧) الجنينة (٨) الظليم ومفيد والسدرى .

٣ — «نجران» فى كتب العرب

ورد ذكر نجران فى كثير من الكتب العربية ، غير أنه يتراءى لى أن الذين كتبوا عنها فى الأعصر القديمة إنما كتبوا ما سمعوه كما فعل المتأخرون والفرق بين كتابة

السامع والمشاهد عظيم ، وأكثر المؤلفين من العرب يذكرون أن نجران مخلاف من مخاليف اليمن وأنه يقع بين صنعاء واليمامة (نجد) ويذكر بعضهم أن اسمه مشتق من اسم أحد حفدة يعرب بن يشجب ، ويغلب على الظن أنهم كانوا يشيرون إلى نجران كأنه علم لمدينة كبيرة لأنهم يذكرون أن نجران وجرش مدينتان هما دون صعدة إلى جهة مكة وأنهما متشابهتان (ذكرت عن جرش أنها خربة وقد بقيت منها أطلال دارسة فى علو وادى بيشة) . وقد ذكر اسم إحدى قرى نجران المسماة بالأخدود فى القرآن الكريم فى سورة البروج ، وورد الاسم أيضاً فى السيرة النبوية بمناسبة وفود أهل نجران إلى النبى صلى الله عليه وسلم ودخولهم فى الإسلام قبيل وفاته . وورد ذكر أهل نجران بمناسبة أخرى أيضا وهى حديث النبى عن مشاهدته لقس بن ساعدة الإيادى خطيب العرب المشهور وقد كان قس أسقفاً لنجران قبل الهجرة . وقد كشف جوزف هاليفى المستشرق الفرنسى مساند كثيرة نقشت على جدران القصور القديمة ونشرت فى مجموعة النقوش السامية ، وأصبحت هذه المساند الحميرية مصدراً مهماً لتاريخ نجران .

٤ — النصرانية واليهودية فى « نجران »

يذكر مؤرخو العرب ما يستفاد منه أن النصرانية سبقت اليهودية إلى نجران وأن محاولة أحد ملوك اليمن الحميريين الذين هادوا أن يرغم نصارى نجران على اعتناق اليهودية أدت إلى تدخل قياصرة الروم بواسطة الحبشة ، وإلى فتح اليمن من قبل الأحباش كما هو مشهور فى الكتب العربية . وقد لخص السير وليم موير فى كتابه « حياة محمد » أقوال مؤرخى العرب فى ذلك ، ونقل الدكتور هيوز فى كتابه « قاموس الإسلام » ما هذه خلاصته :

كان ذونواس الحميرى فى أحد أسفاره إلى المدينة اعتنق الديانة اليهودية ، وحينما عاد إلى اليمن حاول نشرها فيه أيضاً . فلقى مقاومة عنيفة من أهل نجران الذين كانوا يدينون بالنصرانية ، فجهز عليهم جيشاً كبيراً وهدم كنيستهم وقتل كثيراً منهم ، وكان يحفر لهم حفراً يغرقهم فيها ، ومعنى الحفرة الأخدود وهو المقصود بالآية الكريمة الواردة

فى سورة البروج : « قتل أصحاب الأخدود الخ . . » وكان من أثر ذلك أن استنجد نصارى نجران بالقسطنطينية التى كانت حامية للدين المسيحى ، فعهدت هذه إلى ملك الحبشة بنصرة نصارى نجران ، وكان ما كان من استيلاء الأحباش على اليمن (عام ٥٢٥ م) ونصر النصرانية فيه وشروعهم فى مهاجمة الحجاز لهدم الكعبة المكية وإقامة كعبة أخرى مكانها فى صنعاء يسميها العرب (القليس) وربما كانت محرفة عن كلمة أخرى .

ومن المعلوم أن النبى ولد فى العام الذى غزا الأحباش مكة فيه . ولم يدم ملك الأحباش فى اليمن ، كما أن النصرانية ظلت فى نجران إلى ظهور الإسلام ، وظل فى اليمن كثيرون من اليهود ومن العرب الذين دانوا باليهودية إلى يومنا هذا . وحينما انتشر الإسلام أوفد أهل نجران أساقفتهم ورؤساءهم إلى النبى وصالحوه على أن يظلوا على نصرانيتهم ويؤدوا الجزية ، ولكن حينما قرر الخليفة عمر ألا يبقى فى جزيرة العرب دين آخر مع الإسلام صدر الأمر بإخراج من بصرَّ منهم على النصرانية ، وعوض على من خرج مالا مقابل أملاكه .

٥ — الإسماعيلية فى « نجران »

يتمذهب أهل نجران كما يتمذهب سائر أبناء عمومتهم وإخوانهم من قبيلة يام بالمذهب الإسماعيلى ، وهو مذهب إحدى الفرق الشيعية الباطنية فى الإسلام ، وأتباعه يعتبرون أئمة سبعة من أهل البيت آخرهم محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، ويختلفون عن الاثنى عشرية بأن هؤلاء يقولون بإمامة اثنى عشر إماما آخرهم محمد الحسن العسكرى ، ولا يعترفون لمحمد بن إسماعيل ؛ بل يتبعون موسى الكاظم . والإسماعيلية بأنفسهم منقسمون إلى عدة فرق أهمها :

١ — فرقة الخواجية التى يترأسها أغا خان .

٢ — فرقة الداودية التى يترأسها طاهر سيف الدين من بومباى .

٣ — فرقة السليمانية التى يترأسها الداعى المكرمى الذى له منصب فى الهند فى بدرباغ وهو غلام حسين أرلهندى .

أما كيفية دخول الإسماعيلية بين أهل نجران وسائر يام فما لانستطيع الجزم به ولا تحديد وقت معين لحصوله ، إلا أن الذى يتراءى لى أن طبيعة اليامية جعلتهم يميلون إلى مخالفة جيرانهم من القبائل فى العقائد الدينية وفى العادات الاجتماعية ، ومع أن اليامية بطن مهم من بطون همدان بن زيد فإنهم يختلفون عن مجاوريهم بأنهم عرفوا بمزيتين : الأولى اختلاف المذهب ، والثانية كونهم من أشد القبائل شكيمة وقت الحروب ومعتادين الغزو والغارات ، ولم تشتد دعوة الإسماعيلية فى نجران وتصبح لرؤسائهم سيطرة مدنية وقوة عسكرية حكومية إلا منذ ثلاثة قرون ونصف قرن تقريباً حينما قدم إلى نجران الداعى الإسماعيلى المسمى محمد بن إسماعيل المكرمى فارًّا من بلدة « طيبة » التى تبعد عن مدينة صنعاء مسافة بضع ساعات إلى جهة الجنوب[١] .

٦ — زعامة المكارمة

كنت مخطئا فى ظنى أن المكارمة من السادة العلويين إلى أن أتيحت لى فرصة الاجتماع المتكرر مع نائب المنصوب عن الداعى والمسمى حسين بن أحمد ، فأعلمنى أن المكارمة قحطانيون ، وسرد لى سلسلة نسبه إلى يعرب (حسين بن أحمد بن حسن ابن حسين بن على بن حسين بن على بن حسين بن أحمد بن محمد ، وهذا أول من سكن بدر من المكارمة ، ابن الفهد بن صلاح بن داود التامر بن محمد بن عبد الله ابن عمر بن على بن صبيح بن حسان بن مكرم بن سبأ بن حمير الأصغر بن المنتهب ابن عمرو بن علاق ابن ذى أبين بن ذى يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن وائل ابن الغوث بن حيدان بن قطر بن غريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير الأكبر ابن يشجب بن يعرب بن قحطان) .

---

(١) ذكر لى المكرمى أن بلدة طيبة كانت تسمى فى الزمان القديم دورم .

وسرد علىّ المكرمى حادثة قدوم محمد بن إسماعيل إلى نجران ، ثم كتب إلىّ خلاصة وافية نقلها عن كتاب جامع لتاريخ أئمة الإسماعيليين ودعاتهم وأعمالهم فى مدة الدعوة ، ولكنه رفض أن يطلعنى على أصل التاريخ الذى عنده مع أنه قديم ويتناقله الدعاة خلفاً عن سلف . وفهمت أن سبب امتناعه عن اطلاعى عليه يعود إلى أن مافيه عائد لشئون باطنية محضة ، وقاعدة أهل الباطن فى الإسلام المحافظة على أسرار معتقداتهم وعدم إطلاع الأجانب عنهم عليها .

كان المكارمة مقيمين فى « طيبة » ولكن الدعوة لم تنقل إليهم إلا متأخرة ، فقد قرأت فيما كتبه إلىّ المكرمى أسماء أربعة دعاة من الهنود قاموا بأمر الدعوة فى الهند وطيبة من عام ٩٧٤ إلى ١٠٨٨ هجرية وهم : داود بن عجب الذى حصل بعد وفاته انفصال فرقة الداوودية عن العليمانية وسليمان بن حسن هندى وجعفر بن سليمان وعلى بن سليمان ، وحين وفاة هذا أوصى بالأمر لشخص اسمه إبراهيم بن محمد بن الفهد (راجع سلسلة النسب) ابن صلاح المكرمى فقام بالدعوة فى بلدة طيبة مدة ٤٤ سنة وحين وفاته عهد بها إلى حفيده محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، فحصل بينه و بين الزيود حرب غلب فيها فهرب إلى القنفذة ومنها دعاه إسماعيليو نجران ليكون بينهم ، فحضر إلى بلاد نجران ، وسكن فى بلدة بناها وأسماها الجمعة ، ولكنها الآن خراب .

ومع أن المكارمة غرباء عن نجران وليس لهم سلطة زمنية (لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن اليامية مؤلفة من ثلاثة فروع لكل فرع رئيس زمنى قوى) فإنهم نجحوا فى أعمالهم وأصبحوا أصحاب الشأن فى الأمور الدينية والزمنية وامتدت فتوحاتهم إلى الأطراف المجاورة ، ووصل بعضهم إلى تريم فى حضرموت ، و بعضهم إلى أواسط نجد أيام النزاع بين آل سعود وابن دواس وآل معمر .

أما الذين تعاقبوا من دعاة المكارمة فى نجران فهم :

(١) محمد بن إسماعيل توفى سنة ١١٢٩ هـ

(٢) هِبَة بن إبراهيم توفى سنة ١١٦٠ هـ

(٣) إسماعيل بن هبة توفى سنة ١١٧٤ هـ

(٤) حسن بن هِبة توفى سنة ١٢٤١ هـ

(٥) عبد العلى بن الحسن بن إسماعيل بن إبراهيم توفى سنة ١١٩٥ هـ

(٦) عبد الله بن على بن هِبة توفى سنة ١٢٢٥ هـ

(٧) يوسف بن على بن هِبة توفى سنة ١٢٣٤ هـ

(٨) حسين بن حسين بن على بن هِبَة توفى سنة ١٢٤١ هـ

(٩) إسماعيل بن محمد بن حسن بن هِبة توفى سنة ١٢٥٦ هـ

(١٠) حسن بن محمد بن حسن بن هِبَة توفى سنة ١٢٦٢ هـ

(١١) حسن بن إسماعيل، وهومن آل شبام ومن غير المكارمة توفى سنة ١٢٨٩ هـ

(١٢) أحمد بن إسماعيل بن محمد بن حسن بن هِبَة توفى سنة ١٣٠٦ هـ

(١٣) عبد الله بن على توفى سنة ١٣٢٣ هـ

(١٤) على بن هِبَة توفى سنة ١٣٣٠ هـ

(١٥) على محسن بن حسين آل شبام توفى سنة ١٣٣٠ هـ

وهو الداعى إلى الآن ، وخليفته غلام حسين الهندى والمنصوب الآخر حسين ابن أحمد المكرمى . وجميع المكارمة الأحياء الموجودين فى بدر ونجران وشهارة فى اليمن أربعة أفخاذ ، ويجتمعون فى جد أعلى اسمه محمد بن الفهد المارّ ذكره فى سلسلة النسب ، وحسين بن أحمد المكرمى الخليفة المقبل يقول إن فخذه اسمه آل ذى لجدين دليلاً على أنه مكرمى أباً وأماً .

٧ — سكان « نجران »

يقطن نجران فرع من فروع قبيلة همدان بن زيد القحطانية ، كما أنه يوجد فيه عدد قليل من الذمّيين (اليهود) بعضهم من أصل يهودى والبعض الآخر من العرب الذين اعتنقوا الديانة اليهودية ، ويوجد فريق ثالث من السكان يحسب من الطبقات المنحطة التى لا يحترمها العرب ، ومكانة هذا الفريق أعلى من مكانة اليهود

وأحط من مقام القبائليين . أما اليهود فإننى قد علمت بعد البحث الدقيق بواسطة زعماء المكارمة واليامية أنهم لايزيدون عن مائة عائلة منتشرة فى قرى وادى نجران وحبونة وعملهم فى الصنائع التى يحسب العرب القبائليون أنها حِطة فى قدرهم ؛ مثل الخرازة وسائر أشغال الجلود والحِدَادة والسمكرة وسائر الأعمال الصناعية . ولليهود كاهن يقيم فى المخلاف يسميه الأهالى « الدَّبَاح » وهم يسبتون يوم السبت ويجتمعون غالباً فى بيت الكاهن ويقرءون بالعبرانية . واليهود متمتعون بحماية زعماء اليامية الثلاثة وحماية المكارمة أيضا ، ويظهر أنهم مسرورون من معيشتهم ، وهم يؤدون الجزية سنة فسنة ، ويبلغ مقدارها ريالا واحداً عن البالغ ذكراً أو أنثى . وذكر لى بعضهم أن أحد هؤلاء اليهود أغرى على السفر إلى فلسطين فأقام فيها مدة ، ثم عاد منها إلى قومه ، فسئل عن أسباب عودته ، فقال : « وجدت معاملة المسلمين والنصارى غير التى نعرفها عنهم فى بلادنا ، وغير ما نقرؤه فى كتبنا ، ووجدت اليهود غير اليهود الذين نعلمهم ، فقنعتُ نفسى ، وعدت إلى قومى » .

٨ — قبائل اليامية

أما العرب القبائليون أو اليامية فإنهم ثلاثة بطون :

أولا : بطن آل فاطمة — كبيرها جابر بن حسين أبو ساق :

(١) آل سالم
(٢) آل شرية
(٣) آل مسعد
(٤) آل الحامض
(٥) آل سليم
(٦) آل ذيبان
(٧) الزبادين
(٨) آل زمنانان
(٩) آل القفيلى
(١٠) آل بشر
(١١) القشانين
(١٢) الشركان فى هداءة
(١٣) المكاييل فى حبونة
(١٤) آل مخلص بدو
(١٥) آل زابن بدو
(١٦) آل معجبة «
(١٧) آل راكة «
(١٨) آل فطح «
(١٩) آل رشيد «
(٢٠) آل فهاد «
(٢١) آل العرجاء «



حسين بن أحمد المكرمى

المنصوب الذى يخلف « الداعى » « الإسماعيلى » فى حالة موته

(٢٢) آل سالم بدو ، وحضرهم فى بدر وفى حبونة

(٢٣) آل فروان « » » » » »

(٢٤) آل سفران « » » » » »

(٢٥) آل لبيد بدو فى بدر

(٢٦) آل عمرو بدو ، وحضرهم فى بدر

(٢٧) آل معمر بدو

(٢٨) آل زائد حضَر فى حبونة

(٢٩) آل شرار حضر فى نجران (يطلق عليهم آل أبو غبار) .

(٣٠) آل دكان حضر فى نجران » » » » »

(٣١) آل معيط حضر فى نجران » » » » »

(٣٢) آل سعد حضر فى حبونة

(٣٣) آل فائد » » »

(٣٤) آل الخريث » » »

(٣٥) آل الطويل » » »

(٣٦) ابن قنة » » »

(٣٧) ابن حامد حضر فى نجران .

ثانياً : بطن آل أم واجد ، كبيرها ابن نصيب آل المهرى :

(١) وهم ثلاثة أقسام آل غانم وآل على بن سعيد وآل حسن الحمد وابن الحزوبر يسكنون نجران .

(٢) آل الحارث وفيهم آل بحرى — آل الحارث فى نجران — وآل بحرى فى حبونة .

(٣) ابن الحزوبر (٤) آل عامر (٥) الدولاين

(٦) آل بنيان
(٧) العطازة } يطلق على هؤلاء الثلاثة آل عامر وهم بدو وحضرهم في حبونة
(٨) آل على بن عامر

(٩) آل صليع بدو وحضرهم فى حبونة
(١٠) الخضرا فى حبونة (١١) آل هميم فى حبونة
(١٢) آل بحرى (١٣) آل عباس فى نجران
(١٤) وادعة فى نجران
(١٥) آل قريع بدو ، وحضرهم فى حبونة
(١٦) الهيسان « » » »
(١٧) آل رزق « » » »
(١٨) آل على بن الأحسن فى نجران وحبونة حضر

ثالثاً : بطن أدشم « أجشم » وكبيرها سلطان بن منيف :

(١) آل مقاتل ، ومنهم بنو منيف فى نجران
(٢) آل حرث فى نجران (٣) زبيد فى نجران
(٤) آل أبو زيدة « » (٥) آل منصور « »
(٦) آل سليمان وفيهم آل بدر وآل مطيف والحسان وآل كليب وآل مطارد وآل خطاب وآل سنان وآل جريشة والدويس ، فى نجران
(٧) آل حسن ، فى نجران
(٨) ابن سليمان وهم وآل هتيلة بن على آل مشرف وآل حابس وآل سوران وآل حوران ، فى نجران
(٩) أبا الحارث فى نجران (١٠) الصقور
(١١) آل جعفر فى نجران ، ويقال لهم آل جبير
(١٢) آل ربعة فى نجران (١٣) آل مصعب فى نجران

(١٤) آل ريح فى نجران (١٥) الأشراف فى نجران هجرة آل الهندى

(١٦) آل جعران فى نجران فى بدر

(١٧) آل الهندى ، وقد ورد ذكرهم بصفة متفرقة ، ولكنهم كما يأتى :

آل حسن وآل سليمان وبالحارث وآل منصور وآل مقاتل وآل حرث وآل أبو زيدة وآل جير الربعة والأشراف هجرة آل الهرف وآل جبر .

ومن اليامية بدو يتبعون الأقسام السابقة ، وبعضهم ليس فيها :

أولا :

(١) جماعة ذيب المهان (من آل فطيح)
(٢) جماعة أبو نقايا « «
(٣) جماعة حسين بن سداح بن آل معجبة
(٤) جماعة الحدرى من آل مطلق وآل مخلص
(٥) جماعة منير الرشيد من آل زائد من الرشيد
(٦) جماعة فلاح بن سمحة من آل عمرو

} يتعبون جابر بن حسين أبو ساق

(٧) جماعة إبراهيم الأسلوى من آل عامر بن نصيب

(٨) عوض بن حليمة من آل فروان
(٩) مفاشر آل سالم من آل سالم
(١٠) صالح بن حمد آل لبيد من آل لبيد

} يتبعون جابر بن حسين أبو ساق

(١١) جابر بن دكام يتبع ابن نصيب

ثانيا : آل أم واجد وكبيرهم ابن نصيب وأكثرهم فى حبونة ولهم فى نجران ثمانى قرى سأذكرها فيما بعد .

ثالثا : أدشم أو أجشم وكبيرهم سلطان بن منيف ولهم فى نجران ١١ قرية كبيرة سنأتى على ذكرها حين إيراد أسماء القرى ومواقعها فيما يأتى .

٩ — قبائل اليمن المشهورة ونسبة اليامية إلى همدان بن زيد

علمت من الكثيرين من الثقات أن القبائل العربية التى تقطن جبال اليمن

الواقعة إلى الشمال من صنعاء حتى حدود بلاد ابن سعود ترجع أنسابهـا إلى أصلين كبيرين ويحدهما من شماليهما قبائل عربية سعودية تنحدر من أصل آخر سأذكره أيضا . أما الأصلان فهما : أولا همدان بن زيد ، والثانى : خولان بن عامر ، والأصل الذى يجاورهما من شماليهما هو قحطان بن عامر (وربما كان ابن عمرو) . أما قبيلة همدان بن زيد فإنها تنقسم إلى قسمين كبيرين (١) حاشد وهو أقربهما إلى صنعاء ، (٢) بكيل ، وتنقسم بكيل إلى عدة أقسام أذكرها فيما يلى :

أولا — دهم ، وتتألف من فرقتين : ذوى محمد وذوى حسين ، وهما رأس بكيل .
ثانياً — سفيان أهل الحرف . ثالثا — أرحب . رابعا — وائلة وأهل الفرع .
خامساً — اليامية ، وهى أهل نجران وحبونة وآل مرة والعجمان فى نجد .
سادساً — وادعة التى تقيم فى بلاد ظهران .

وأما قبيلة خولان بن عامر فإنها تقيم فى السروات إلى جهات الغرب من أقسام وفروع بكيل . ولخولان ثلاثة مراكز رئيسية فى الإدارة ، الأول : مركز رازح ، والثانى — مركز ساقين ، والثالث : مركز صعدة ،
وأما أهم أقسام خولان فإنها كما يأتى :

أولا — قبيلة سحار ، وهى فى صعدة وأطرافها وفى بلاد الصعيد المجاور لصعدة وفيها قرية واحدة منفصلة عن بقية سحار بواسطة بنى جماعة وهى أقرب القرى اليمانية إلى حدود الملك ابن سعود واسمها (يبادة) قرية ابن صبحان . ثانياً — قبيلة بنى جماعة وهى فى بلدة باقم وأطرافها . ثالثا — قبائل رازح والنظير . رابعا — قبائل بنى مشيح و بنى منبه . خامسا — قبائل فيفا و بنى مالك و بنى عبد الله التابعون لابن سعود .
و يفهم مما ذكرنا آنفا أن لليامية أقارب فى نجد وفى اليمن على السواء .

الفصل الثاني

جغرافية نجران

صفة الوادى — القرى — قرى وادى حبونة — مراكز المكارمة — أسواق نجران
الطرق الموصلة إلى نجران — الآثار القديمة — الحاصلات — المسافات

١ — صفة الوادى

يقع نجران فى منبسط من الأرض السهلة المرتفعة التى يخترقها فى وسطها مجرى الوادى المعروف بوادى نجران من أعلاه إلى أسفله حيث يغور فى رمال الربع الخالى . ويحيط بنجران من الجنوب والشمال سلسلتان من الجبال والهضاب تفصل السلسلة الجنوبية بينه و بين بلاد الفرع و وائلة ، وهى متفرعة من جبال السراة المرتفعة متجهة من الغرب إلى الشرق ، و يقل ارتفاعها كلما اتجهت إلى الشرق إلى أن تغور فى رمال الربع الخالى . وأهم جبال هذه السلسلة جبل همدان وهو مرتفع عن سائر أقسام السلسلة التى تسمى باسم جبال نجران . وأكثر مواقع هذه السلسلة صعبة المرتقى بحيث يكون الاجتياز من نجران بواسطتها مستصعباً جداً إلا فى مواقع معينة فيها فجوات تعرف بالعقبات أهمها عقبة (نهوقة) التى تبعد عن بلدة الحضن مسافة بضع ساعات إلى جهة الجنوب . وأما السلسلة الشمالية فهى أقل ارتفاعاً من جبال نجران وفى سطوحها مرتفعات منبسطة تصلح لرعى المواشى ، ولذلك سماها أهلها (الصحن) ومع أن طرقاً كثيرة تتخلل هــذه السلسلة فإن المسافر ما بين حبونة ونجران يخترقها فى مواقع معينة سنأتى على ذكرها حين البحث فى الطرق الموصلة إلى نجران . وهذه السلسلة تفصل كما ذكرنا بين نجران وحبونة وتغور فى الرمال قبل أن ينتهى الواديان فى منقعهما فى الرمال الـكثيفة .

أما من جهة الغرب فإن نجران متصل ببعض بلاد وائلة وهى قرايا نقعة ووعار ووادى نشور بواسطة عقبة ومضيق تنحدر منهما السيول المتجمعة من بلاد سحار فى الصعيد بقرب صعدة ، وتؤلف هذه السيول المجرى الأعلى لوادى نجران . ويكون لوادى نجران أسماء أخرى قبل قطعه المضيق المعروف باسم مضيق مروان والعقبة المعروفة بعقبة رفادة ، ولكن اسم نجران لا يطلق عليه إلا من بعد اجتيازه للعقبة والمضيق .

ويتصل نجران من الشمال الغربى بأعلى وادى حبونة المسمى بالقرن والخانق . وأول القرى العامرة فى علو وادى نجران بعد تشكله من مضيق مروان وعقبة رفادة قرية تعرف بالموفجة أو قرية ابن الزين ، وهى تبعد عن صعدة مسيرة يومين لجمال الحمل إلى جهة المشرق .

وقد شيدت القرايا على أطراف مجرى الوادى من بعد الموفجة إلى أن يستعرض الوادى وتنبسط الأرض الموجودة على ضفتيه ، وتبعد الشقة بين سلسلتى الجبال الشمالية والجنوبية . وبعد أن يجتاز الوادى أربع قرايا تصبح وضعية القرى من بعد ذلك مختلفة ، بحيث يمكن حساب أن القرى واقعة على الضفة اليمنى (الجنوبية) للوادى وعلى الضفة اليسرى (الشمالية) . والقرايا التى على الضفة اليمنى أقل من القرايا التى على الضفة اليسرى ، فالأولى تبلغ عشر قرايا ، ولكن الثانية تزيد عن العشرين . ويبلغ طول الوادى من علوه عند قرية الموفجة إلى منتهاه وراء قرايا المذنب المعروفة ببلاد ابن منجم أكثر من يوم للسائر المستعجل ، ويمتد بعد ذلك مسافة يوم آخر فى مواضع خالية من المياه إلا فى موضعين أو ثلاثة فيها آبار يستقى منها الرعاة إلى أن ينتهى مجرى الوادى عند عرق رملى اسمه عرق المهرة ، بقربه المنقع ، أى المكان الذى تتجمع فيه فضلات سيول الوادى بين الرمال الكثيفة .

أما ارتفاع نجران عن سطح البحر فإنى لم أستطع تحقيقه ، غير أننى قياساً على ما علمته من أن بلاد نجران هى بلاد البعير والنخيل وعلى ما اختبرته بنفسى من أن بلاد عسير لا يعيش فيها النخيل لشدة البرد أيام الشتاء ، بينما هو يعيش بنجاح

فى بلاد خيبر التى ترتفع عن سطح البحر ٨٠٠٠ قدم ، فإننى أحسب أن ارتفاع علو نجران مثل ارتفاع خيبر .

٢ — القرى العامرة

يبلغ عدد القرايا الكبيرة والصغيرة فى وادى نجران نحواً من خمس وثلاثين قرية سأذكرها فيما يأتى مبتدئاً بها حسب ترتيبها من أعلى الوادى متجهاً إلى جهة مصبه . وقبل سرد أسماء القرى هذه أحب أن أبين أن عدد البيوت التى ذكرتها إلى جانب اسم كل قرية يقصد به البيوت الكبيرة التى تسمى حصوناً ، وهى نوع من البناء على أطرافه سور مرتفع لايمكن الدخول منه إلى وسطه ، أو إلى البناء المرتفع إلا من باب صغير محكم ، ويقدم البرج عليه فلا يستطيع الدخول إلا من هو مأذون له . وأما البيوت الصغيرة والحقيرة فلا تدخل فى حسابنا هذا . وألاحظ أيضا أن أهل نجران يغلب عليهم تسمية القرايا باسم العائلات التى تملكها وتسميها « وطن » أو « حلة » .

أولا : القرايا التى فى مجرى الوادى قبل أن يستعرض :

(١) قرية الموفجة ، وهى حلتان لابن الزين وابن الحزوبر ويبلغ عدد حصونها ١٠ — ١٢ حصناً .

(٢) زور وادعة ٤٠ — ٥٠ حصناً .

(٣) المخلاف الأعلى ، وهو عدة حلل لآل فرحان وآل قضيع وآل الحزوبر ، وتبلغ ٤٠ — ٥٠ حصناً .

(٤) زور آل الحارث ، وهى عدة حلل لآل عسكر وآل خديش وابن دومان وتبلغ ٥٠ — ٦٠ حصناً .

ثانياً : القرايا التى يمكن عدّها على الضفة اليمنى لمجرى الوادى « الجنوبية » :

(١) الصفا ٨ بيوت .

(٢) سلوى ١٥ — ٢٠ بيتاً

(٣) قرية آل عقيل ؛ وهى ثلاث حلل : سهلة ،وأم در بين ، وآل عقيل ، وعدد بيوتها ٢٠ — ٣٠ بيتا

(٤) الحضن ، وهى قرية كبيرة ، وتتألف من عدة حلل أهمها آل حيدر وآل عباس ، ويقال إن أكثر أهلها من وائلة ، وعدد بيوتها ١٠٠ بيت

(٥) الجرية ، بلاد آل حسن ١٠٠ بيت

(٦) القابل ١٠٠ بيت « آثار الكنيسة فى القابل » .

(٧) رجلة ، بلاد آل منصور . بين قريتى القابل ورجلة آل منصور بعيداً عنهما وعن مجرى الوادى إلى جهة الجنوب فى طرف النخيل على الطريق الذاهبة إلى عقبة نهوقة ، بقربه آثار خرائب كثيرة يسميها أهل نجران باسم الحصن ، أو حصن الأخدود ، وفيه آثار مهدومة وآثار كنيسة ، وكثيراً ما يجدون بين أطلالها عاديات قديمة وعلى حجارتها بعض الكتابة القديمة أيضا . ويدعى أهل نجران أن هذا المكان هو مكان الكنيسة المشهورة التى كانت تابعة لأسقفية نجران ، ومن بعد هذا المكان يقل العمران وتكثر المزارع والمياه فقط مثل الحصين والروخة والدريب .

ثالثاً : قرايا الضفة اليسرى « الشمالية » :

(١) شعب آل بران ٢٠ بيتاً

(٢) العان واقمة بقرب جبل ، وهى بلد المكرمى وفيها قصره وهى ١٠ بيوت

(٣) المراطة ٣٠ بيتاً

(٤) الشبهان ٢٠ بيتاً

(٥) المشراح ٦ بيوت

(٦) المرفع ١٠ بيوت

(٧) خشيوة وهى بلدة أنشأها حسين المكرمى منذ ٢٥ سنة ٣ بيوت

(٨) باطن بنى سليمان ١٠٠ بيت

(٩) المخباة ، وهى بلاد الأشراف وفيها أربع حلل ٣٠ — ٤٠ بيتاً

(١٠) البطحاء ٤ بيوت

(١١) دحضة ٤٠ بيتاً

(١٢) بوغبار ٢٠ بيتاً

(١٣) طعزة ٤ بيوت

(١٤) غنيمة ٥ بيوت

(١٥) عكام ٤٠ بيتاً

(١٦) عوكلة ٢٠ بيتاً

(١٧) الحامية ٤ بيوت

(١٨) صاغر بلاد ابو ساق ١٠٠ بيت

(١٩) بير الأثلة ٥ بيوت

(٢٠) المخلاف الأسفل ٤٠ بيتاً

(٢١) الحزم أو المذنب بلد ابن منجم ١٥ بيتاً

وبلاد المذنب آخر العمران من جهة الشرق فى نجران ، و بعدها تأتى آبار وعيون دامرة وآثار خربة منها العربة والخضراء إلى أن ينتهى مجرى الوادى و يغور فى الرمال . والقرايا التى تتبع ابن نصيب هى : زور وادعة وسلوى والصفا والحصن وزور آل الحارث وشعيب آل بران والشبهان ، والقرايا التى تتبع ابن منيف هى : سلمان والمخباة والجربة و بلاد آل بالحارث والقابل ورجلة ، والقرايا الباقية تابعة لجابر بن حسين أبو ساق .

٣ — قرى وادى حبونة

(١) القرن	بيوتها ٣٠	(٢) آل قنة	بيوتها ٤
(٣) آل دواخ		(٤) آل سعد	« ٢٠
(٥) الشهابلة		(٦) ابن جمعة	« ١٠

(٧) ابن قديلة	بيوتها ٣	(٨) آل فائد	
(٩) أم الحوض	« ٨	(١٠) الجفة	بيوتها ٣٠
(١١) مجمع آل بحرى	« ١٠٠	(١٢) النقعاء	« ٦
(١٣) بنو هميم	« ٢٠	(١٤) شط الخضرة	« ٤٠
(١٥) قابل منيف	« ٢٠	(١٦) سلوى : عين ماء فى قصره	
(١٧) الحصينية .			

٤ — مراكز المكارمة

المكارمة عدة مراكز فى نجران و بلاد يام ، وقد كان نزول الداعى المكرمى الأول حوالى عام ١٠٩ هـ حين قدومه إلى نجران فى مكان اسمه الجمعة ، وهو الآن خراب . والبلدة الدينية للمكارمة والإسماعيلية فى نجران هى بلدة العان ، وكذلك بلدة بدرفإنها مركز دينى مهم ، ولهم علاوة على ذلك ثلاث قرايا هى خشيوة ، وقد كانت خربة فحفر آبارها القديمة المنصوب الحالى حسين بن أحمد عام ١٣٣٧ هـ ، وقريتا هدادة وسهلة للمكارمة أيضاً .

٥ — أسواق « نجران »

لكافة القبائل العربية عادات قديمة فى إقامة أسواق أسبوعية فى مواقع شتى من البلاد المتجاورة ، وكثيراً ما يطلق على المكان اسم اليوم الذى يعقد فيه السوق ، ولذلك فإنه من المعتاد جداً أن نجد بلداناً كثير كل واحد منها اسمه « سوق الجمعة» أو الخميس ، أو أى يوم آخر من أيام الأسبوع . والسوق مجتمع أسبوعى لأجل تبادل السلع والحاصلات الصناعية والتجارية ، ومع أنه قد توجد مخازن للبيع والشراء الدائم فى مواقع مختلفة من القرايا الكبيرة ، إلا أن الأهمية هى ليوم السوق حيث تقضى الأمور والدعاوى وتحل النزاعات وتراجع هيئات الحكومة وتجبى الرسوم الحكومية وتبلغ الإعلانات العامة ، وعلى الجملة فإن السوق يوم عام للنظر فى جميع حاجات

أصحاب البلاد المجاورة المادية والمعنوية من مشترى السلع وتبادلها إلى مشترى الحيوانات إلى حل القضايا ومراجعة الحكومة ، إلى عقد الخطب للزواج وغير ذلك .

وعادات أهل السوق أن يكونوا آمنين ما زالوا فيه ، ويكون الدخول إليه فى وجه زعيم من الزعماء الذين قد سمى الموضع باسمهم ، مثل سوق خميس ومشيط فإنه يعقد فى بلدة اسمها الدرب من القرايا الكثيرة الواقعة فى علو وادى بيشة ، ولكنها تسمى باسم حامى المكان وزعيمه ابن مشيط ، ونظراً لأنه يعقد يوم الخميس فقد سمى المكان سوق الخميس . أما نجران ففيها عدة أسواق نذكرها كما يأتى :

(١) سوق الأحد فى دحضة بحماية ابن منيف .

(٢) سوق الاثنين فى بنى سلمان « « « .

(٣) سوق الثلاثاء فى بدر بحماية أبو ساق .

(٤) سوق الأربعاء فى قرب العان بحماية ابن نصيب .

(٥) سوق الخميس فى القابل بحماية ابن منيف .

(٦) سوق الجمعة فى صاغر بحماية أبو ساق أولا .

٦ — الطرق الموصلة إلى « نجران »

الطرق الموصلة إلى نجران من جهات الشمال والغرب والجنوب كثيرة . وأما من جهة الشرق فإن الرمال القفار لا تجعل سبيلا لطرق معلومة مطروقة . وهذه أهم الطرق المشار إليها :

أولاً : طريق السيارات من خميس مشيط إلى نجران بطريق وادى تثليث وحبونة ثم نجران معينة بالكيلومترات .

كيلومتر

٤٩ من خميس مشيط إلى وادى طريب .

٧٠ من طريب إلى السبيخة (بلد ابن شفلوط) .

٥٦ من السبيخة إلى زعوان (فى وادى تثليث)

كيلو متر

٤١ من تثليث إلى المواه

٢٠٩ من المواه إلى الحصينية فى أسفل وادى حبونة .

٤٧ من الحصينية إلى نجران عند الروضة فى أسفل وادى نجران .

[ملاحظة : مسافة السبعة والأربعين الكيلومترات الأخيرة تدل على البعد بين مجرى وادى حبونة ووادى نجران]

ثانياً : طريق المشاة وجمال الحمل من خميس مشيط إلى نجران ، وهو طريق بعيـد نوعاً ما ، وتقدير السير فيه بحساب المشاة أو سير الجمال المحملة ونهار المشى المذكور هو مرحلة متوسطة أى من ٣٥ — ٤٥ كيلومتراً بحساب السير المتوسط :

المسافة باليوم

١ من خميس مشيط فى اتباع مجرى وادى بيشة إلى جهـة علوه إلى جهـة الجنوب الشرقى مارًّا ببلاد رفيدة « قرية الجوف » ثم قرية غص إلى بلاد ابن سالم فى قرية يعقد فيها السوق يوم الخميس وتسمى خميس عبيدة والمبيت هنا .

١ المسير صباحاً من خميس عبيدة مارًّا فى قرايا وادى الحسينية ثم قرايا وادى الفرحة ثم قرية أبو قبرة فى وادى شربة إلى أن يحين المساء فينزل فى بلدة أبو لعثة « ابن دليم » فى أسفل وادى يعوض .

١ المسير صباحاً من بلد أبو لعثة مارًّا بمجمع الفيض إلى بلاد مجمع سنحان .

١ من سنحان إلى بلدة بدر ، ولا يوجد بينهما قرايا .

١ من بدر إلى قرايا وادى المحمضـة ، ومنها إلى الخانق الذى هو أعلى بلد فى وادى حبونة .

١ من الخانق إلى بلاد آل سعد فى وادى حبونة متجهاً من الغرب إلى الشرق إلى قرية آل فائد ، ثم إلى الجفة ، ثم مجمع آل بحرى ، ثم بلاد بنى هميم والمبيت فى الشطين التى هى قريتان قابل منيف وشط الخضرة وهى حد العمران فى أسفل وادى حبونة من جهة الشرق .

المسافة باليوم

١ الممشى صباحاً من شط الخضرة والمقيل فى سلوى وهى بئر فى أسفل وادى حبونة والممسى فى جداء وهو ماء فى قفرة فى أسفل وادى حبونة .

١ المسير من جداء والممسى فى رغام وهو بئر، ومن رغام إلى بلاد ابن منجم فى أسفل نجران ساعات قصيرة .

ثالثاً : الطريق من خميس مشيط إلى نجران ، وهو أخصر من سابقه ، والمسافة مدونة بالأيام على حسب السير المعتدل .

المسافة باليوم

١ من الخميس إلى الفرعين

١ من الفرعين إلى قرية آل بسام فى وادى الحسينية .

١ من آل بسام إلى الرفضة فى بلاد سنحان

١ من سنحان إلى بدر « عند الظهر » ومنها إلى الجزعة .

١ من الجزعة إلى الخانق « عند الظهر » ومنها إلى الجفة

١ من جفة يترك وادى حبونة على يساره و يجتاز عقبة حلاحلة التى تفصل وادى حبونة عن نجران والممسى فى عش الضحى .

١ من عش الضحى إلى الرغام عند الظهر ، ومن الرغام يمسى فى المخلاف الأسفل فى نجران .

رابعاً : الطريق من أبها هى نفس الطريق من خميس مشيط ، ما عدا المرحلة الأولى فإن السائر من أبها إما أن يحضر إلى الخميس و إما إلى حجلة الواقعة فى منتصف المسافة بين أبها والخميس ، ومنها إلى بلاد عبيدة ، ومن بلاد عبيدة تتحدان .

خامساً : الطريق من صعدة إلى الموفجة فى علو نجران تستغرق يومين ، وهى تمتد من الموفجة غربا إلى أن تجتاز عقبة رفادة ثم مضيق مروان ، ومنها إلى رهوان إلى القرب من وعار ونقعة ومن رهوان التى هي أول قرايا سحار يصل إلى أول بلاد الصعيد المحيط بصعدة .

سادساً : الطريق من نجران إلى بلاد الفرع ووائلة يكون من بلدة الحضن ومنها إلى عقبة نهوقة ، والمسافة بضع ساعات أيضا ، فالمسافة بين بلاد الفرع ووائلة ونجران لاتزيد عن يوم واحد .

٧ — الآثار القديمة

أخبرنى المكرمى أنه حينما أسس قريته الجديدة خشيوة منذ ١٦ سنة اختار لها موقعاً قديماً خربا علم أن فيه بقايا آبار دامرة فأصلحها فوجدها غزيرة . وأن هنالك مواضع كثيرة فى نجران فيها آثار خربات قديمة وآبار دامرة . وذكر لى أن أهل نجران يذكرون أن المعمور الآن من بلادهم يبلغ نصف ما كان فى الزمن القديم أو أقل من ذلك بقليل . وهنالك مواقع شتى وجدوا فيها آثار فخار وآثار عملة ذهبية وتماثيل صغيرة معدنية كانوا يأخذونها و يبيعونها فى صعدة ، وتوجد أماكن فيها حجارة عليها كتابة قديمة لايعلمون ماهى . أما المواقع المهمة الأثرية فإنها فى بلدة الحضن وفى المكان الذى يسمونه بقصر الأخدود بين القابل ورجلة كما ذكر آنفا و بقرب المخلاف الأعلى والأسفل . ولكنه لم يقدر أن يزيد على ذلك من المعلومات شيئا . وهو يؤكد أن خربات الأخدود تحوى آثارا قديمة عديمة النظير و إنما تحتاج إلى بحث وتنقيب .

٨ — الحاصلات

أهم الحيوانات الداجنة فى نجران الغنم والجمال ، وبهذا الاعتبار تختلف عن بلاد عسير واليمن الجبلية فإن الجمال فيها معدومة . وبهذا الاعتبار أيضاً يمكن عد نجران مماثلة فى الحيوانات لنجد . وأما النباتات فان الاعتماد على البر والشعير والذرة والنخيل ، وتروى الحاصلات بالمياه التى تستخرج من الآبار بالسوانى الابتدائية المستعملة فى سائر بلاد العرب .

ذكرت أنه ليس للداعى المكرمى سلطة زمنية على أتباعه ، ولذلك فإنه يعيش من الواردات التى يتبرعون له بها ، وهى على كل حال ليست كل مايجبى من أهل نجران

(لأن قسماً كبيراً يأخذه المشايخ والأمراء) وأما الزكاة السنوية التى يحصل عليها المكرمى فهى ١٠٠٠٠ رأس من الغنم و ٩٠٠٠ صاع من الذرة ومثلها من الحنطة (الصاع يعادل وزنه ٢٣٠ ريال فرنسا) و ٢١٦٠٠ منّ من التمر فى كل سنتين مرة .

٩ — المسافات

من قرية الموفجة إلى زور وادعة	نصف ساعة
من زور وادعة إلى المخلاف الأعلى	تقريباً كذلك
من المخلاف الأعلى إلى زور آل الحارث	» »
من زور آل الحارث إلى الصفا	» »
من الصفا إلى سلوى	تقريبا ساعة
من سلوى إلى قرية آل عقيل	نصف ساعة
من قرية آل عقيل إلى الحضن	نصف ساعة
من الحضن إلى الجربة	ساعة
من الجربة إلى القابل	نصف ساعة
من القابل إلى رجلة بلاد منصور	ساعتان
من الموفجة من علو نجران بالمحملة (إلى الرهن)	عشر ساعات
ثم من رهوان إلى صعدة	١٦ ساعة

محتويات الكتاب